ليس لنا أصدقاء من غير الجبال

تورد فالستروم

نبذة عن المؤلف

تورد فالستروم: كاتب وصحفي سويدي ولد عام 1928 ويقيم منذ عام 1989 في جمهورية أيرلندا.

لقد جاهد فالستروم في كتابه الأول (آندارين. رحلة إلى أمريكا اللاتينية) من اجل التجديد في أدب الرحلات بوصفه نوعاً أدبيا يحتوي ((مذكرات انطباعية ولوحات أدبية مثيرة وحوادث جرت مع الناس... كل هذا المزيج مع ما هو مألوف من قطع الحكاية ووصف البيئة. لقد كان عملاً جريئاً ولكنه نجح، فبعض من أعماله يعتبر الأفضل في أدب الرحلات السويدي)) كما يقول الناقد المعروف ل هولمبرغ.

أهم كتبه (الفجر) 1964 عن الأشهر الاولى من استقلال زامبيا. (الحلم بجزيرة) 1972 في وصف رحلة إلى جزر المالديف، (فضاء الماء) 1977 عن بحر الجنوب. وصف فالستروم عام 1968 صراع نيجيريا - بيافرا في كتابه (بيافرا) وكتابه هذا الذي بين ايدينا اصبح عام 1991 راهناً حيث كان الكثير من الريبورتاجات التي كتبت في الصحافة آنذاك يردد صدى ما كتبه فالستروم قبل 16 عاماً.

حاز الكاتب عام 1968 على جائزة الصحافة الكبرى وعام 1991 جائزة الصحافة الأسبوعية المسماة باسم سفين برومان.

يقرأ المرء في الموسوعة السويدية: ((إن كتب فالستروم عن المالديف وبيافرا وكوردستان اكتسبت سمة بناء الرأي العام وأثرت في السياسة الدولية)).

كلمة الملف المخصصة للطبعة العربية من كتاب
((ليس لنا أصدقاء من غير الجبال))

ما إن عدت من كوردستان عام 1975 حتى كتبت وبسرعة ريبورتاجي الطويل هذا بهدف التحدث بصدق ووضوح عما عايشته وشاهدته، وربما بهذا العمل أردت المساهمة في إيقاظ ضمير العالم.

لم أكن متفائلاً... فبرغم من كل شيء، هو مجرد كلمات لا اكثر: ((نحن نرى ان مطالبكم عادلة. نحن متأثرون بكفاحكم ولكن وضعكم ميئوس منه ولا نستطيع مساعدتكم)).

E-Pirtûk www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

ولكني ومع ذلك آمنت في أعماقي بحل ما. لقد عرفت بأن كوردستان، هذه البلاد الرائعة يمكنها أن تتحول إلى واحة للسلام وملاذ للحرية في هذا الجزء المتوتر من العالم، وان مستقبل هذا الشعب العظيم يجب أن يكون شيئاً آخر غير القتال من اجل الحياة ضد الظالمين والمستغلين والطغاة.

يملؤني طبع كتابي اليوم وبعد اثنين وعشرين عاماً من إصداره بالسويدية، بترجمته إلى العربية... بمشاعر متضاربة. طبعاً أنا سعيد ويشرفني ذلك ولكني اشعر ايضا بالحزن والعجز إزاء حقيقة ان الكتاب لايزال يوصف بأنه ((راهن))... ان وضع الأكراد خلال هذه الفترة الطويلة كاد أن يتغير وعلى كل حال ليس إلى الأفضل. أنا شخصياً لا يمكنني قراءة ما كتبته قبل سنوات عديدة دون أن تغرورق عيناي بالدموع.

تورد فالستروم

مقدمة بقلم المترجم

لماذا هذا الكتاب؟ وما الفائدة التي يمكن للمرء أن يجنيها من كتاب نشر بلغته الأصلية أي السويدية منذ عام 1975 حتى ولو كان هذا الكتاب يتناول القضية الكوردية؟ فمن المعروف انه بعد الحرب التي سميت بحرب الخليج 1991 تغيرت الكثير من المعطيات والمؤشرات سواء على الساحة الكوردية أم النظام العالمي الجديد بعد انهيار ما سمي بالمنظومة الاشتراكية وتوجه ميزان القوى الدولية نحو ترجيح الكفة لصالح القوى الغربية الامريكية والاوربية.

وأعود إلى طرح السؤال الذي طرحته في البداية... ما ضرورة ترجمة كتاب يعتبر قديماً في حساب تطور الأحداث التاريخية وبخاصة في العقدين الآخرين من هذا القرن؟

ثمة دوافع عديدة تكمن وراء قيام كاتب ما بترجمة ما، وليس من شأني هنا أن أخوض في بيان وشرح هذه الدوافع التي - إذا أردنا الحق - لايمكن حصرها. أما ما يتعلق بذاتي الشخصية فقد قرأت هذا الكتاب قبل ثلاث سنوات وقد صعقني وأثار ذهولي وإعجابي من عدة نواح، فمن ناحية هو أول ريبورتاج اقرؤه وقد كتبه أجنبي عاش مع الثورة فترة لابأس بها نسبياً... لقد قضى المؤلف اكثر من شهر في كوردستان كان فيها على صلة حية ليس بالبيشمركه فحسب وانما بالناس البسطاء من النساء والأطفال والشيوخ أيضا... أولئك الناس الذين عانوا وطأة الحرب اكثر من الكل. ولأنه من ناحية اخرى تحليل عميق لما جرى قبل اكثر من عشرين سنة ويجدر بشعبنا الكوردي أن يعود إليه ليتلمس الأسباب والعوامل التي أدت إلى النكسة... أن يعود إليه ليتجنب قبول الوصفات الجاهزة التي كانت ولاتزال تقدم إليه في صورة أحكام مسبقة الصنع... صنعت هنا وهناك بمساعدة ايديولوجيات غريبة عن قيمنا ومجتمعنا واخلاقنا. إنني أقول هذا ولا ادعي باني كنت بريئاً من ذلك، وأنا ابدأ بنفسي لكي أرد قليلاً من الجميل الذي قدمه القائد البارزاني لشعبنا الكوردي الرازح تحت نير الاحتلال. لقد قررت أن اترجم هذا الكتاب في هذا الزمن العصيب الذي يجري فيه الهجوم على شخصية وإرث

القائد الراحل مصطفى البارزاني من اناس لاهم لهم سوى محاولة بناء مجد زائف على الكذب والخديعة والدسيسة... أناس يكاد الغيظ يأكلهم من بقاء ذكرى القائد الراحل حية في ذاكرة وضمير ووجدان الشعب الكوردي بوصفه قائداً لكل الشعب بغض النظر عن أحزابه وطبقاته وأديانه.

إذا كان الوفاء من الشيم الحميدة فيجدر بنا أن نكون أوفياء لذكرى قائد لم يكن له من هم سوى هم شعبه ولم يأتمر سوى بأمر شعبه وارادته ولم يركض وراء مجد شخصي زائل بزوال الشخص... يجدر بنا أن نكون أوفياء لذكرى وارث قائد كان يثير دهشة واعجاب الغرباء قبل الأصدقاء.

ثمة بعض التحليلات السياسية في الكتاب من النوع الذي لايمكن المرور بها مر الكرام وقد لفتت انتباهي وأثارت دهشتي الشديدة ففي هذه التحليلات تنبؤات بالمستقبل تحققت مائة بالمائة. ومنها ان الكاتب يورد في ريبورتاجه ما يقوله سعيد دزه يي في أحد تعليقاته السياسية من إذاعة الثورة بأن سياسة العراق ستجلب الكوارث على كل المنطقة فيما إذا تم لها سحق الثورة الكوردية. لم يفت على هذا التنبؤ خلال خمس سنوات حتى كانت الويلات التي سببها النظام العراقي الفاشي تتلو الواحدة بعد الاخرى، فمن الحرب مع إيران إلى احتلال الكويت وما سمي بحرب الخليج ثم الهجوم من جديد على كوردستان و...و.

ومن جهة اخرى يذكر المؤلف نفسه بان انتصاراً عراقياً سيعني ازدياد خطر اندلاع حرب بين العراق و إيران، وقد صح هذا التوقع تماماً وكانت هذه الحرب ستنشب بغض النظر عن تغير النظام الإيراني أو عدمه لعدة أسباب من أهمها برأيي هو إرادة الطغمة الحاكمة العراقية إبقاء الجيش العراقي في حالة حرب دائمية وإبقاءه بعيداً عن العاصمة بغداد خوفاً من قيامه بالإطاحة بالنظام.

ليس الكتاب مجرد وصف وسرد وقائع وانما هو قبل كل شيء تحليل نقدي عميق للعلاقات والأوضاع التي كانت تعيشها كوردستان آنذاك. هذا التحليل والنقد لم يفقدا أهميتهما حتى يومنا هذا، ولعل هذا هو الدافع الأهم الذي دفعني إلى ترجمته إلى العربية وتقديمه إلى قرائه من أبناء الشعبين الكوردي والعربي.

لا يسعني هنا في هذه المقدمة القصيرة إلا التوجه إلى اليسار الكوردي والعربي على السواء، واقصد باليسار هنا اليسار الذي لا يزال أسير الإيديولوجية وعبدها، وغير ممتلك الجرأة ليعلن عن أخطائه القديمة والجديدة، كما لا ينفك يأمل سدى بإرجاع عجلة التاريخ إلى الوراء... أتوجه إلى هذا اليسار كي يمعن بالتفكير في الدور السوفييتي في العديد من بقاع الأرض عامة وفي كوردستان خاصة، وان يفهم إن هذا الدور كانت تمليه مصلحة الدولة العظمى، وتحديداً مصلحة المجمع الصناعي العسكري فيها تماماً كما في الولايات المتحدة الأمريكية (ليس غريباً ان كلتا الدولتين تتماثلان في الكثير من الأشياء باستثناء الديمقراطية)... هذا المجمع الصناعي العسكري الذي يستمر الآن، وبعد سقوط ماكان يسمى ظلماً بالنظام الشيوعي، في نهج السياسة القديمة للاتحاد السوفييتي ولكن بفارق بسيط وهو انه يفعل ذلك بصورة مكشوفة وصفيقة و((ديمقراطية))!.

لقد حاولت أن أكون في ترجمتي أمينا للنص السويدي على نحو متطرف بالرغم من معرفتي مسبقاً ان ذلك سيتسبب في نوع من الجفاف في الاسلوب، ولقد اضطرت إلى ذلك لعدة أسباب أذكر منها ضيق الوقت.

ولكن ومن جهة اخرى فاني أرى إن ذلك مما يفرضه هذا النوع من الكتاب أي التحقيق الصحفي، ولعل الذين لا يزالون على قيد الحياة، أطال الله في اعمارهم، من اصدقاء الكاتب ومن القادة الكورد ممن التقى بهم واجرى حوارات معهم... لعلهم يقرؤون الكتاب ويتذكرون ما قالوه آنذاك ويتأملون في الواقع الحالي لأمتهم بعد مضي اكثر من عقدين على تلك الأحداث العظيمة ولعل ذلك يفيد، فكثيراً ما تكون قراءة الأحداث الماضية مفيدة.

واخيراً فلقد هزني بعمق ما قاله كاتب هذا الريبوتاج عن مصطفى البارزاني بعد أن قابله لقد أثر فيه البارزاني بحكمته وتواضعه وحزمه تأثيراً لا يوصف واود أن أختم هذه المقدمة بكلماته التي قالها فيه وعسى أن يقرأها اولئك الذين يخدعهم الأقزام ممن يريدون أن يصنعوا من أنفسهم أنبياء وستالينين جدد... عسى أن يقرؤوها فيعتبروا:

((ما كل عظماء العالم بالمقارنة مع هذا الرجل؟! ماشاه إيران... ما كيسنجر وبالمة وويلسون... بالمقارنة مع مصطفى البارزاني؟!!

لربما هو القائد الشعبي الأخير، الأخير والوحيد)).

حزيران 1997

التأريخ هو مساء السبت من نهاية تشرين الأول من عام 1974 وهو تأريخ البدء في كتابة هذا التقرير. لقد بدأت العتمة بالحلول وأستطيع أن أرى من نافذتي ان السماء خلف الغيوم الرمادية حمراء تماماً، تحكي زوجتي وابنتي العائدتان لتوهما من نزهة على الأقدام مع الكلب الذي لا يمكنني رؤيته من نافذتي ازرق تماماً تحت السماء الحمراء... وتقولان بأنهما لم يسبق لهما رؤية غروب أروع من هذا الغروب.

انه اليوم الثالث من عودتي من كوردستان.

لقد قررت، حينما كنت هناك، ان الكتاب الذي سأكتبه الآن يجب أن يبدأ وينتهي، بالتأكيد، هنا على منضدتي.

لن اكتب الكتاب لأولئك الذين يعرفون أو يعتقدون انهم يعرفون... لأولئك الذين قد انتهوا من بناء رأيهم، وقد قررت ألا أخوض نقاشاً معهم فلا جدوى من ذلك.

سأحاول فقط أن أحكي هذه الواقعة وذلك مثلما جرت تماماً وسأفعل ذلك جاعلاً من منضدتي للكتابة نقطة الانطلاق.

لقد فكرت أن أضع أمامي خمسة دفاتر استخدمها كلها في كتابة مسودة هذا الريبورتاج ومن ثم البدء بالحكاية من البداية، يوماً بيوم وساعة بساعة.

تماماً مثلما جرت.

لا تستطيع أن تفهم شيئاً دون أن تراه بأم عينك

في شهر آب من عام 1974 زار وفد عراقي استوكهولم ونظم مؤتمراً صحفياً تم نشر محتواه في كبريات الصحف اليومية (السويدية). لقد قال أعضاء الوفد إنه لاتجري أية حرب بين الحكومة العراقية والكورد في العراق، والمعارك في شمال العراق ماهي إلا مناوشات تافهة بين الحكومة وبين جناح كوردي صغير.

يدعى الوفد انه يمثل ((الجبهة القومية الوطنية والتقدمية في العراق)) وأحد أعضائه هو عبيدالله مصطفى البارزاني الابن الأكبر للقائد الكوردي البارزاني والذي قاطع أباه منذ عدة سنوات، وهو الآن وزير في الحكومة العراقية. يقول عبيدالله بأن والده خان شعبه، وهو الآن يخدم قوى الامبريالية والصهيونية والرجعية.

ويؤكد الوفد العراقي ان القائد الكوردي البالغ من العمر اربعة وسبعين عاماً وقواته يزدادون عزلة عن شعبهم ونهاية كفاحهم ماهي إلا قضية وقت.

وفي الوقت نفسه تنشر الجرائد برقية اخبارية من طهران جاء فيها انه إضافة إلى ماسبق ومنذ أن شن الجيش العراقي هجوماً على طول الحدود واحتل مقر البارزاني، فإن ما يقارب من ثمانين ألف مدني من الكورد قد التجئوا إلى إيران. وهكذا يظهر بكل وضوح أنه تجري حرب، بالرغم من أن الوفد العراقي أنكر ذلك، ولكن الحرب يمكن أن تكون في مرحلتها الأخيرة.

أقرأ مقالة لسويدي خبير في قضايا الشرق الأوسط وهو يحلل القضية الكوردية بدقة.

((للمرة السادسة منذ 1961 تقوم القوات العسكرية العراقية والمزودة بالأسلحة الثقيلة بشن هجوم كبير ضد المقاتلين الجبليين الكورد والذين يدعون بالبيشمركه ويقودهم الزعيم الأسطوري العجوز ملا مصطفى البارزاني.

كانت حكومة العراق البعثية قد عرضت على البارزاني وحزبه، الحزب الديمقراطي الكوردستاني، مشروع قانون حكم ذاتي سياسي وثقافي، وأكدوا أنهم حاربوا كل هذه السنوات من أجله، ولكن البارزاني لم يكن راضياً فقد أراد اكثر من الممكن بل وفضل، وهكذا فقد اندلعت الحرب

من جديد. والقضية تدور في الأساس حول النفط وبالتالي حول السلطة في العراق أيضا، وحول توازن القوى في كل المنطقة المطلة على الخليج العربي (أو الفارسي).

ألتقي دبلوماسياً سويدياً متقاعداً كان متواجداً لفترة طويلة في عدة عواصم في الشرق الأوسط، وأساله عن الكورد، فيقول بأنه لايملك معرفة جيدة عنهم... إنهم بالنسبة له شعب جبلي ملغز نوعاً ما، يعيشون في الجبال الوعرة في المناطق الحدودية بين إيران والعراق وسورية وتركيا والاتحاد السوفييتي. يقدر عددهم بحوالي 12 مليوناً ولكنهم مع ذلك موزعون بين خمس دول. القسم الأعظم منهم رحل ولا يزالون يعيشون في العصور الوسطى.

ويضيف قائلاً:

- **انه** لمن الواضح ان المرء يتفهم نضالهم من اجل الاستقلال واللاتبعية، ولكن المشكلة غير قابلة للحل تماماً، ففي الوقت الراهن يقاتل الكورد في العراق فقط، ولكن كيف ستجري الأمور لو حققوا حلمهم بالحكم الذاتي؟ لايمكن ابداً لإيران وتركيا وسورية والاتحاد السوفييتي أن تفكر بمنح أقليتها الكوردية الاستقلالية نفسها.

يقصد هذا الدبلوماسي أن كفاح الكورد ميئوس منه، ويذهب إلى أنه من السهل الإحساس بالتعاطف معهم والإيمان بأن مثلهم في ذلك مثل العديد من الأقليات في العالم يجب أن يحصلوا على حق بناء دولتهم المستقلة، ولكن إذا نظر المرء إلى المشكلة بشكل واقعي فسيرى ان مطالبهم غير معقولة.

أساله فيما إذا كان بمقدور المرء مقارنة الكورد مع أي شعب آخر في أي مكان على سطح الأرض فيقول: أجل اللابيين. يمكن للمرء مقارنتهم مع اللابيين فهم أيضا شعب جبلي ورحل ويعيشون في المناطق الحدودية بين عدة دول.

في النهاية أستعد لإلغاء رحلتي إلى كوردستان والتي خططت لها مطولاً، فقد كانت غايتي هي وصف كوردستان في السلم والآن يسود فيها حرب بكل ما في الكلمة من معنى، وفي الحقيقة لا أملك أية رغبة في خوض أية مغامرات فالمقام هنا في السويد يطيب لي، وعلي أن أدرك محدوديتي فلن يمكنني أبداً الحصول على صورة واضحة عن هذا الحدث المعقد.

كان علي أن أترك ذلك لخبراء السياسة الخارجية والمراسلين الصحفيين... أولئك الذين بمقدورهم النظر إلى العالم بمنظور واقعي وبمشاعر باردة. لماذا علي أن أنخرط في قضية الكورد ؟

ولكن مع ذلك يريدني الكورد أن أذهب وقد قال صديقي الكوردي:

- أنت لا تستطيع أن تفهم شيئاً دون أن تراه بأم عينك.

من المؤكد أنهم قرؤوه بعضاً مما كتبته سابقاً ويريدون أن أحكي للسويديين ما يحدث في كوردستان. سيكون جبناً مني ألا أحاول على الأقل... سيكون كما لو انني اخيب رجاءهم.

أسافر إلى احدى العواصم الأوروبية لأقابل صديقي الكوردي... هذه الخطوة الأولى. آتية في المدينة الكبيرة ويكاد الرعب أن يتمكن مني، ولكن لقاء صديقي ضروري لأن المفتاح إلى كوردستان بيده.

يتكلم صديقي اللغة السويدية بطلاقة ويعتبر السويد وطنه الثاني وهو متزوج من سويدية. ولد في كوردستان العراق ولكنه قدم إلى تركيا للدراسة وهناك القى به في السجن لنشاطه السياسي، وبعد عامين من السجن نجح في الهرب إلى السويد حيث حصل على اللجوء وأقام فيها مدة ثماني سنوات يقول:

حين قدمت إلى السويد أحسست كما لو اني قد أتيت إلى وطني كوردستان يتشابه الكورد والسويديون إلى حد كبير.

كيف وبأي شكل.

- من الصعب شرح ذلك. أنا أعرف أني حين جئت إلى السويد كان ذلك كما لو أني أتيت إلى وطني. اعتقد ان السويديين والكورد يمتلكون طريقة التفكير نفسها.

أقول له بأن وفداً عراقياً كان في السويد وكان من ضمن أعضائه ابن البارزاني الأكبر.

- اعرف ذلك، ولكنه ليس بذي أهمية على الإطلاق... يتجاهله الناس في كوردستان كلياً ولا يذكرون اسمه على ألسنتهم أبداً. أنت تفهم: تماسك العائلة عندنا له أهمية أكبر مما عندكم، وأن يهرب ابن من عائلته على هذا النحو هو أمر خطير جداً.

أستطيع أن أحكي لك عن ابن البارزاني الأكبر فهو الوحيد من بين الأبناء العشرة الذي سبب للأب بعض القلق والإزعاج، فقد تسبب في حمل امرأة من كركوك وأمره والده أن يتزوج المرأة ويرعى الطفل بيد انه بدلاً من ذلك قام بقتل كليهما المرأة والطفل، وحين أمره أبوه أن يرجع إلى البيت لينال عقوبته فر إلى بغداد، ولكي يحميه النظام من أبناء شعبه فقد أسند إليه منصباً ضمن الوفد العراقي إلى لجزائر حيث بقي فيها إلى هذا الحين، ليدفع به إلى الأمام بقصد استخدامه في الدعاية. البارزاني حزين جداً بسببه... عليك ألا تذكر اسمه على لسانك في كوردستان.

يكتب صديقي عدة رسائل توصية ويعطيني عنواناً ورقم هاتف في طهران فالطريق إلى كوردستان الحرة يمر عبر إيران. أقضي المساء في ركوب قطار الأنفاق (المترو) إلى سيرك البيكاديللي واضيع مرة أخرى في غابة من الناس والسيارات.

في الصباح أستقل طائرة الخطوط الجوية الإيرانية متجهاً إلى طهران، وأثناء التوقف في أحد المطارات الأوربية تمتلي الطائرة تقريباً بالركاب، ويجلس طبيب فارسي يتكلم الألمانية بجانبي. هو الآن في طريقه إلى بلده للمرة الأولى خلال ست سنوات ليزور والديه، فالآن فقط يمكنه السفر إلى إيران دون أن يخاطر بتأدية الخدمة العسكرية. هو متزوج من ألمانيا وعنده طفلان يريني صورة لهما... هو سعيد جداً. أساله عن الكورد فيقول:

-أنا معجب بهم. انهم يحاربون من أجل قضية عادلة.

نطير فوق البلقان، وثمة سديم يقبع تحت الفضاء العميق الزرقة، وفي السديم ترسم الجبال صورها الظلية القاتمة وفيما بعد تضيء السماء، وثمة غيمة وردية اللون كبيرة ورقيقة تسترخي على الأرض الجافة. نتابع الطيران باتجاه الشمس بينما يمضي الوقت بسرعة، وحين نهبط في طهران يكون الوقت ليلاً تماماً. أعبر قسم مراقبة جوازات السفر دونما مصاعب تذكر... فإن اسمي غير مذكور في اللائحة الإيرانية السوداء، ولم يسبق لي ان تواجدت في هذا القسم من العالم من قبل أبداً. أتوجه إلى المدينة وابحث عن غرفة في أحد الفنادق الا ان الفنادق كلها ممتلئة، واخيراً أجد نفسي على سطح فسيح لأحد الفنادق... هناك حيث نصبوا أسرة نوم حصلت على واحدة منها. أنام تحت السماء المكشوفة بينما يضيء البدر البازغ كل الشطر الأول من الليل، وتنبعث ضوضاء السيارات عميقة من الشارع القابع في الأسفل، وفي الصباح أستيقظ على صوت طائرة مروحية ضخمة تهدر مباشرة فوق رأسي.

أدرك تماماً انه لا يمكنني التحمل بين هذا الحشد من الناس، وأعي انه لاتزال أمامي المرحلة الأطول من الرحلة إلى كوردستان، وأنه علي الخروج من إبريق الساحر هذا كي لا أصاب بالشلل من التأمل والحنين والشك.

لمحت مرة في أعماق المترو في تلك المدينة الأوربية رجلاً بهيئة مزريه يجر خطاه متثاقلاً باحثاً لنفسه عن مأوي يبيت فيه بقية اليل في تلك الزوايا الغارقة في العتمة، كان رجلاً قد ضيعته قسوة المدينة الكبيرة، وهنا في طهران المح العديد من رفاقه.

المدينة الكبيرة أشبه ما تكون بحرب، حرب أبدية قذرة.

أجري مكالمة هاتفية مع رقم أعطاني صديقي لأبلغ الجماعة التي اكلمها بوصولي، فيطلبون مني أن أنتظر في الفندق... حين يسمعون اسم الفندق الذي أنام فيه وانه ليس الهيلتون أو الشيراتون يستغربون كثيراً. يسألونني عن رقم غرفتي فأجيب.

- لا أقيم في أية غرفة، لقد نمت على السطح.

يجيئون بعد ساعتين ويقولون:

نحن من كوردستان.

أحدهم طبيب ويقول بأنه سيسافر ثانية إلى كوردستان في عصر اليوم نفسه، ويحمل معه بعض الآلات الجراحية والأجهزة الصحية والتي اشتراها في إيران، وإذا رغبت فإنني أستطيع السفر معه.

أكاد أطير من الفرح لهذه الفرصة التي تتيح لي الابتعاد عن طهران دون تأخير، ولكن الرحلة مع ذلك تتأخر لأسباب لا أفهمها تماماً. أنتقل إلى الفندق نفسه الذي يقيم فيه الدكتور وأمضي كل فترة مابعد الظهر هناك.

الفندق الجديد أكبر بكثير من سابقه، ويبدو أنه مكان لقاء لكورد العراق، وربما لأن الدكتور يقيم هناك فقد جاؤوا ليودعوه. اسمه رمزي تقي وهو واحد من الذين التحقوا بالثورة حين اندلعت الحرب

في آذار... تاركاً عمله التدريبي المربح في مدينة الناصرية التي تقع شمال البصرة وتوجه إلى الشمال لينضم إلى القوات الثورية. يقول:

- لا يزال والدي وأخوتي في بغداد ولا أعرف ماذا جرى لهم. لقد تركت سيارتي المرسيدس وكل أشيائي هناك.

كنت معتاداً على العيش في رفاه وعافية ومع ذلك فلم أكن أملك شيئاً أعيش من أجله، والآن أصبحت أملكه ولست نادماً.

تجري في طهران الألعاب الآسيوية ويمتلئ التلفزيون والصحف اليومية بأخبار المسابقات الرياضية. الحرب في كوردستان بعيدة جداً.

ألتقي شابين كورديين في رواق الفندق ويقولان لي:

- تجري الآن معارك طاحنة في كوردستان. دامت المعركة على إحدى الجبهات أسبوعين وقبل أسابيع أصيب مراسل تلفزيوني أمريكي بجراح حين كان في مقدمة الجبهة وهو يصور المعركة. والمنطقة الوحيدة التي لم تتعرض للقصف هي (جومان) حيث يقع مقرنا... لأننا جمعنا هناك كل دفاعاتنا الجوية.

حين أسأل الشابين عن رأيهما بالنتيجة يجيبان.

- لا ينضم المرء إلى ثورة إذا لم يؤمن بأنها ستنتصر.

توحي نبرة صوتهما حين يقولان ذلك بالقليل من التعالي والسذاجة ويملكان الإجابة عن سؤال، وحقاً إنهما لمتعبان بثقتهما بنفسهما. وأسأل نفسي مفكراً: ترى لماذا هما في طهران؟ لماذا لايتواجدان على خطوط الجبهة ويحاربان طالما يؤمنان بهذه القوة بالثورة؟

لايوجد الكثير من الكورد العراقيين في طهران ويبدو أنهم يشكلون مجموعة منعزلة... فإيران بالنسبة لهم بلد غريب تماماً مثلما هي بالنسبة لي. يعيش مليونان من الكورد في إيران ويتكلم أغلبهم الفارسية وهم مواطنون إيرانيون، والكورد العراقيون لا يمكنهم أبداً التكلم بلغة البلد ويحسون أنهم غرباء.

في ضحى اليوم التالي نغادر طهران ووسيلتنا هي سيارة لاندروفر ملأى بالصناديق وعلب الكرتون والتي تحتوي معدات الدكتور الجراحية، ونأخذ- الدكتور وأنا- أماكننا في المقعد الأمامي بجانب السائق وهو فارسي لا يتكلم لا العربية ولا الكوردية ولا الانكليزية، ولكن الدكتور مع ذلك يستطيع إلى حد معقول أن يتفاهم معه لانه توجد روابط معينة بين الفارسية والكوردية فهما لغتان شقيقتان.

يقول الدكتور رمزي:

- لقد استأجرنا هذه السيارة للنقل، ولقد مكثت في طهران مدة شهرين لتأمين المعدات، أنا اختصاصي بأمراض الأذن والأنف والحنجرة وأغلب ما اشتريته هو ما أحتاجه شخصياً لأبحاثي، ولكن هذه المعدات لا تكفي بالطبع ونحتاج إلى الكثير الكثير منها.

ويقول بانه سعيد جداً كوني معهم لأنني رفيق سفر.

ننطلق بسرعة على أحد الأوتوستترادات وعبر السهول المقفرة باتجاه (كاراديا) و(همدان). تلوح في الشمال السلاسل الجبلية التي تقع وراءها شواطئ بحر قزوين الرائعة.

حين ينتهي الأوتوستراد نتابع رحلتنا مسرعين على طرق الإسفلت المستقيمة والسائق يحافظ على السرعة القصوى ولكنه يضطر إلى التوقف للتزود بالوقود. يصرف اللاندروفر كميات هائلة من البنزين بيد أني أفهم أن البنزين مادة رخيصة في إيران. ربما أرخص من الماء في هذه المناطق القاحلة حيث لا نلمح سوى أكواخ بسيطة من القش أحياناً أو رعاةً مع قطعان الغنم أو أحد الحيوانات الميتة على جانب الطريق. نصل إلى (كرمنشاه) التي يقول الدكتور بأنها مدينة كوردية. وهنا أيضا ينتصب تمثال الشاه في مدخل المدينة... توجد صورة في كل مكان ولايمكن للمرء تجنبها. من بعيد تبدو التماثيل ضخمة جداً ولكن لو اقترب المرء منها سيرى أنها تمثل الشاه تقريباً في حجمه الطبيعي... أحياناً يمتطي صهوة جواد مثل قائد عسكري.

لقد قررت ألا أعبر كثيراً عن الأوضاع السياسية في إيران، ولكن وجه الشاه الذي يذكر بوجه الأخ الكبير يثير إلى حد ما أعصابي... ألتقيه في كل مكان، في كل دكان، في كل مطعم، في كل ردهة فندق وفي كل مدينة- هنا في الأقاليم الكوردية أيضا- ينتصب تمثاله، نصب البطل القومي. أفكر في نفسي انه لو أطيح به يوماً ما فسيكون لديهم عمل كثير لتحطيم التماثيل وحرق الصور.

يتحدث الدكتور رمزي بحذر شديد عن الشاه حين أسأله. يقول:

- يعامل الفرس الكورد معاملة حسنة وموقف الشاه تجاه الكورد جيد.

نحن لا نعرف بالطبع إلى أي حد يفهم السائق الإنكليزية.

نبيت في (كرمانشاه) حيث يأخذني الدكتور رمزي معه إلى عائلة كوردية، أقاربه الذين لم يلتقيهم منذ فترة طويلة، وهم ينتمون إلى الكورد الفيليين الذين هاجروا في الأصل من إيران إلى العراق، والآن قد أبعدوا من العراق بالرغم من أنهم عاشوا هناك لعدة أجيال. لقد حدث هذا قبل عامين... جاءتهم الأوامر أن يتركوا البلاد فحسب. أقرباء رمزي عاشوا في بغداد عيشة موسرة نوعاً ما والآن عليهم أن يرحلوا، كل العائلة التي تتألف من الرجل وزوجته وستة أبناء وثلاث بنات. لقد حملوا معهم ما استطاعوا حمله من متاعهم ولكن على الحدود صادرت السلطات العراقية تقريباً كل شيء... سمح لهم أن يحتفظوا بعشرين دينار فقط. مات الوالد بعد ذلك مباشرة، والآن يتحمل أحد الأبناء الكبار كل عبء الإنفاق على العائلة. يقول الدكتور رمزي:

- إنها قصة عادية جداً. لا توجد أية حكومة في العراق... انهم جماعة لصوص. لم أكن أعرف ما جرى لهؤلاء الأقارب ولذلك فقد أردت زيارتهم. ان حالهم سيئة الآن وحين أعرض عليهم المساعدة يرفضونها يدعوننا إلى وجبة طعام، وهي وجبتي الكوردية الأولى... نجلس على الأرض ونأكل معاً.

وفيما بعد، وبينما يتحدثون عن الحرب وعن الأهل، أتكلم مع قيس البالغ من العمر 18 عاماً، والذي يبدو أنه جد سعيد لأن الفرصة سنحت له لاختبار لغته الإنكليزية المدرسية. يقول:

- أحن إلى بغداد فمكاني الطبيعي هو هناك حيث كل رفاقي وزملائي.

حين قدم إلى إيران لم يكن يستطيع النطق بكلمة فارسية واحدة، وكان قد آمن بأن العراق هو وطنه وبغداد مدينته. لم يستطيع ولا يزال أن يفهم لماذا جاءهم البوليس في إحدى الليالي ليخبرهم ((بأنهم ليسوا مواطنين عراقيين وان عليهم العودة إلى إيران)) وذلك فقط لأن أجداده من الماضي البعيد هاجروا من إيران إلى بغداد، ويوضح الدكتور رمزي:

- لقد جرى طرد حوالي مائة ألف كوردي بهذه الطريقة.

يريد قيس أن يعرف كل شيء عن السويد وأحكي له عن ابنتي وابني... تاخده الحماسة حين أخبره بأن ابني أيضا يحب موسيقا البوب وإنني اعرف مارك بولان ودافيد بوي.

وفكرت في نفسي بأنه أمر نموذجي بالنسبة لعالمنا هذا أن أجلس هنا في (كرمانشاه)، إيران وأوثق عرى الصداقة بين ابني وابنتي من جهة وبين هذا الفتى الطيب غير المتأثر ابداً بأي من شرور العالم أو الأحكام المسبقة، والذي يكاد يطير من الفرح لأن زاوية من زوايا هذا العالم تنفتح له. حين نغادر يرافقنا إلى الشارع ويقول:

- تعالَ ثانية وبسرعة. تعال وزرني عندما تعود من كوردستان.

نتابع رحلتنا في الصباح التالي باكراً بينما العتمة ما تزال مخيمة ونتوقف بعد عدة ساعات في قرية تدعى (كامير) لتناول الفطور. في القرية مطعم بدائي جداً مخصص لوجبة الفطور وفيه طاولات ومقاعد على طول الحيطان.

يجلس الرجال صامتين وهم يشربون الشاي ويقتطعون لقمات من الخبز الكوردي المرقق والطري... يقدم لنا مع الشاي عجة لذيذة جداً.

فجأة نصبح شهوداً على فاصل مؤلم... يندفع الرجل السمين الذي يجلس وراء صندوق الحساب عند المدخل، ومن المؤكد أنه مالك المطعم... يندفع نحو رجل صغير كان قد قام على خدمتنا ويصفعه صفعه قاسية وكأنه إنما أراد الإطاحة برأسه. يجهش الرجل الصغير بالبكاء ويحتج باكياً ومعولاً... لاشيء آلم كرؤية إنسان بالغ يعامل بهذا الشكل وهو يبكي. لا أفهم ما حدث والدكتور رمزي لا يقول شيئاً ولكني أخمن بأنه يعاني تماماً ما أعانيه: فالأمر بالطبع يتعلق بالكورد من أبناء جنسه.

الرجل الذي ينتحب ليس برجل... انه شاب فحسب، وهو ما فهمته بعد لحظات، يبدو من ملامحه وكأنه في الثلاثين ولكنه ربما يبلغ الثمانية عشر عاماً فقط. نغرق في الصمت ونأكل عجتنا ويخفي الدكتور رمزي وسائقنا احتياجاتهما إلى أن يحين وقت مغادرتنا حيث يتكلمان مع الرجل السمين ويدخلان المطبخ العابق بالدخان حيث لا يزال الشاب المضروب يجلس في إحدى الزوايا وهو

يجهش. لا أفهم شيئاً مما يقولونه ولا السبب في المشاحنة، ولكن قبل أن نغادر يضطرهما الدكتور رمزي إلى أن يتصافحا رغم إرادتهما ويتصالحا.

في الوقت الذي أكتب فيه هذا الكتاب يخطر في بالي أن هذه كانت المرة الوحيدة خلال رحلتي هذه كلها التي أكون فيها شاهداً على مشاحنة. لم أشاهد في أي مكان في كوردستان شيئاً سوى الصداقة والرفقة والثقة بين الناس... حتى على الجبهات، ولا لم اسمع هناك أحداً يعلي صوته على آخر.

فقط هنا في قرية (كامير) في كوردستان الإيرانية... ولكنها هي أيضا بالطبع كوردستان وهم أيضا كورد، ولهذا فإن الدكتور رمزي مهتاج بالرغم من انه يسيطر على هياجه ويخفيه عني. يقول:

- حماقات! لا يتصرف المرء بهذا الشكل.

لقد لاحظت من ملامح وسلوك الدكتور رمزي بأننا قد أتينا كوردستان. لم يسبق له أن كان في كوردستان الإيرانية أبداً. كان علينا أن ننجز الرحلة في يوم واحد وقد كان السائق مستعداً لذلك، إلا أن الدكتور رمزي لم يستطيع مقاومة الرغبة في زيارة أصدقائه في كرمانشاه، وبالرغم من انه لا يقول ذلك صراحة إلا اني افهم ان هذه الرحلة عبر كوردستان الإيرانية تمنحه كثيراً من المتعة. كان قد اشترى في كرمانشاه مسجلة وعدداً من الأشرطة التي تحتوي أغاني شعبية عربية، وعن طريق المسجلة نبدأ بالشك في سائقنا. حين يغادر السيارة ليملأ البنزين يقول الدكتور:

انه يدعى انه يفهم العربية، ولكني اعتقد انه يكذب فحين أضع الأغاني العربية ألاحظ من قسمات وجهه انه ينفعل.

وأتساءَل: ربما يعرف الانكليزية أيضا، ويمكن أن يكون بالفعل مخبراً من (السافاك)، المخابرات الإيرانية المتواجدة في كل مكان؟ فيجيب الدكتور:

- انه أمر محتمل جداً. ولكن ماذا يهمنا؟ ليس لدينا ما نخبئه.

نتابع رحلتنا عبر منطقة هضبية وتلال قاحلة ذات لون بني، ويقول الدكتور بان المنطقة كلها في نيسان وأيار تنقلب إلى واحة خضراء.

نشرب الشاي في (سقز) ونعبر (بكار) حيث يفرشون السجاجيد على قارعة الطريق لمعالجتها كي تبدو عتيقة ونبصر عدة إبل على طول الطريق ونتوجه نحو (مهاباد)... إلى الشمال نلمح البحيرة الكبيرة (أورمية) مثل سراب.

ينتصب تمثال الشاه في (مهاباد) تماماً كالمعتاد عند مدخل المدينة. انها مدينة صغيرة ناعسة مثل كل المدن الاخرى، ولكن الدكتور رمزي ممتليء بالحب حين نقوم بجولة على الأرصفة ونجلس في أحد المطاعم. ثمة في المطعم بلبل صغير قد حبس في قفص علق بالسقف ولكنه يزقزق ويغرد وكأنه لم يعرف ابداً شيئاً عما يعنيه الطيران بحرية في نور الشمس. يقول الدكتور هامساً كي لا يسمع السائق:

-بودي لو أحكي لك عن مهاباد ولكني أقول فقط: إذا كانت كوردستان جسداً فأن مهاباد قلبه.

يسألني عن رأيي في الكورد، ولكن كيف لي أن أجيب الآن عن هذا السؤال؟ أقول إنهم لا يتكلمون كثيراً وهم صموتون جداً، يقول الدكتور رمزي.

- أجل ويمكن أن يكون السبب أنهم حزينون غير سعداء. أقول:

-إنهم لا يحملقون فيَ ولا يعاملونني معاملة غريب.

- لا، لأنهم يعرفون من أنت. أنهم يعرفون انك صحفي ويعرفون ما ستقوم به انهم يحبون ذلك.

يوجد تفاهم صامت بين الكورد في إيران وأشقائهم في العراق. الحرب تعني الآن مسألة وجود وبقاء الكورد العراقيين، ولكن هنا وعلى الطرف الآخر من الحدود، في إيران المجهزة بأحدث التجهيزات، يتابع الكورد في إيران الشاه كفاح الأشقاء بتعاطف كبير، وربما بشكل خاص هنا في (مهاباد) التي هي مركز إقليم الكورد والتي ستكون عاصمة جمهورية كوردستان كما كانت ذات يوم.

في آب عام 1941كانت إيران محتلة من قبل القوات الروسية والبريطانية. كانت الأقاليم الكوردية تقع بين المنطقتين (الروسية والبريطانية)، مما يعني وضع نهاية للاضطهاد الإيراني وتبلور القومية الكوردية. في الثاني والعشرين من كانون الثاني أعلنت جمهورية كوردية هنا في (مهاباد)، في المكان نفسه الذي نصب فيه الشاه الآن تمثاله.

كان رئيس الجمهورية هو قاضي محمد، رجل فاضل من (مهاباد)، ولكن الدفاع كان بقيادة الملا مصطفى البارزاني الذي كان قد قدم من العراق عابراً الحدود مع 10.000 من ابناء وطنه و 2.000 من محاربي حرب العصابات الاشاوس تحت إمرته. صحيح ان الروس قد دعموا جمهورية مهاباد إلا انها لم تكن دولة شيوعية، وقد صمدت بالكاد إلى نهاية السنة نفسها، وتلك الأشهر المعدودة كانت كافية كي تصاغ وتتحول إلى صورة نموذجية للقومية الكوردية والتي لم يتوقف الكورد ابداً عن الحلم بها والكفاح من اجلها.

مهاباد- وأستطيع ان افهم ذلك- مدينةكوردية مقدسة. ((مهاباد)) تعني الكثير جداً... فهي ليست مجرد اسم مدينة وانما تعبير عن توق كل الشعب الكوردي للحرية.

الآن يسود الصمت في (مهاباد).

ولكنه صمت مشحون بالأمل.

لدى الدكتور رمزي عنوان عائلة اخرى لاجئة من بغداد... نبحث عنها في المدينة الصغيرة (الفيلي). مصيرهم هو نفسه: لقد سيقوا في بغداد ونقلوا شمالاً وتركوا هناك مع الأمر التالي: ((اذهبوا إلى ابنكم))!

كان الابن قد التحق بالثورة، وعقوبة ذلك- إن يكون لك ابن ملتحق بالثورة- هي الابعاد.

والآن يجلس الوالد البالغ من العمر 67 سنة هناك ويحكي بهدوء أحزانه. لقد قدموا إلى كوردستان متنقلين كالمتسولين وبحثوا عن الابن ووجده ليقول له الأب: ((لماذا فعلت بي هذا؟)) ويبتسم هو ويستعد لجواب الابن: ((لو بقيت في بغداد لكانوا قد اعدموني عاجلاً أم آجلاً... هل كان ذلك افضل؟)).

واصل الأب المسير إلى إيران مع زوجته وأربعة من الأولاد الصغار السن وهو الآن يستأجر منزلاً صغيراً هنا في (الفلي) ويقول الدكتور رمزي بأن وضعه جيد.

-لقد كان رجلاً غنياً في بغداد ومن المؤكد أنهم قد صادروا قسماً من أملاكه الآن، الا انه توجد دائماً امكانيات لمن هو غني.

لقد كنت متضايقاً قليلاً بسبب الوقفات الكثيرة، ولكني أفهم أيضا الدكتور رمزي وماذا يعنيه له أن يلتقي هؤلاء الأقارب، ويسمع منهم ما جرى لهم وماذا يعني للأقارب ان يلتقوا الدكتور رمزي. يتحدثون معاً عن الأهل والأصدقاء ويتبادلون المعلومات ويوثقون علاقة القربى ويحاولون ان يتغلبوا على التفرق الذي أرغموا عليه.

ونواصل رحلتنا باتجاه الحدود ويعبىء السائق البنزين للمرة الأخيرة في (بيرانشهر)، وبعدها ليس إلا عدة كيلومترات ونكون قد وصلنا. نلتقي بقافلة من السيارات العسكرية الإيرانية، وفي الغرب ترتفع الجبال أكثر فأكثر... يقول الدكتور رمزي. بأن اعلى الجبال وأبعدها، تلك التي تكاد ترى، تقع في كوردستان العراقية. أحياناً نضطر إلى التوقف بسبب قطعان البقر والغنم والبط الأهلي ونلمح في أحد الوديان مجموعة من الخيم ويبدو أنها مجهزة بالمدافع؛ من المؤكد ان الخيم تخفي مجموعة مدرعات إيرانية ونجد أنفسنا على طريق رملي متعرج يقودنا إلى سفح جبل نطل منه على الأرض السهلية وألاحظ بأن حركة المرور حية. هنالك في أعلى الجبل يظهر بوضوح مجموعات حرس الحدود الإيرانيين والمجهزين بمدافع الدفاع الجوي... نسوق في واد صغير حيناً ثم نصعد إلى الأعلى ثانية وفجأة، ودون أن الحق أن أدرك تماماً ما حدث، يوقفنا حاجز حدودي.

آلاف المهاجرين واغلبهم نساء وأطفال ينتظرون في الجانب الآخر من الحاجز الحدودي... قلة منهم يملكون خيماً ويقيم الآخرون في أكواخ مؤقتة من البطانيات واللحف. يكتظ الطريق بالرجال وجلبتهم وكلهم يحملون السلاح وقد لفوا أحزمة الخراطيش على وسطهم وألقوا بنادق الكلاشينكوف على أكتافهم.

لقد حكيت عن هذه الرحلة الطويلة إلى كوردستان لأنها جزء لايمكن تجنبه في حكايتي بما أن الرحلة بدأت وانتهت على منضدتي.

كان بإمكاني ان استبعد كل هذا الوصف من ريبورتاجي ولكن ليس عدلاً من الانصاف في شيء بحقهم انتم الذين تقرؤون هذا الكتاب... فعليكم ان تنطلقوا تقريباً من النقطة نفسها التي انطلقت منها وكان عليكم أن تمروا بالتجربة نفسها بكل أحداثها ومراحلها ولذلك فإني لا أفكر بإضافة أو حذف شيء مثلما يفعل المرء حين يكتب ريبورتاجاً فأنا أفكر بأن أروي ما حدث فحسب.

لدي في أعماقي طبعاً صورة كوردستان... لقد طبعت هذة الصورة بتجاربي السابقة وبكل حياتي الماضية ولكنها انمحت أثناء الرحلة وأصبحت طبيعية... وحين تتوقف اللاندروفر أمام الحاجز الحدودي لا أعود أعرف شيئاً او أؤمن بشيء او أنتظر شيئاً خاصاً أو أملك رأياً شخصياً.

أحس فقط وبقوة أن العالم ينتهي عند هذا الحاجز البسيط والذي هو من خشب الحور الأبيض وأن ثمة خلف هذا الحاجز شيئاً آخر، شيئاً مجهولاً تماماً.

ولكن في الوقت نفسه يبدو وكأن حاجز الحدود ذاك قد وجد دائماً خارج بوابة منزلي هناك في بلدي السويد بالرغم من أني لم أره أبداً من قبل.

يقول الدكتور رمزي عدة كلمات لأحد الحراس على الحاجز فيقوم هذا بفتحه مباشرة ومن ثم إغلاقه بعد أن نعبر وبذلك نكون قد دخلنا كوردستان العراق.

اصغ اليهم كيف يغنون!

يهبط الطريق بدءاً من الحدود إلى واد ضيق ومتعرج سرعان ما يضيق أكثر فأكثر ويسمى هذا الطريق ب(طريق هاميلتون) وقد شقه الأنكليز في فترة سابقة حين كانوا يسيطرون على القسم الأكبر من الشرق الأوسط. من المؤكد انه كان طريقاً عسكرياً خصص لنقل القوات والمعدات من العراق إلى إيران... والأن يقدم خدمة اضافية بوصفه الرابط الوحيد الذي يربط كوردستان العراقية بالعالم الخارجي، هو الشريان الحيوي للذخيرة والطعام في اتجاه وللاجئين في الاتجاه الآخر.

لايمكن الحصول على خرائط جغرافية حديثة لهذه المنطقة ... مجرد خارطة عراقية سياحية تفتقد التفاصيل، ولذلك فالأمر يستغرق وقتاً قبل ان أبدأ بفهم جغرافية المنطقة وأدرك أن كوردستان الحرة هي مجرد قطاع رفيع يقع هنا في الأعلى على طول الشمال بيد ان هذا القطاع يتألف من سلاسل جبلية وعرة تحيط بوديان ضيقة وعميقة وأدرك أن الكورد قد حصنوا أنفسهم جيداً وراء هذه الحواجز العظيمة.

على طول طريق هاميلتون تقوم قرى وبلدات صغيرة، ومن هذه القرى والبلدات تقاد وتدار الثورة والحرب وقد كان مقر البارزاني قبل عدة أعوام في قرية (رانيا) ثم انتقل إلى المدينة الصغيرة (كلاله) التي تبعد مسافة عدة كيلومترات من طريق هاميلتون وعلى مقربة من جسر كلاله المهم، ولكن العاصمة المؤقتة لكوردستان العراق الآن تدعى (جومان) وهي في الحقيقة مجرد قرية كبيرة وممتدة في هذا الوادي الضيق والذي يمتد من الحدود الإيرانية وباتجاه الجنوب- الغربي وحافتاه هما قمم الجبال العالية. المسافة من الحدود إلى (جومان) ليست أكثر من رحلة ساعة بالسيارة... يأتي المرء اولاً إلى (حاج عمران) ويعبر العديد من التجمعات السكنية من البيوت الطينية على طول الطريق الذي هو ضيق جداً وفيه العديد من المعابر الخطرة، وثمة على هذا الطريق حركة مرور حيوية قوامها الشاحنات واللاندروفرات والسيارات الشخصية المهترئة.

وفي كل مكان يشاهد المرء الجنود... يدعون البيشمركة والناس لا يستخدمون أية كلمة اخرى. تعني الكلمة تقريباً ((شخصاً مستعداً للتضحية بحياته)) أو ((الذي يواجه الموت))ولسوف أكتب الكثير عن البيشمركة في الصفحات القادمة لأنهم العمود الفقري للثورة وأنا أراهم في كل مكان من

كوردستان ولكنهم فقط الآن، أي في بداية الرحلة يثيرون اهتمامي فعلاً... المحاربون الكورد بعماماتهم وسراويلهم الشبيهة بالأكياس.

فيما بعد أتعلم أسماء الأقسام المختلفة لثياب البيشمركه. على الرأس قلنسوة صغيرة محبوكة تدعى (كلاف) يلفها المرء ب(جمداني) هي العمامة. القميص يدعى (شبك) والبنطال (شل) ومنديل الوسط (شوتك)... وهو طويل جداً ويقوم بعدة وضائف فهو يحفظ البطن من البرد ويستعمل منديل يد ويحمي الوجه من الذباب، فحين ينام أحد البيشمركة يفضل أن يضع (شوتكه) على وجهه أثناء النوم.

لا أراهم أبداً يمشون المشية العسكرية أو يجرون التدريبات العسكرية، ولكني بالمقابل لا أراهم أبداً من غير سلاح، البندقية أو الكلاشينكوف، فهم يحملون سلاحهم اينما ذهبوا وجاهز للاستعمال دائماً. تقريباً كل الذكور من السكان مسلحون دائماً... الشيوخ المسنون والأولاد الصغار فقط هم بلا سلاح ولكن يمكن للمرء أحياناً أن يرى أولاداً في الرابعة عشرة من العمر وهم يحملون مسدساً في القراب ولا يوجد سقف لعمر البيشمركه...

فالبارزاني نفسه كما هو معروف في الرابعة والسبيعين.

رؤية كل محاربي الجبال هؤلاء مع أسلحتهم تصبح انطباعي القوي الأول عن كوردستان... ما إن عبرت حاجز الحدود ذاك الذي من خشب الحور الأبيض حتى كانوا هناك... في (حاج عمران) وفي (دربان) وفي (جومان).

لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثل هذا الكم من الأسلحة من قبل، ولم يسبق لي أبداً أن رأيت من قبل جيشاً من أمثال هؤلاء الباسلين المستقلين... أدرك أن هذا البلد يخوض حرباً شاملة بلا رحمة وبلا تردد وأن الكل- بكل ما في الكلمة من معنى- مستعدون للتضحية بحياتهم.

فقط رؤية هؤلاء الرجال تقنعني بذلك، وأفهم أن الكورد قد عاشوا مع الحرب طويلاً حتى أنها أصبحت جزءاً من حياتهم اليومية، وقد كيفوا أنفسهم تبعاً لمقتضياتها، وانهم يجدون أنفسهم في معمعتها دون شكوى او تذمر.

يأخذني الدكتور رمزي إلى فندق في (دربان) ويطلب مني أن أنتظر هناك إلى ان تصلني التعليمات في أقرب فرصة ويواصل هو مع اللاندروفر إلى المشفى ليفرغ حمله من الاجهزة والالآت.

لم أكن أتوقع ان أجد فندقاً من هذه الدرجة في كوردستان الحرب... فهو فندق سياحي حديث بنته الحكومة العراقية في زمن السلم والآن هو بأيدي الثورة. أقابل مدير الفندق ويدعى يونادان بنيامين وهو في الرابعة والاربعين من العمر، وبما اني متحمس للبدء بمهمتي بأسرع مايمكن فبدأت على الفور بإجراء مقابلة معه... نجلس خارجاً في الشرفة وقد هبط الغسق وعلى سفح الجبل المقابل أستطيع أن المح بقايا طائرة محطمة... يقول يونادان بأنها قد أسقطت أثناء الحرب السابقة وليس الحالية. هو من مدينة النفط (كركوك) وانتقل إلى (جومان) حين اندلعت الحرب في آذار ووضع نفسه في خدمة الثورة ويدير الآن هذا الفندق الذي لا يوجد بين نزلائه سياح بعد وانما بعض جنود البيشمركة فحسب. لا تزال زوجته مع أولادهما الخمسة في (كركوك) ولم يسمع منهم شيئاً منذ ستة أشهر وحين يحكي هذا تبدو عليه امارات الحزن البالغ.

وبينما ما نزال جالسين هناك يقبل أحد البيشمركة وبرفقته رجل مسن وضئيل الحجم يرتدي هو أيضا ثياب البيشمركة ولكنه غير مسلح. يقولان.

- لقد كنا ننتظرك واعتقدنا أنك ستأتي البارحة. لن تسكن هنا فأنك سترافقنا إلى (جومان) حيث لدينا بيت ضيافة هناك يدعى (قصر السلام) وكل الصحفيين يقيمون فيه.

يصبح (قصر السلام) مقري في فترة وجودي في كوردستان، ويدعى بهذا الاسم لأن اتفاقية السلام مع العراق عام 1970 وقعت فيه، اتفاقية السلام التي انهارت بعد ثلاثة أعوام، وهو ليس بالفندق الفخم على الإطلاق وانما عبارة عن منشأة من نوع (بيت الشباب). أحصل على سريري ومصباح ويطلب مني أن أنزل الستائر إذا أردت أن أضيء المصباح في الليل... فمن المعروف انه فترة إطفاء الأنوار بسبب الغارات الجوية.

حين يخيم الظلام يسود صمت رهيب بحيث أستطيع أن اسمع غناء الجنادب وهدير الشلال من أعماق الوادي.

نتناول الغداء - لحم وبندورة (طماطة)- على مائدة كبيرة ويحكي ميكائيل- الرجل الضئيل الحجم الذي أخذني من الفندق - عن نفسه وعن الحرب. لقد كان مدير السياحة في الموصل... والآن هو مترجم من الفرنسية هنا في دائرة الإعلام ويتكلم الإنكليزية أيضا ولكن الفرنسية أفضل، علاوة على ذلك فهو يشبه الفرنسيين في المظهر... ولولا لباس البيشمركة الذي يرتديه لاعتبرته فرنسياً أصيلاً. يقول:

- مشكلتنا تكمن في أن لدى الحكومة طائرات ودبابات ونحن لا نملك شيئاً من ذلك، ولكن لدينا شيء نحارب من أجله، كوردستان حرة وهو أغلى بكثير. البيشمركه لا يهزمون لو قاتلوا المشاة... حينها يعادل واحد من البيشمركة مائة جندي عراقي، ولكن بمواجهة الدبابات يصعب عليهم النجاح.

ويروي ميكائيل بان مجموعة من البيشمركه هاجمت قبل عدة أيام مركز مساندة عراقي وقتلوا 300 جندي ودمروا 50 سيارة و5 دبابات. نحن الآن على أبواب الشتاء والمطر. نحن ننتظر الشتاء فهنا يمكن للثلج أن يبلغ مترين وحينها يتعطل الجيش العراقي عن الحركة تماماً بينما يجتاز البيشمركة مصاعب الشتاء بنجاح... فمن المعروف بأنهم قد اعتادوا الجبل ومناخه بينما الجنود العراقيون ليسوا كذلك.

أرى في أعماق الوادي قافلة من الشاحنات واللاندروفرات وقد أضاءت مصابيحها الأمامية ومن هناك يرتفع صوت الغناء. يقول ميكائيل:

- إنهم البيشمركة في طريقهم إلى الجبهة. أتسمع كيف يغنون؟

أستعير من ميكائيل جهاز راديو وأصغي إلى إرسال (راديو كوردستان) بالإنكليزية في العاشرة مساءاً بينما ذهب الآخرون كلهم ليناموا. كل الإرسال هو عبارة عن تقارير من الجبهة... برقيات عن معارك وغارات جوية على (راوندوز) و(بيتواتة) و(كوي سنجق) و(عقرة).

أتمكن من العثور على (صوت أمريكا) وأصغي شارد الذهن إلى آخر التقارير عن ردود الأفعال على قرار الرئيس فورد بمنح نيكسون العفو، ولكني أرجع ثانية إلى (راديو كوردستان) وأستمع مرة أخرى إلى تقارير الجبهة:

((... تقول برقية من الكتيبة الثالثة في (قرداغ) بأن بيشمركتنا قد هاجموا بعد ظهر أمس مخافر أمامية للعدو في (جبل سركرمه) وألحقوا بها خسائر فادحة وهاجمت مجموعة من البيشمركة في وقت متأخر من هذا اليوم مخافر أمامية للعدو في (قه له سوره) مستخدمين الصواريخ والبنادق الآلية وقد دمروا مخفرين أماميين وقتلوا عدداً من الجنود.

... يفيد الفرع الثالث للحزب الديمقراطي الكوردستاني في (كركوك) بأن لديه معلومات تفيد بأن النظام البعثي الدكتاتوري قد أعدم ليلة الخامس والعشرين 15 من بيشمركتنا في (الموصل) ويجدر بالذكر ان ثلاثة من هؤلاء البيشمركة كانوا عرباً.

... تفيد برقية من شعبة حزبنا في (الشيخان) بأن ست عائلات كوردية أرغمت على ترك مدينة (الموصل) وقد وصلوا إلى مقر الشعبة في الثامن من الشهر ويقول مراسلنا في (كركوك) بأنه وفي اليوم نفسه طردت خارجاً تسع عائلات أخرى من بيوتها.

... يفيد تقرير من شعبة حزبنا في (بيتواته) بان قوة عسكرية كبيرة للعدو قد هاجمت في منتصف ليلة السابع من هذا الشهر مواقعنا في قرية (بردانكه) وقد أوقفها بيشمركتنا من الكتيبة الأولى الذين قاتلو العدو عدة ساعات وأرغموه على التراجع إلى قواعده القريبة من هناك بعد أن تكبد خسائر فادحة)).

هل سمعت بليلى؟

في الصباح أطلب أن أعود إلى الحدود... أوضح بأني يجب أن أبدأ بالريبورتاج من هناك. أمس مررنا بها مرور الكرام ولكن في كل مكان شاهدت اللاجئين في الخيم والأكواخ البسيطة؛ لازالت الصورة عالقة بشبكية عيني وأريد العودة إلى هناك لأتأكد منها في أسطوريتها، الصورة التوراتية القاسية لأناس يفرون في منطقة توراتية مرسومة بدقة... هكذا تقريباً كانت عليها تبدو في عهد موسى، وهكذا تقريباً بدت دائما في هذا الجزء من العالم حيث كان الناس دائماً يفرون، ودائماً أرغموا على ترك بيوتهم ودائماً وجدوا أنفسهم في رحيل نحو المجهول.

يرافقني إلى هناك أحمد، أحد الطلاب الشباب في دائرة الإعلام وهو في الثالثة والعشرين من العمر وواع جداً...

لقد التحق بالثورة قبل أسبوعين فقط، فما أن تم تحصيله العلمي في جامعة بغداد حتى رحل إلى كوردستان؛ كان قد سبقه إلى هناك القسم الأكبر من زملائه. يقول.

-أكثر من 90% من الطلاب الكورد في بغداد هم الآن هنا. نحن نحاول أن نساهم بقسطنا في الكفاح. نحن نحارب قطاع الطرق في الحكومة العراقية. هل سمعت بليلى؟ لقد كانت صديقة مقربة

الي. كانت في الحادية والعشرين من العمر... لقد عذبت وأعدمت في بغداد في نيسان هذا العام. لقد كانت فتاة كوردية وقد أعدموها وأعدموا العديد من زملائي.

ينتظر اللاجئون على الحدود وهم الآن حوالي 3.000 عائلة، ويوجد في كل عائلة حوالي 6-7 أطفال وفي بعض العائلات يصل العدد إلى 12. إنهم من قرى تعرضت للقصف ومن مناطق احتلت من قبل القوات الحكومية...

انهم هنا على الحدود في انتظار أن يسمح لهم بالمواصلة والالتحاق بمعسكرات اللاجئين في إيران. كل هؤلاء هم تقريباً من النساء والأطفال فمن المعروف ان الرجال قد خرجوا إلى الحرب يقول أحد قادة البيشمركة المسؤولين:

- نقوم بتسجيل كل القادمين، وكل يوم يأتي الكثير. إن من يقرر موعد عبورهم الحدود هي السلطات الإيرانية...

طبعاً يجب أن تكون المخيمات في إيران جاهزة أولاً. ينتظر قسم من اللاجئين هنا منذ ثلاثة أشهر، وأوضاعهم صعبة. لدينا طبيب واحد ومشفى صغير، ونقوم نحن بتزويدهم بالطعام، بيد أن الكثير منهم لايملك حتى خيمة يسكن فيها والعديد من الأطفال الحديثي الولادة يموتون كل ليلة من البرد.

لقد قاموا بحفر خنادق بجانب مخيماتهم ليختبئوا فيها في حال مجيء الطائرات العراقية للإغارة عليهم، وقد حفروا لطبخ الطعام في الأرض الحمراء الداكنة حفراً يوقدون فيها النار ويخبزون خبزهم، الخبز الكوردي المرقق والعريض.

تجلس النسوة هناك في مجموعات، وكل امرأة تقريباً محاطة بالأطفال، وأحاول أن أتكلم مع بعضهن ويحاول أحمد الترجمة ولكني في الحال أفهم إن قصتهن هي تقريباً واحدة: إنها تدور حول الطائرات التي قد قصفت قراهن ودمرتها، وكيف أنهن هربن من الرعب، أنهن الآن يأملن بالسماح لهن عاجلاً في اجتياز الحدود إلى إيران حيث لا طائرات تهددهن.

- نحن من (باتاس) القريبة من (شقلاوة). المرة الأولى التي جاءت فيها الطائرات القاذفة للقنابل كانت قبل ثلاثة أشهر. لقد جاءت عدة مرات وقتلت عدداً من الناس يتراوح بين العشرين والثلاثين. لم نستطع أن نبقى هناك، والآن صار لنا هنا شهران ونحن ننتظر...

نحن من قرية قريبة من (أربيل). أنا هنا منذ ثلاثة أشهر. لقد ولد الطفل هنا ولا أدري كم سيعيش فقد سبق أن مات طفلان في الخيمة...

زوجي في الجبهة، ولدي الآن ثلاثة أطفال لقد مات طفلان، ومات كلاهما هنا... بودي لو تكلمت معهن مطولاً ولكن يصعب على أحمد فهمهن، ويصعب عليهن الحديث. أنهن يحاولن الابتسام بمواجهة الكاميرا ويرفعن أبناءهن أمامها.

أمام كوخ صغير مكون من بطانيتين يجلس عجوز ويشحذ سكيناً على حجرة. هو أيضا قادم من قرية قصفت بالقنابل، ويقول بان زوجته قد قتلت... هي أيضا كانت عجوزاً. ليس لديه أولاد. أساله:

- هل كنت ستنضم إلى صفوف البيشمركة لو كنت شاباً؟ فيجيب:

- طبعاً، كنت سأحارب في الدفاع الجوي وكنت سأسقط الطائرات.

ويرفع سكينته العتيقة التي لاتزال في يده يشحذها ويوجهها نحو السماء.

يلعب الأطفال ما بين الخيم والأكواخ المقامة من البطانيات. هناك في الأعلى تحوم عالياً طيارة ورقية مربوطة إلى خيط، ويلعب عدة أطفال بسيارات صنعوها من أسلاك فولاذية ويتجلى فيها موهبة اختراع كبيرة.

تهب من الشمال ريح باردة وقريباً سيهطل المطر وبعده الثلج... كيف ستجري الأمور حينها؟ يقول البيشمركة المسؤول عن المخيم والذي كان ضابط شرطة في العراق قبل أن يلتحق بالثورة:

- يجب أن يرحلوا من هنا قبل ذلك. نحاول أن نسلمهم إلى إيران بأسرع ما يمكن،ولا يمكننا القيام باكثر من ذلك، ففي كل يوم يأتي لاجئون جدد، وخذ في اعتبارك أنهم منذ الآن يعانون كثيراً من البرد... فما بالك بالشتاء، فحين ذلك سيموت كلهم هنا.

وأتأمل في نفسي كيف أن كل الحروب متشابهة فالذي يكتوي بنارها هم النساء والأطفال، أما الرجال في الجبهات فلا يعانون بالقدر نفسه الذي تعانيه النساء والأطفال، والغريب أني حين أتكلم مع هؤلاء فلا واحدة منهن تشتكي من الحرب فهن يعتبرنها ضرورة... شرطاً حياتياً. رغم كونهن قد أبعدن عن بيوتهن بسبب الطائرات القاذفة للقنابل والقصف المدفعي أو ان البوليس العراقي زارهن في بيوتهن في منتصف الليل ليبلغهن بقرارات الإبعاد، فكل هذا إنما قد قوي من إرادتهن في التشبث بالحياة وقناعتهن التامة والراسخة رسوخ الجبال بعدالة الكفاح وكراهيتهن المتوهجة ((للحكومة)) يتحدثن عن ((الحكومة)) بنبرة خاصة. طائرات الحكومة دمرت قراهن... جنود الحكومة طاردوهن وتعقبوهن حتى في فرارهن... بوليس الحكومة طردهن من بيوتهن.

بعض الأطفال شقر وزرق العيون وقسمات وجوه النسوة نقية وجميلة. يأخذني الإعجاب بأم شابة مع أطفالها الثلاثة... يراودني الشك في أنى رأيتها من قبل وأفكر باني لو التقيتها في أحد الشوارع في السويد وهي مرتدية زياً كأزيائنا لما كان بإمكاني اعتبارها من الغرباء. هي جميلة جداً وعلى نحو مالا يمكنني تصور خلفيتها الاجتماعية ووضعها، تصور إنها لم تتعلم أبدا القراءة والكتابة وإنها تحيا حياة بدائية للغاية وذلك بحسب مفاهيمنا... ولكن فقط بحسب مفاهيمنا... حياتها لا تتوافق أبدا مع محياها الذي هو مشرق ومتفتح وذكي... أخجل قليلاً من إعجابي ومع ذلك أبوح به لأحمد المترجم حين يسألني عما فكر به. يقول:

- طبعاً، فنحن آريون تماماً مثلك. لسنا عرباً وانما آريون ونتكلم لغة هندوأوربية.

لا يحس بنبرة الاعتزاز السلبي في كلمة ((آريون)) فانه مجرد أن يقدم لي هذه المعلومة تمنحه السعادة فحسب، لأنها بالنسبة له جوهرية... ليس عربياً، هو آري. والمرأة وأطفالها آريون، ولربما يعتقد أحمد انه من خلال هذه المعرفة وبشكل من الأشكال سيزيد من تعاطفي، ومع ذلك فربما أفعل ذلك في لا وعيي.

يأخذني أحمد في طريق عودتنا إلى أحد المعارض الفنية في مدرسة في (حاج عمران)... تعرض مجموعة من الفنانين الكورد تجربة عن فن الملصقات الثوري في تجمع كبير للوحات الزيتية. انهم يعرضون البيشمركة وهم في أقصى جاهزيتهم مع أسلحتهم، ويعرضون كذلك بأسلوب جريء مشاهد لقرى تعرضت للقصف وشعارات ثورية.

ألتقي بليلى- الفتاة التي أعدمت في بغداد- هناك، وأتوقف بشكل خاص بجانب هذه اللوحة. إنها تروي صورة ظلية لامرأة شابة ترتقي الدرج إلى حبل المشنقة بخطوات ملؤها الاعتزاز، وفي الصورة التي تليها تظهر معلقة بحبل المشنقة.

بعد الظهر أطلب أن يسمح لي بلقاء الدكتور محمود... أحد القادة في المكتب السياسي وهو طبيب ومدير لدائرة الصحة ولكنه أحد قادة الثورة أيضا... لقد كان مع الثورة منذ البداية. ألتقي به في كوخ حجري مموه جيداً بحيث لا أحس باني قد وصلت إلا بعد أن أقاد إلى الداخل عبر الباب. محمود رجل صموت يميل إلى الملاحظة. ذكاؤه ودقة تفكيره يجعلان من عينيه المتعبتين قليلاً تلمعان في عتمة الغروب الخفيفة. يتحدث الإنكليزية بطلاقة وبكلمات موزونة جداً ودون أيما تردد.

أقول له، بأنه لم يمر على وجودي هنا سوى يوم واحد فقط، ولكني أفهم الآن تماماً أن كوردستان العراق تعمل بالتأكيد كدولة مستقلة فكيف تقولون مع ذلك بأنكم تطالبون بالحكم الذاتي فقط؟ أليست الحقيقة هي أن الكورد يفضلون أن تكون لهم دولة خاصة بهم؟ يقول الدكتور محمود:

-أنا لا أعرف شعباً في العالم لا يملك مطامح قومية، ولكن الحزب الديمقراطي الكوردستاني هو حزب عراقي...

هدفنا هو الحكم الذاتي في إطار العراق. كل الكورد يرغبون في أكثر من ذلك؛ انهم يرغبون في كوردستان مستقلة وسيكون من الخطأ إنكار ذلك، وحين أقول ذلك فإنما هو مجرد ملاحظة شخصية لا علاقة للحزب بها، ففي الحزب نحن متفقون تحديداً على عدم المطالبة بغير الممكن. ليست لنا أية علاقات مع إيران أو تركيا على المستوى السياسي فنحن نعمل داخل العراق فقط.

- وكيف ستجري الأمور؟

- يوجد خياران، فاما حل سلمي يتضمن منحنا، بشكل قانوني، الحكم الذاتي في إطار العراق أو انفصال من نوع (الأمر الواقع) والذي هو تقريباً الوضع الذي نحن فيه الآن، وهذا الخيار الأخير هو أخطر بكثير من الأول لكل العراق. لو كانوا (الذين في بغداد) عقلاء لفهموا ان حلاً سياسياً من شأنه أن يقوي الوحدة في العراق، والكورد سيرضون والشعب العراقي سيصبح أقوى.

- وماذا حدث... لماذا اندلعت الحرب من جديد؟

- لقد وصلت المفاوضات إلى نقطة ميتة. إن التفكير الواقعي كان يقتضي مواصلة المفاوضات وبذل المحاولات للتوصل إلى اتفاق. ولكن الحكومة العراقية ليست واقعية، فقد بدأ العراقيون بدلاً من ذلك بالعمليات العسكرية فقد سبق لهم في شهر كانون الثاني أن قرروا بدء الحرب من جديد، وفي المرحلة الأخيرة لم تكن المفاوضات أبدا تعني من جانبهم أمرا جدياً، لقد نسوا درسهم فقد اعتقدوا بأنهم سيستطيعون تحطيمنا بالعنف بالرغم من أنهم فشلوا مرات عديدة من قبل. ولكنهم لا يستطيعون

تحطيمنا، ولم يستطيعوا أن يجدوا أكثر من قلة قليلة من الكورد الذين يريدون التعامل معهم، وهم اليوم معزولون عن الشعب الكوردي سياسياً أكثر من أي وقت مضى.

- والنفط؟

- للنفط أهمية استثنائية فهو واحد من أهم أسباب الحرب الحالية. لقد اقترحنا أن يستثمر النفط من قبل الحكومة المركزية... بالرغم من أنه يوجد في المنطقة الكوردية، فنحن نرى أنه ملك لكل الشعب العراقي. وبالمقابل فإن الحكومة تستخدم عائدات النفط لشن حرب تدمر البلاد. شعارهم هو ((بترول العرب للعرب)) وهو استفزاز للشعب الكوردي.

- كيف تجري الحرب؟

- توجد مناطق تخضع كلياً لسيطرتنا ومناطق أخرى نشن فيها حرب الأنصار. انهم يستخدمون أسلحة متطورة يحصلون عليها من روسيا ومع ذلك فانهم يتكبدون خسائر فادحة. لقد خسرنا بعض المناطق ولكن مع ذلك فان الوضع ليس في صالحهم... بالتأكيد ليس في صالحهم، فمن المعروف أن هناك عاملاً مهماً وهو أن المناطق التي يحتلونها هي خالية تماماً من السكان... الشعب يأتي إلينا... احتلال أرض لا يوجد فيها إنسان واحد هو عديم المعنى... هذا يبين فقط كيف أن الشعب الكوردي قد رفضهم وابتعد عنهم كلياً.

ويقول الدكتور محمود:

- صحيح أنه لدينا مشاكل ولكننا في الطريق الصحيح لحلها. مشكلة اللاجئين هي أصعب مشكلاتنا فيجب أن يتوفر لهم مكان يقيمون فيه في الشتاء. لقد أبعدوا عن ديارهم بالقوة من المناطق المحتلة والعديد منهم أضطر إلى اللجوء إلى إيران. انهم يحتاجون إلى المساعدة، وحاجتنا إلى المساعدة الإنسانية كبيرة وللأسف فان العالم أصم إزاء نداءاتنا للمساعدة. هناك أكثر من 400.000 ألف شخص اضطروا إلى ترك ديارهم.

إيران تساعدنا وهذا واضح، ولكن لديهم مصالحهم أيضا والتي يحرصون عليها وهم يدعموننا، في الحقيقة لا يوجد أي خطر في أن نفنى ونمحى تماماً من الوجود. الشتاء على الأبواب الآن، وهو أفضل لنا فدباباتهم لا تستطيع أن تتقدم في الثلج. سوف نحيا، طالما هم باقون على الأقل. إعدام الناس في العراق أشبه ما يكون بشرب كأس ماء... مثل هذا النظام لايمكن أن يعيش طويلاً فسيسقط عاجلاً أم آجلاً.

أغادر المكان كي أقابل تحسين بك أمير اليزيدية.

لم يسبق لي أبداً أن سمعت باليزيديين من قبل، والآن وأنا اكتب هذا، أبحث عن الكلمة في إحدى الموسوعات وأقرأ:

((اليزيديون)) عشيرة كوردية في العراق، يقطن قسم منهم في الجبال الكوردية في الشمال الشرقي من مدينة (الموصل) وقسم آخر في جبال سنجار غربي (الموصل). ديانتهم مزيجة من عناصر مسيحية ويهودية واسلامية بالإضافة إلى بقايا من أشكال دينية أقدم من الإله الأعلى (يزدان)

ينبثق سبع أرواح كبيرة أولها وأنبلها هو (ملك طاووس)، الشيطان الذي خلق العالم ويعبد في شكل طائر طاووس من البرونز. الثاني هو (ملك عيسى)، المسيح. لقد تعرض اليزيديون الذين اعتاد الناس غالباً على تسميتهم ((بعبدة الشيطان)) مطولاً للملاحقة والاضطهاد من الشعوب المجاورة لهم، وقد نقص عددهم كثيراً بسبب المجازر الهائلة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

تحسين بك هو ((أميرهم))... هذا يعني بحسب ما أفهمه إن مقامه بين اليزيديين هو تقريباً مقام البابا في (روما) بين الكاثوليك. يعيش الآن في (جومان) بعد أن التحق بالثورة وأزوره في مقره المؤقت. قبل أن يأتي أنتظر في الردهة فترة لابأس بها فهو يضطجع ويأخذ قسطاً من الراحة. يقبل علي سميناً وضخم الجثة، أي تماماً كما يتصور المرء لنفسه (بابا) حقيقياً، وعمامته ملفوفة على رأسه بسرعة واضطراب. هو لطيف جداً ويتكلم إنكليزية جيدة ويعتذر مني لأني انتظرت... يقدم الشاي، ويريد، مسروراً، أن يقوم بالخدمة بنفسه ويجيب عن الأسئلة. يقول بأنه يوجد حوالي 100.000 يزيدي في العراق بالإضافة إلى انه يوجد حوالي 130.000 في روسيا و50.000 في تركيا و40.000 في سوريا وبذلك فان عددهم الإجمالي هو أكثر من 300.000.

لقد ورث شرف الإمارة عن والده... يقول بان الإمارة وراثية منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، فهذا الدين قديم جداً ولكنه سري ويأسف لأنه لا يستطيع الحديث كثيراً عنه، ويقول:

- طبعاً نحن نؤمن بإله واحد.

ولكنه لا يريد أن يكشف أكثر من ذلك. أسأله:

ماذا يعني كون المرء القائد الروحي لليزيديين؟

- لدي واجبات معينة ومنها المحافظة على قوانيننا وطقوسنا الدينية. لو خرق أحدهم قوانيننا من شأني الحكم عليه. يتعلق الأمر على سبيل المثال بالحياة الجنسية، أو إذا أنكر أحد ما وجود الإله فنحن نعتبر ذلك انحرافاً دينياً خطيراً.

يقول الأمير بان اليزيديين يتألفون من قبائل عديدة ويعيشون حياة بسيطة كفلاحين صغار ورعاة. فيما مضى كانوا رحلاً إلا انهم يعيشون الآن في القرى، وقلة قليلة منهم في المدن. إنهم يسمحون بتعدد الزوجات، والدين لا يضع أي حد لعدد الزوجات ولكن أغلبهم يقنع نفسه على كل حال بثلاث، ولدى الأمير نفسه اثنان فقط. يقول موضحاً رأيه:

- إن واحدة تكفي (وزيادة). لو كنت امتلك فهماً أفضل حين كنت شاباً لقنعت بواحدة.

حين أساله عن عدد أولاده يجيب مضطرباً:

- عشرة أو اثنا عشر... على ما أعتقد.

لا يأخذ أية زكاة من رعيته ولكنه يتلقى هبات من أتباعه في الدين.

- لا أحتفظ بالكل لنفسي، وأغلب هذه الهبات يذهب للمعبد والفقراء وأنا أملك ما يكفيني ويعينني على العيش.

التحق الأمير اليزيدي بالثورة سنة 1969.

- أنا أؤمن بمبادئ الثورة ولكن لا وجود لأية علاقة بين الدين والثورة. أنا كوردي وكل اليزيدين كورد وهذا السبب الذي دفعني للالتحاق بالثورة لأنها ثورة كوردية.

وأسأله فيما إذا كان كل اليزيديين مع الثورة فيجيب:

- لا، ولكن هذا فقط، لأن التحاقهم بالثورة ليس ضرورياً بعد. لم أطلب منهم ذلك ولكني لو فعلت فسيلتحق على الأقل95% منهم، وبالمناسبة فقد أعدمت الحكومة مؤخراً 20 يزيدياً في (الموصل).

تعرض على الأمير اغراءات عديدة:

- لقد حاولت الحكومة أن تكسبني إلى جانبها وقد أغروني بالذهب والأملاك ولكني لا أريد أن أبيع مبادئي بالنقود. ولا أريد أن تكون لي علاقة بالبعثيين ولا أريد أن أصبح خائناً. أنا أعتبر الجنرال بارزاني قائداً ومحارباً كبيراً. لقد كرس كل حياته من أجل شعبه وهو رجل شريف وثقة. ويضف الأمير اليزيدي.

- لقد كنت في (استوكهولم) في العام الماضي. قمت بجولة في أوروبا وأقمت ليلتين في (استوكهولم) ... ماذا كان اسم الفندق... أجل لقد تذكرت الآن، اسمه (فندق الغراند).

ثمة بقرة تمر بالجوار في الشارع الواقع اسفل الرواق. يقول الأمير اليزيدي:

- سنربح الحرب. بما أننا نقاتل من أجل قضية عادلة فأننا سننتصر. تملك كل شعوب العالم حقوقها فلماذا يحرم الشعب الكوردي منها؟

الأمير اليزيدي مزيج مثير للدهشة من بدائية قديمة جداً وعافية عصرية. هو قائد روحي لدين خفي عمره عدة آلاف من السنين تعتنقه قبائل فقيرة أفرادها فلاحون صغار ورعاة في الجبال الكوردية، ولكنه شخصياً. والى حد ما، واعٍ سياسياً ودعمه للثورة كما يبدو قوي جداً.

وعلى أغلب الظن فأنه مطمئن ومتحرر سواء في ذلك في صالونات الغراند هوتيل في استوكهولم أو في بيته المتواضع هنا في (جومان) يقول لي احمد:

- أنا لا أفهم لماذا أردت مقابلته فبرأيي هو شخصية غير ذي قيمة كلياً.

بيد أني لست متأكداً من ذلك.

في المساء وبعد أن تناولنا العشاء، أبقى جالساً في الغرفة مع أحمد وسعدالله وخوران وبعض الصبية الذين يخدمون هناك بصفتهم مترجمين. وتكاد الغرفة أن تكون معتمة... فطبعاً لا وجود لنور

الكهرباء في كوردستان باستثناء المشفى ومحطة الإذاعة. ليس لدينا سوى مصباح جيب موضوع على الطاولة وموجه نحو السقف. أقول لهم بأني أريد معرفة المزيد عن ليلى فيقول أحمد:

-نعم،ما الذي تريد معرفته؟

-أريد أن أعرف شيء عنها.

يساعدون بعضهم بعضاً في الحديث عنها، فقد كانوا كلهم يعرفونها حق المعرفة ويقولون:

كانت تدرس في كلية الفنون في جامعة بغداد ودرست علم الاجتماع. كانت تسكن مع عائلتها- عائلة من الطبق المتوسط- في بغداد. ولدت في (خانقين) في كوردستان ولكنها عاشت في بغداد منذ الصغر وكانت في الحادية والعشرين من العمر.

كانت طويلة القامة ونحيفة وذات بشرة بيضاء جداً وعينين سوداوين وشعر طويل أسود، كانت حسنة المظهر إلا أن جمالها لم يكن من النوع الأخاذ... كانت تمتلك ذكاءً حاداً. عضوة فعالة جداً في اتحاد الطلبة الكورد؛ نظمت حلقات دراسية في الثقافة الكوردية وغالباً ما كانت تلقي المحاضرات. كانت تتحدث دائماً وفي كل مكان عن كوردستان وعن ثورة الكورد العادلة. لم تكن أبدا خائفة. لقد كانت تعرف بأنها كانت تتحدي السلطات الحاكمة في بغداد بيد أنها لم تكن خائفة.

ذات ليلة ألقت الشرطة القبض عليها. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، وفي الليلة نفسها ألقي القبض على خمسة طلبة شبان. في البداية تم اعتقال شابين بأحد الفنادق في بغداد؛ آزاد سليمان ورشاد صبري وفي الليلة التي تلتها اعتقلت ليلى وثلاثة آخرون. لقد اعتاد الستة أن يكونوا معاً وقد ناضلوا سياسياً، كان هدفهم كوردستان ووحدة الكورد. لم يرتكبوا أبدا أية جريمة وقد اتهموا بالتخريب وحكم عليهم بالموت دون محاكمة.

يوجد ناد في بغداد يسمى (المنصور). ظاهرياً هو نادٍ للطبقات الغنية فهناك يتجمع دائماً ذوو السلطة في حزب البعث وأشياعهم، ولكن الكل يعرف ان خلف واجهة (المنصور) تختفي دهاليز السجن وزنزانات التعذيب وقد قتل المئات من الناس هناك بأكثر الطرق الوحشية.

الكل يعرف ذلك. ويسمى الناس النادي (بقصر النهاية).

لقد جرى حبس الشبان الستة في مكان مجهول، ولكن بعد ضغوطات متواصلة نظمت الحكومة بثاً تلفزيونياً أظهروا فيه السجناء ووصفوهم بالمجرمين والمخربين. لقد حاولوا أن يقنعوا ليلى بكتابة طلب استرحام إلا انها رفضت.

وهكذا أصبحت ليلى أول امرأة تعدم في العراق، وقد أعدم معها في الوقت نفسه جواد الذي لم يكن كالآخرين طالباً وانما عاملاً بسيطاً. غالباً ما كان ليلى وجواد معاً فقد كانا عاشقين.

واجه ثلاثة شبان من المجموعة فرقة الإعدام رمياً بالرصاص ولكن ليس قبل أن ينالوا نصيبهم من التعذيب.

لقد حدث هذا في 13 أيار 1974.

تمت دعوة أهالي الشبان للقاء المحكومين بالإعدام اللقاء الأخير، بيد انهم حين ذهبوا لم يجدوا سوى جثث موتى وقد أشبعت تعذيباً.

الضحايا الخمس كانوا ليلى وصديقها جواد وآزاد الذي كان رئيس اتحاد الطلبة الكورد ونريمان، شاب جد هادىء ورزين وأخيراً حسن رفيق نريمان. يقول أحمد:

لقد كان آزاد أعز صديق لي.

لم يتم إعدام رشاد صبري المعتقل السادس من الطلبة أبدا علماً انه لم يكن أكثر أو اقل ذنباً من الآخرين؛ لقد اعتقل وافرج عنه ليكون مجرد تبرير: لقد أرادوا بذلك محاولة الإظهار للناس بأنه جرى نوع من محاكمة.

في الليلة نفسها التي اعتقلت فيها ليلى فر ثلاثون طالباً من بغداد والتحقوا بالثورة. ويقول أحمد:

- لقد كان الأمر مرعباً. لقد بدأ ذلك قبل اعتقال ليلى، فقد قتل طالب شاب اسمه محمد رشيد في ظروف غامضة وقد رميت جثته في أحد الشوارع. لقد أخذنا الجثمان إلى أحد المستشفيات ولكنهم رفضوا فيما بعد أن يسمحوا لنا ولأهله رؤيته. نحن مقتنعون بأنه قد أغتيل بأيدي البعثيين. لقد بتنا كمن أصيب بالشلل وما عدنا نجرؤ على الخروج من غرفنا.

خلال عشرة أيام أعدم 140 كوردياً في بغداد.

والآن فقد التحق عملياً كل الطلبة الكورد من الذين نجوا من الموت بالثورة والعديد منهم قد ثابر بعزم وتصميم كي يكمل تعليمه قبل أن يأتوا إلى هنا.

لا أشك لحظة واحدة برواية الشبان فهم يتحدثون بهدوء وعقلانية؛ انهم يفضحون واقعاً مرعباً. يقولون:

- ليست حكومة بغداد سوى مجموعة من قطاع الطرق.

يصغون إلى إرسال راديو كوردستان بالعربية. اعدم كوردي آخر، مات كوردي آخر تحت التعذيب.

- هذه هي الحال كل يوم.

في وقت متأخر من الليل وبعد أن نمت بضع ساعات فقط أستيقظ على صوت الرعد ولمع البرق. بدأت تمطر والريح تعصف بشدة. أفكر باللاجئين على الحدود، بأكواخهم التي هي من الأغطية، بالأطفال الذين يموتون من البرد بسبب هذه الريح العاتية القارصة.

أشعل مصباح الجيب اليدوي وأكتب برقية إلى منظمة (لوثر للمساعدة) في السويد؛ ربما لكي أريح ضميري، ربما لكي أنفس عن عجزي فحسب أكتب:

يوجد هنا 150000 من لاجئي الحرب. ليس لدى الآلاف منهم حتى مجرد خيمة. لقد بدأت السماء تمطر وعما قريب سوف تثلج. عليكم أن تفعلوا شيئاً!

في الصباح أعطي البرقية لميكائيل ويعدني أن يبذل جهده كي تنقل إلى إيران وترسل من هناك.

خائفة من الطائرات

يعتبر العثور على مستشفى (جومان)- المستشفى المركزي لكل كوردستان الحرة- بالنسبة لذاك الذي لم يكن هنا من قبل مستحيلاً تماماً، فالمستشفى يجب ألا يرى من الجو وكذلك من الأرض أيضا. لقد جهز قبل ثلاثة أشهر في واد أو قل مسيل ماء وضيق جداً، توجد خارجه على الطريق بعض البيوت الطينية فقط.

قبل اندلاع الحرب في آذار كان هناك طبيبان فقط في كل كوردستان، والآن يوجد 95 طبيباً. لقد تدفق الأطباء الكورد إلى كوردستان من كل أرجاء العراق وبعضهم جاء من بلدان أخرى. يخدم العديد منهم الآن في الريف وخلف الجبهات ولكن المستشفى المركزي في (جومان) يملك هيئة أطباء كاملة من الاختصاصيين؛ ومن المؤكد أنهم ذوو خبرة وتحصيل علمي لا يقل عن زملائهم في أي مستشفى محافظة في السويد.

لقد اختير هذا الوهد المهجور لأنه يجري فيه نهير ماؤه صاف كالكريستال وهناك الكثير من الجوف حيث أمكن التفجير فيها بهدف عمل ملاجئ. يأخذني رئيس الأطباء خورشيد دزيي في جولة على الأقدام في أعلى الوهد ويحكي.

-لدينا أكثر من 40 سريراً، 15 منها مخصصة للنساء ولدينا اختصاصي بالأمراض

الداخلية وطبيب رعاية صحية وطبيب أطفال وطبيب نسائي واختصاصي بالأذن والأنف والحنجرة بالإضافة إلى ثلاث ممرضات وصيدلانيين وسيارة إسعاف وثلاث لاندروفرات...

يتحدث عن مستشفاه كما لو كان مستشفى عصرياً جداً في بلد يسوده السلم. تتألف ((الأقسام)) من أسقف من قماش القنب فحسب، وقد وضعت اسرة الخيام تحتها في صفوف. يقول الدكتور.

- أمس قصفت قرية (وه رتى) وكان ضحايا القصف 11 قتيلاً و20 جريحاً، تقع القرية على طريق الجبهة، وكان يوجد هناك مشفى صغير قصف بالصواريخ. بضعة من الذين جرحوا هم هنا.

أحد هؤلاء الجرحى بيشمركه اسمه سافر وهو في الثامنة عشر من العمر، وقد كان يرقد في المشفى في (وه رتى) بسبب جراح أصابته أثناء وجوده في جبهة القتال وكان يتعافى ويتهيأ للخروج حين تعرض للقصف الثاني وأصيب بالجراح من جديد. وجهه مليء بجراح الشظايا ولكنها ليست

خطيرة، ويوضح الدكتور بان حظه كان جيداً عندما سلمت عيناه من الأذى. يظهر ان جراح الكل ليست خطيرة والعديد منهم يجلسون على أسرتهم ويبدوا ان حالتهم جيدة. هناك مريض يتمدد على فراش نفخ خارج سقف القنب، وهو أسير حرب عراقي ومصاب بجراح رصاصة بليغ في صدره. يبدل الممرض ضماداته ولا يعترض حين آخذ له بعض الصور: وانه لمن الواضح جداً انه راضٍ جداً بمصيره، بأنه خرج من الحرب بجراح طفيفة، واوضح أيضا ان المقام هنا يطيب له اكثر مما في جبهة القتال.

أتوقف في قسم النساء عند فتاة شابة ويريني الدكتور إصابتها... ثمة جرح فظيع يغطي كل القسم السفلي من الظهر، ويقول الدكتور بأنها ستتعافى ولكن التئام الجرح يتطلب وقتاً طويلاً وعلى أغلب الظن سيبقى أثر الجرح ندبة بشعة.

اسمها سامية وهي من قرية (بوجورندي) في منطقة (دهوك). ضحية من ضحايا القصف الجوي العراقي قبل 20 يوماً ولم يكن في القرية حين جاءت الطائرة سوى النساء والأطفال وأغلبهم كان قد ذهب إلى النبع لجلب الماء، بيد ان القنابل سقطت بالقرب من النبع وقتلت امرأة وجرحت أخريات. لقد استغرق حصول سامية على العناية الطبية وقتاً طويلاً لان القرية نائية ومنعزلة في أرض لا طرقات فيها.

هي صامتة وتبدوا على وجهها امارات القلق وأحاول التحدث معها بمساعدة الدكتور فتقول:

أنا خائفة من الطائرات. أتمنى لو أن الحرب تنتهي فلا أحتاج لأن أخاف من الطائرات.

أتأمل طويلاً مشهداً في قسم النساء هنا بالمستشفى لكي أطبعه في ذاكرتي، وأتمكن من وصفه هناك يستلقي صبي على أحد الأسرة، لربما هو في العاشرة من العمر وشكله كله يوحي بدنو الموت، فهو يتمدد بلا حراك بيد ان عينيه مفتوحتان بجانبه، تقف فتاة في عمر مقارب وتحمل يده في يديها وتنظر إليه باهتمام وبتواصل تام، وهي تلاحظ بان ثمة غريب يرافقها.

هي أخته، هو أخوها، هي بجانبه دائماً مليئة بالحزن والعطف ولكن بهدوء غير متكلف، جاهزة لمساعدته على الحياة إلى أن يقتضي في النهاية نحبه. لم يسبق لي أبدا رؤية صورة للحب الأخوي العميق واضحة ونقية وجميلة كهذه، واقف هناك مطولاً وارقبهما كليهما وامتلئ ليس بالألم أو العطف، بالحزن أو العجز وإنما بنوع من الفرح.

وأتأمل في نفسي وأفكر إنها بالطبع صورة إنسانية تماماً ويجب أن تكون مألوفة، فكل يوم يموت العديد من الأطفال في العالم، وهذا الطفل ليس بضحية حرب فقد أصيب بمرض عضال ويضطجع على أحد أسرة المستشفى، والسرير وضع تحت سقف خيمة حيث تتسرب أشعة الشمس إلى الداخل بحث يمكنه أن يسمع الريح بين الأشجار وخرير النهير في الواهد. حين يموت لا يموت على سرير مستشفى قضبانه من فولاذ في غرفة معقمة كل شيء فيها ابيض، محاطاً بهيئات بشرية غير مألوفة له وهي وفي أردية بيضاء. وانه يموت محاطاً بالناس وأخته معه بجانب السرير وهي لا تنبس ببنت شفة وإنما هي موجودة هناك فحسب، وتحمل يده بيدها. يقول الدكتور خورشيد:

-أجل، هي أخته وهي معه دائماً. وكما ترى فانه ليس لدينا هنا أوقات زيارة معينة؛ نحن لا نستطيع التقيد بمثل ذلك. علاقات القرابة قوية جداً؛ انهم يريدون أن يكونوا مع ذويهم في مرضهم وليس لنا أي اعتراض على ذلك وبهذا الشكل سيستمر الأمر.

يلمس بيده جبهة الطفل المريض ويقول:

-لا نستطيع أن نفعل اكثر مما فعلناه فليس لديه أي أمل في الشفاء. ولكنه لن يكون وحيداً حين يموت، وليس بخائف فهو هادئ تماماً.

يريدون أن يروني مشفى السل أيضا وهو يقع في مكان آخر، هناك فوق قمة جبل. هم معتزون جداً به لأن الثورة قد أنشأته وتديره، وقد افتتح في الأول من حزيران عام 1973. يقول أحد الأطباء.

-لقد طالبنا الحكومة بإنشائه، فمن المعروف بان السل مرض منتشر هنا في كوردستان، وقد كان العديد من الناس بحاجة إلى الرعاية الطبية ولكن الحكومة لم تبد أي اهتمام، يذكر فقمنا بإلقاء المهمة على عاتقنا وأقمنا هذا المشفى، وبعد ذلك قامت الحكومة بدفع المال وتحملت مسؤولية إدارته حتى الحادي عشر من آذار من هذا العام حيث اندلعت الحرب من جديد. انه مشفانا الوحيد المخصص لمرض السل والناس يأتون إلى هنا من كل كوردستان، يوجد في المشفى 30 سريراً مرتباً ومجهزاً بشكل جيد ولكن معضمها خال فتسعة فقط منها مشغولة بست مريضات من النساء وثلاثة مرضى من الرجال، ويوضح الطبيب:

-هذا بسبب القصف فالناس لايجرؤون على المجيء إلى هنا، وبدلاً من ذلك فان لدينا العديد من مرضى العيادة الذين يأتون هنا في الصباح ليحصلوا على العناية الطبية.

وأسأل مستغرباً:

- كيف يمكن للسل أن يكون مشكلة كبيرة هنا في أعالي الجبال حيث الهواء النقي؟

-يرتبط ذلك بنمط معيشة الناس، فالطعام ليس دائماً غنياً بالقيمة الغذائية المناسبة والجو بارد في الشتاء ما يدافع الناس إلى التزاحم في بيوتهم كي يحافظوا على الدفء، ولكن لولا إهمال الحكومة لقضي على المرض منذ زمن بعيد.

الآن اصبح الوضع افضل بكثير فنحن نحاول أن نفرض سيطرة قوية على المرض، علماً بأننا لا نستطيع اجتثاثه جذرياً ولكننا نستطيع تحسين الوضع.

ثمة فتاة شابة تجلس على سريرها والحزن يفيض من عينيها، ولا يبدو عليها أنها قد عرفت الضحك منذ أمد طويل.

ويقال لي بأنها من (الموصل) وقد طردت من هناك مع كل عائلتها- الأم وثمانية اخوة- بعد أن عرف البوليس أن والدها قد التحق بالثورة واصبح بيشمركه.

هي القصة نفسها، اسمعها وأعود اسمعها دائماً.

اسمها (عيشا إسماعيل) وهي في الخامسة عشرة من العمر. تجلس هناك على الفراش النظيف وترنو من خلال النافذة متعبة جداً وحزينة جداً. تقول بأنها تعتقد إنها لبثت في المشفى ثلاثة أشهر وتؤمن بأنها ستتحسن، ولكنها لم تستعد بأسها في مواجهة الحياة بعد.

تقع دائرة الإعلام في قاع وادٍ بين (جومان) و(حاج عمران) وقد تم هناك نصب مجموعة من الخيم، وبين الخيمة والأخرى تركت مسافة طويلة، وحفرت حفر كثيرة في الأرض للاختباء فيها أثناء هجوم الطائرات. لكل قسم مجموعته من الخيم وهنا تحديداً يلتقي المرء غالبية المثقفين الذين تدفقوا إلى كوردستان بعد 11 آذار ومنحوا الثورة بعداً جديداً. ما كانت هذه الحرب حرب عصابات قاسية يشنها سكان الجبال الغلاظ كما اعتقد الكثيرون؛ لقد كانت حركة تحرر هادفة، ذات إيديولوجية واضحة وأهداف مقررة بدقة.

يلتقي المرء في هذه الآونة في تلك الخيم الخضر الرمادية مجموعة من أساتذة الجامعات وآخرين من ذوي التحصيل العلمي العالي ومن مختلف الأعمار، لا يجد المرء بالتأكيد نظائرهم في العديد من أنحاء العالم.

ألتقي بالدكتور كمال مظهر المختص في التاريخ الكوردي والذي يقول:

-نحن لا نريد الإدعاء بأن الكورد قد أراقوا دماء في الكفاح من اجل حقوقهم اكثر من العديد من الشعوب الأخرى، ولكن ثورتنا هي مثال، مثال جيد على أن شعباً صغيراً يجب أن يكافح من اجل الحياة جيلاً اثر جيل. لقد بدأ الكفاح في العراق واستمر منذ الحرب العالمية الأولى، وقد قاد الشيخ محمود في فترة عامين (1922- 1923) حركة استقلال كوردية خاصة، كانت لهم جريدتهم الخاصة وجيشهم الخاص، أجل حتى طوابعهم الخاصة. في كوردستان الإيرانية أعلنت الجمهورية في (مهاباد) عام 1946. لقد ثار الكورد في كوردستان التركية ثلاث مرات، 1925 و1930 و1938 ويعيش هناك الكورد اكثر من أي بلد آخر، حوالي سبعة ملايين لا يملكون أية حقوق على الإطلاق ويرزحون تحت نير الاضطهاد. في الوقت الراهن يحارب الكورد فقط في العراق، بيد أننا نحارب عن كل الكورد.

أسأل:

- والبارزاني... ما هي أهميته؟

-أستطيع أن أقول لك دون تردد بان الكورد كلهم يعتبرون الجنرال البارزاني القائد الطبيعي للشعب الكوردي ويكنون له كل الاحترام. لقد حارب منذ طفولته من أجل حقوق الكورد... هو موجود في قلوبنا كلنا. وليس هنا في كوردستان العراقية، فلكي تفهم إلى أي حد يحب الشعب الكوردي الجنرال البارزاني أستطيع أن أحكي لك بأن صورته توجد في كل بيت كوردي في روسيا أيضا، ويطلقون اسم البارزاني على أبنائهم تيمناً به. وهذا في روسيا.

- ولكن كيف ستجري الأمور إذن حين يغيب هو عن الساحة؟

- نتمنى له حياة طويلة، ولكنه إذا مات فسنتبع الطريق التي رسمها لنا ونواصل الكفاح.

لقد درس الدكتور كمال في روسيا ويتكلم الروسية بطلاقة ولكن معرفته بالإنكليزية ضعيفة... يستنجد بصديقه شوكت الذي هو أحد طلائع الثورة وقد بقي فترة طويلة بوصفه المترجم الوحيد للغة الإنكليزية.

التحق شوكت بقوات البارزاني في 21 كانون الأول 1961 وقد كان ملازماً أول في القسم المزود بالسيارات في قوات الشرطة العراقية. حين وجهت كتيبة كاملة للهجوم على الكورد فرَ شوكت من الخدمة وعبر خطوط النار والتحق بالبارزاني. يقول شوكت:

-كان الجنرال مسروراً جداً ففي ذلك الوقت لم يكن انتقال الناس من الشرطة العراقية إلى الثورة أمرا مألوفاً، ولكن من وقتها ومئات الضباط العراقيين من الجيش والشرطة يتخذون القرار نفسه الذي اتخذته ولم أندم عليه أبدا.

تحصيل شوكت العلمي كان في الراديو جعله يستلم مهمة صيانة أول جهاز إذاعة للثورة والذي كانت قد غنمته من العراق. هو الآن المدير الفني لمحطة الإذاعة الثورية، وبعد مشاورة قصيرة يقرر هو والدكتور كمال أن يقوما بعمل استثنائي من أجلي وهو أن يرياني محطة الإذاعة. ركبنا لاندروفراً وتوجهنا نحو (جومان) ولكننا أخذنا طريقاً جانبياً لصعود أحد الجبال. محطة إذاعة كوردستان الحرة باستوديوهات التسجيل وغرف البث تقع هناك محمية جيداً في أحد الوهاد الضيقة... وقد بنيت بالطريقة الكوردية... بالقرميد المجفف في الشمس، ولكنها ليست على الإطلاق بدائية كما تبدو من مظهرها. جهاز الإرسال نفسه يقع في ممر تحت الأرض قد أحدثت بالتفجير في أعلى الجبل... ادخل من خلال جحر ويأخذ مني الإعجاب بالفعالية هناك تحت الأرض كل مأخذ. يقول شوكت:

-في الوقت الراهن نبث باللغات الكوردية والعربية والآشورية والتركية والإنكليزية، ونرسل على العديد من الموجات المختلفة الطول. لقد حصل العراقيون على أجهزة تشويش قوية ويساعدهم خبراء روس في ذلك ولكننا نستمر ونبني أجهزة إرسال جديدة... قريباً سيكون بإمكاننا الإرسال على ست موجات مختلفة الطول، وخداع أجهزة التشويش.

أحد أجهزة الإرسال الجديدة سيكون جاهزة خلال لحظات، وألاحظ بان زجاجة ويسكي من نوع (جوني ووكر) تصبح جزءاً منه... هي فارغة طبعاً ولكن ورقة الماركة لاتزال ملصقة بها. يقول شوكت:

- لدينا فنيون في الراديو ماهرون جداً.

بالقرب من محطة الإذاعة تختفي مطبعة الثورة في مكان آخر تحت الأرض. لقد ولى الزمن الذي كانوا يطبعون فيه الكراريس بالاستنسل والطابعات اليدوية القديمة... توجد الآن هنا مطبعة كاملة مجهزة بأجهزة عصرية وبطابعات البرت وهيدلبرغ وبقاطعه الكترونية وجهاز تنضيد حديثين. يعمل 36 شخصاً في هذه المطبعة التي تطبع مجلة أنباء كل أسبوع... اسمها ((النضال)) وتصدر في 521 نسخة، وهذا بالإضافة إلى العديد من مجلات أخرى في مواضيع مختلفة، فعلى سبيل المثال توجد مجلة خاصة بالبيشمركه وأخرى بأعضاء الحزب والثالثة علمية وأخيراً مجلة أدبية شهرية.

لقد كان هذا اليوم مفيداً جداً لي... لقد تعلمت الكثير... وقد تم لي في هذا البلد الكائن خلف الجبال مشاهدة ومعايشة اكثر مما كنت انتظر لنفسي بكثير.

في المساء تأتي مجموعة من الموسيقيين في زيارة إلى قصر السلام. يجلسون في الرواق بمواجهة نافذتي تماماً... نجلس هنا إلى منتصف الليل ونغني سوية... القمر الآن هلال وفي أسفل الوادي تذهب قوافل من البيشمركه إلى الجبهة ويسمع أحيانا صوت قعقعة خافتة بين الجبال ولا ادري ما إذا كانت قرقعة الرعد أم انفجارات قذائف المدفعية.

وأفكر في نفسي... لم ينقض على وجودي هنا سوى يومين فقط ومع ذلك فلدي هنا أصدقاء أكثر مما في أي مكان آخر في العالم.

هذه الحرب خطأ

أستيقظ في الصباح الباكر على أصوات مدافع الدفاع الجوي. لقد عبرت طائرة توبولوف على ارتفاع عال ولم تكن في مجال الدفاع الجوي الكوردي وقد اختفت قبل أن الحق من أن أخرج. يقول ميكائيل:

نحن نعرف بأننا لا نستطيع الوصول إليها مع هذا الارتفاع ولكننا نطلق النار عليها لتخويفها فقط. بيد أنها على الجبهات تطير على ارتفاع منخفض وقد أسقطنا إلى الآن عدداً يتراوح بين 20-30 طائرة آخرها كانت في الأسبوع الماضي... قفز الطيار بالمظلة ولكنه هبط قرب الحدود في جانبنا وقد أسرناه وهو الآن موجود في معسكر أسرى الحرب وتستطيع مقابلته.

لست مغرماً جداً بطرق الفرقاء المتحاربين في إظهار أسراهم للناس بوصفهم أدوات عرض للصحفيين الزائرين، بل أفضل ألا أكون مع مثل هذا المشهد ولكني مع ذلك يجب أن أرى كيف يعامل الأسرى هنا في كوردستان... لقد سمعت بأن مجموعة منهم (الأسرى) قد أعدمت انتقاماً لإعدام مماثل لأسرى الحرب الكورد في العراق. يقول ميكائيل ويبدو مندهشاً جداً:

-هذا كذب... نحن لا نعدم أسرى الحرب... سيكون ذلك أمرا مستبعداً تماماً. نحن نعاملهم معاملة جيدة، فمن المعلوم انه ليس خطأهم وإنما أرغموا على الخروج إلى الحرب من قبل حكومتهم المجرمة، وفي الحقيقة نحن لا نشعر بأي حقد على الجنود العراقيين... لا أعتقد إن أحداً من الكورد يفعل ذلك، ولا حتى البيشمركه في الجبهة.

يقع معسكر أسرى الحرب في وسط (جومان)... لقد مررت من هناك عدة مرات دون أن ألاحظه. انه يقع في مبنى كبير ذي طابق واحد استخدم في الماضي للمكاتب الإدارية لحاكم المنطقة، وفي الواقع هو أكبر وأجمل مبنى في كل (جومان) ولا أفهم تماماً لماذا اختير هذا المبنى تحديداً ليكون سجناً لأسرى الحرب؟... التباين بين معسكر أسرى الحرب وبين المستشفى البدائي الذي رأيته أمس صارخ، فمبنى الحاكم مناسب بشكل رائع لأن يكون مستشفى.

لا أحصل على أي تفسير حقيقي لهذه الحالة ولكني أظن إن المبنى الحاحم يعتبر واقعاً في منطقة مكشوفة جداً ولهذا فهو غير مناسب لأن يستخدم مستشفى؛فسيتعرض مباشرة لهجمات الطيران العراقي، هذا بالإضافة إلى أن معمل كهرباء (جومان) نصف الجاهز يقع تماماً بالقرب منه... من الممكن كأجراء اضطراري أن يعتبر هذا المعمل هدفاً عسكرياً.

تكاد أن تسمي حراسة معسكر الأسرى بهذا الاسم... هناك يقف خارجاً في الرواق فقط بضعة أفراد لطيفين من البيشمركه من فئة العجائز، ويسمح لي بالدخول دون مصاعب إلى مكتب قائد المعسكر الذي يتألف أثاثه من طاولة كتابة مصنوعة من ألواح معدنية وعدة كراسي فقط. لا يريد قائد المعسكر أن يبوح باسمه ويرجو مني إعفاءه من التقاط صورة له... السبب هو بالطبع الخوف من الانتقام من العائلة في بغداد التي تعتقد بأنه قتل في الحرب؛ لقد كان قبل عدة أشهر ضابطاً في الجيش العراقي. يقول:

-يوجد هناك 120 أسيراً وثمة حوالي عشرة آخرين هم في طريقهم من الجبهة الغربية إلى هنا. كل الأسرى يجمعون هنا في (جومان)... ليس لدينا أي معسكر آخر، وبالطبع فقد أسر الكل أثناء المعارك في الجبهة.

ويضيف قائد المعسكر:

-انهم يعاملون معاملة حسنة وفي الحقيقة انهم يحصلون على طعام أفضل مما يحصل عليه بيشمركتنا أنفسهم في الجبهة. حصة كل منهم في الصباح رغيفان وقطعة جبن وغذاؤهم يتألف من الرز والمرق ويأكلون في العشاء الخبز والمرق. يحصل كل أسير عل ستة أرغفة وتسع كاسات من الشاي يومياً وعلى 200 غرام من اللحم ست مرات في الشهر، وعلى علبة شفرات حلاقة وثلاث قطع صابون- أو أكثر إذا ما احتاجوا- وكيلو غرام من التبغ الكوردي وثلاث رزم من ورق السجائر ودينار لشراء الفواكه شهرياً. ويضيف قائد المعسكر:

-لقد تعلموا في الجبهة أن يكرهونا فقد اصبحوا ضحايا كذب كثير... صوروا لهم انهم يحاربون عصابة من ((قطاع الطرق الرجعيين)) وما شابه. لقد خدعهم البعثيون الفاشيون ولكن جبهة القتال مدرسة جيدة لهم، فقد صوروا لهم انهم سيخوضون حرباً سهلة... لم يكن لديهم أية فكرة عن أي جحيم سوف يواجههم. إن من يفلت منهم من الموت سعيد جداً فنحن- ومنذ البداية نعاملهم-معاملة حسنة ويصافحهم البيشمركه ويقول لهم ((تعالوا نصبح أصدقاء)). أجل، هذه حقيقة! فبهذا الأسلوب نجعلهم يدركون سريعاً كيف أنهم كانوا ضحايا قادة مخادعين ومتوحشين. مرة أسر ضابط عراقي ولكن لم يمر يومان على أسره حتى قال: ((كانت أغلى أمنية عندي أن أتمكن من كوردي وأعذبه، ولكني أفهم الآن إلى أي حد كانت الدعاية البعثية خادعة)). إن لم نعامل الأسرى معاملة حسنة فسيعاقبنا قادتنا على الفور. ويتابع قائلاً:

-إننا نقدم لائحة بأسماء الأسرى كلهم إلى الصليب الأحمر ووجهنا دعوة مفتوحة لمنظمة الصليب الأحمر الدولية لإرسال ممثليها إلى هنا للتأكد من أننا نحترم كل المعاهدات ومن أن النظام البعثي يكذب حين يدعي أننا نقوم بما يقوم به هو ونقتل أسراهم. لن يخطر في بالنا أبداً القيام بعمل كهذا... انهم بالطبع اخوتنا ومشكلتنا الكبرى هي أنهم لا يتمكنون من الاتصال بذويهم ونحن نحاول مساعدتهم في ذلك... نسمح لهم بإرسال الرسائل إلى خارج البلاد بحسب إرادتهم وندعهم يبعثون تحياتهم عبر الإذاعة، غير ان اغلبهم لا يجرؤون على القيام بذلك فهم خائفون من أن تقصف الحكومة المعسكر، وخائفون من أن عائلاتهم ستتعرض للأذى، فالحكومة كما هو معروف تدعي انه لا وجود لأية حرب أو أسرى حرب.

يدعوني قائد المعسكر إلى تناول الغداء في غرفته... الطعام المألوف الذي يقدم لأسير الحرب ولا شيء سواه. بعد الغذاء أتجول في المكان برفقة قائد المعسكر. لا وجود لأي أثاث في الغرف والفرش

موضوعة على الأرض، وبالتأكيد سيعتبر المراقب ذلك غير كاف فيما لو جهل انه لا توجد أية مفروشات في أي بيت كوردي بسيط أيضا... يأكل المرء هنا وينام ويجلس على الأرض فلا حاجة للطاولات والكراسي. أحس بانزعاج كبير من عملية قيامي بالتجول في الغرف والنظر إلى ما فيها وبشكل خاص حين يكلف الرجال أنفسهم وينهضون حين اقدم عليهم ولا يجلسون إلا حين يأمرهم بذلك قائد المعسكر الذي يقول:

لقد بدؤوا يطبخون بأنفسهم، فقد طلبوا أن نأذن لهم بذلك. طبعاً تعتبر البطالة مشكلة بالنسبة لهم ولكن يوجد جهاز راديو في كل غرفة ويسمح لهم بالسماع إلى أي برنامج يريدون، حتى نشرات الأخبار العراقية طبعاً.

أحكي مع رقيب... اسمه شهاب أحمد ويقيم هنا أسيراً منذ الرابع من تموز. انه ضئيل الحجم وقد أثرت قيه فترة الأسر بوضوح، فقد جعلته قلقاً وغير واثق من نفسه وانه لا يعرف شيئاً عن المستقبل وهو واقع في وضع ميئوس منه، ويجيب بالنفي حين أسأله ما إذا كان لديه اعتراض على التحدث إلي ويقول:

-قبل أن نأتي إلى الجبهة قالوا لنا بأننا نقاتل قطاع طرق رجعيين وان البيشمركه لا يدعون أحدا يقع في قبضتهم يفلت من الموت، ولكني أعرف الآن طبعاً إلى أي حد كان ذلك خطأً. إن الوضع في هذا السجن جيد ولكنه من الواضح إني أتوق إلى الخروج من هنا. لست متزوجاً ولكن لدي والداي واخوتي في بغداد وهم لا يعرفون أي شيء عني. أملى هو في السلام. الفرصة الوحيدة هي السلام ولكن لو استمرت الحرب وأخلي سبيلي فلن يكون حينها بمقدوري القتال في هذه الحرب اكثر. أريد أن يدخل العرب والكورد في السلم... هذه الحرب لا معنى لها.

-كيف ستجري الأمور باعتقادك؟

-لايمكن التكهن بذلك. لدى الكورد أيضا سلاح جيد في الوقت الراهن ولكن لدى العراقيين أكثر ولديهم مالا يقل عن أربع فرق على الجبهة وكل فرقة تتألف من 12000 رجل... ناهيك عن الدبابات والطائرات، بيد ان الحق هو إلى جانب الكورد وهذا مابت اعرفه الآن.

-لم تجر له أية عملية غسل دماغ ولكنه قد مر بأقسى صدمة في حياته ولا تزال آثار هذع الصدمة بادية عليه. وأقول له:

- أنت تقول بأنك تتمنى أن تنتهي هذه الحرب، ولكن ألا ترى بأن هذا هو شأن كل الحروب وأنها كلها بدون معنى؟

فيجيب:

- نعم، فلو حاربنا إسرائيل لكنت مستعداً أن أقوم بواجبي في الجيش.

وأدرك فجأة إن كل هذا الحقد على الكورد والذي امتلأ به قبل أن يجد نفسه في معسكر الأسر قد تحول الآن إلى حقد اكثر من الذي أحس به تجاه إسرائيل. وأقول معقباً على كلامه:

ولكن يحتمل أن تصبح في تلك الحرب أيضا أسيرا وربما تكتشف بأنك قد خدعت ثانية.

- إطلاقا، إن ذلك غير ممكن، فلو تمكن الإسرائيليون من اسري لقتلت نفسي.

- يقول قائد المعسكر بأني أستطيع أن أتكلم مع أي أسير عراقي أريد وعلى انفراد فليس لديه أية اعتراضات، فأطلب أن يؤذن لي بالحديث مع الطيار العراقي.

يدعى صفاء شلال فيال وفي الثالثة العشرين من العمر وهو نقيض الرقيب الصغير تماماً... ضخم الجثة وذو تحصيل علمي عال يتكلم إنكليزية جيدة وينحدر على الأغلب من عائلة برجوازية في بغداد وينتمي إلى ذوي الامتيازات.

حين ادخل غرفته ألاحظ خوفه والذي ربما يكون قلقاً، فأوضح له بأنه يستطيع أن يقرر بنفسه ما إذا كان يريد التحدث إلى أم لا... بأنه لا أنا ولا قائد المعسكر يفرض هذا. ويوضح لي بأنه سعيد لزيارتي فإنها تسبب له الارتياح ويحكي بأنه قاد طائرة ميغ 19 على الجبهة وأسقطت قبل أسبوعين ويتابع قائلاً:

-لقد حدث هذا خلال هجمتي الثانية وقد لاحظت بان هناك خللاً في الطائرة فما عاد في إمكاني السيطرة عليها، وقد قذفت بنفسي منها بواسطة المقعد القاذف وهبطت في ارض وعرة كانت قريبة جداً من الجبهة وحاولت أن اذهب إلى الجانب العراقي ولكن ظهري كان قد أصيب برضوض أثناء هبوطي فلم أستطيع الإسراع كثيراً وحاصرني البيشمركه الذين صاحوا: ((قف! ابق مكانك)). كانوا يحيطون بي وكنت خائفاً إلا أنهم طمأنوني وساعدوني في نقلي إلى المستشفى، والآن أنا هنا وهم يعاملونني بشكل جيد، جيد جداً، ولكنه أمر يبعث على الملل والضجر فأنا أحن إلى البيت.

يقول عن حراسه في المعتقل ((أصدقائي)) وأسأله عن رأيه في الكورد فيجيب:

-لقد كنت أعرف أنهم كرماء ولطيفون وقد حكي لي والدي عنهم وأنا نفسي كنت هنا في الجبل في إجازة ومع ذلك فقد كنت خائفاً، فالمرء لا يعرف أبداً ما يمكن حدوثه في الحرب.

- ومع ذلك وبالرغم من أنك كنت تعرف الكورد فقد خرجت إلى حربهم.

- لقد أصبحت طياراً عام 1970 وقد أردت أن أحارب إسرائيل... لهذا السبب التحقت بسلاح الطيران. حين تلقيت الأوامر بالاشتراك في هذه الحرب لم يكن بالطبع من شأني أن أتخذ أي موقف... كان علي أن أطيع الأوامر وليس اتخاذ موقف سياسي.

هذه هي الحجة المألوفة والقديمة التي فكر بها هنا في عزلته... بأن المرء بوصفه عسكرياً جيداً يطيع الأوامر فقط وببراءة تامة. وأعود فأسأله:

- ما هو رأيك الآن بالحرب؟

- إنها خطأ... هذه الحرب خطأ. يجب أن يصلوا إلى حل سلمي يقبل الكل به فالحرب لاتحل أية مشاكل.

- لو أفرج عنك الآن فهل ستعود إلى سلاح الطيران العراقي؟

- أجل، ولكني لن أشارك في هذه الحرب. أريد أن أحارب إسرائيل وليس الكورد.

أفهم انه لم يتجاوز الصدمة بعد. لقد مكث هناك وحيداً في غرفته لفترة أسبوعين - لسبب ما فقد وضع وحده في غرفة- وتأمل في مصيره. حين أسقطت طائرته تحطم كل عالمه تقريباً ويصعب عليه الآن لملمة حطامه.

هناك في الحقيقة قطعة كبيرة فقط لم تتحطم! ألا وهي حقده على إسرائيل.

أتميز من الغيظ حين ألاحظ ذلك وأقول له:

- ألا تفهم بأنه من الممكن أن تخدع الخدعة نفسها حين يتعلق الأمر بإسرائيل مثلما يتعلق بكوردستان؟ وهكذا تسقط طائرتك ثانية... هل ستتكر حينها الحجة نفسها: ((لقد كنت فقط أطيع الأوامر ولكن هذا الحرب خطأ))؟ فجأة يصبح مهتاجاً ويجهد نفسه إلى أقصى حد ليوضح بالإنكليزية بان الأمر مختلف مع إسرائيل. لقد أحتل الإسرائيليون أرض العرب وسلبوا وقتلوا، ويجب إيقافهم، يجب إفناؤهم... ويبدأ يتكلم بسرعة ويخلط في القول واقول له:

- ثمة رواية أخري أيضا. إذا كانت حكومتك قد كذبت عليك عن كوردستان- وذلك ما تعترف بنفسك إنها فعلت- فلربما يكذبون عن إسرائيل أيضا.

هذا العرض للأمور اربكه تماماً... أحس باللامعقولية في الضغط عليه بهذا الشكل وأندم لأني دخلت في النقاش، فالنقاش بالرغم من كل شيء لا فائدة منه... الآن وفي معسكر أسرى الحرب في كوردستان يصبح الحقد على إسرائيل بالطبع الشيء الوحيد الذي يمكن أن يمنح حياته ذرة معنى، وسيكون مع القسوة بمكان أن يحاول المرء أن يسلب منه هذا الحقد أيضا وأسأله كي أغير الموضوع:

- هل حلقت فوق الجبهة فقط؟ أنت تعرف بالطبع إن الطائرات العراقية قد هاجمت أيضا قرى المدنيين في كوردستان... هل قمت بقصف القرى الآمنة أيضا؟

-لا، لقد حلقت فوق الجبهة. أنا أعرف أننا قصفنا القرى ولكني لا أحب ذلك فلا يجوز للمرء أن يقتل المدنيين.

- هل أفهم من حديثك أنك في إسرائيل... لو تلقيت الأوامر بقتل النساء والأطفال هناك فلن تتردد؟

ويكاد يصرخ وهو يقول: لا،لا! وأندم ثانية لأني استثرته وأفسدت عليه خططه فما فائدة ذلك في الحقيقة... أشعر حقاً بالعطف عليه والأسف من أجله، وأفكر بأنه تماماً إنسان آخر غير ما صار إليه.

أتركه يتكلم عن إسرائيل إلى النهاية وحين أغادر يرافقني إلى الباب وحتى خارج الغرفة في الرواق.

يسألني أحمد، المترجم عما تحدثت معه ويقول لي:

-إذا كان قد قال بأنه لم يهاجم أبدا أهدافاً مدنية فقد كذب. حين أسقطت طائرته كان قد هاجم قبلها مجموعة من المدنيين، عائلة من اللاجئين ارتقت منحدراً جبلياً مع بغلة. في المرة الأولى أخطأ الهدف... وأسقطناه حين كان يتأهب لهجوم جديد. وأنه ليس بريئاً مثلما يريد أن يتظاهر. نحن واثقون تقريباً بأنه الطيار الذي كان يقود قبل عدة أيام طائرة هاجمت إحدى القرى وقتلت عشرة من النساء والأطفال.

أحاول أن أتصوره- هذا العراقي الشاب- في أعماقي، حيث يجلس في طائرة الميغ الروسية وينقض على قرية ويضغط على زر إطلاق النار ليرش الموت على مجموعة من النساء والأطفال الذين يراهم هناك في الأسفل. قبل لحظه فقط كان هيئة إنسانية في قلقه المخيف... لقد شعرت بالإشفاق عليه حيث يجلس وحيداً في غرفة ويبدد حياته الفتية. ولكن ماهي مسئوليته في الحقيقة؟

كان من الأفضل له في الحقيقة أن يتبع آلته الحربية المحطمة إلى الأرض ويلقى مصيرها. ومع ذلك فانه بالطبع ضحية من ضحايا الحرب. هو الآن لا يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ومع ذلك ممتلئ تماماً بالحقد.

عليك أن تسافر إلى بهدينان

يقول لي أحمد:

- إذا كان لديك وقت فيجدر بك أن تسافر إلى (بهدينان).

- بهدينان؟

- إنها منطقة في الغرب. تشمل (دهوك) و(زاخو) و(عمادية). يجدر بك أن ترى هذا الجزء من كوردستان. أنا شخصياً من تلك المنطقة أستطيع أن أرافقك.نستطيع أن نسافر إلى (برواري بالا)... انه واد طويل يقع تماماً بالقرب من الحدود التركية. يجب عليك أن تشاهد (برواري بالا). هناك يزرعون، الكثير الكثير من الفواكه وتقع العديد من القرى هناك وهي لم تتعرض أبدا إلى القصف فالعراقيون لا يتجرأ ون على القصف قريباً من الحدود التركية. أرغب في أن أريك (برواري بالا).

حين يتكلم أحمد عن الوادي الرائع (برواري بالا)، لا أملك أي خارطة أنظر فيها ولكني لست آسفاً، فالخارطة تعيق خيالي لأني أصور لنفسي خلف الجبال العالية جنة وعرة، مدينة فاضلة تطل على العالم... أقرر فوراً:

- هيا بنا نسافر.

- نغادر في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر في إحدى اللاندروفرات. إنها بالنسبة إلي رحلة إلى المجهول وهي إلى حد ما كذلك بالنسبة إلى أحمد أيضا... لم يسبق له أن سافر في هذا الطريق من قبل لأن الطريق في زمن السلم تمر جنوباً عبر (أربيل) و(الموصل) ومن ثم شمالاً من جديد، ولكن

هذا الطريق الآن مغلق وعلينا أن نتابع رحلتنا خلف السلاسل الجبلية التي تشكل حماية لنا من قذائف المدفعية العراقية وعلينا كذلك أن نسافر في الظلام كي لا نتعرض لهجمات الطيران. يقول أحمد:

- علينا أن نعبر أحد الأنهار، ولا يوجد على هذا النهر أي جسر. يجب أن نصل إليه في وقت متأخر من هذا المساء يجب ألا يستغرق الوصول إلى هناك سوى بضع ساعات، وبعدها سنرى كيف سيمكننا المواصلة.

ولكن يتضح فيما بعد انه كان مخطئاً تماماً في تقدير المسافة.

يدعى سائقنا عبدالله. يملؤني هدوئه المطلق وأسلوبه غير المبالي بالخطر في قيادة السيارة... لاشيء يمكن أن يوقفه ولا أن يفسد عليه خططه. ينظر إلي في كل مرة يتجاوز فيها وضعاً خطراً.

ملتقى سيارتين عند حافة هاوية، تجاوز سيارة في منعطف بين جرف وواد صغير منحدر، ضغط مفاجئ على الفرامل لتجنب اصطدام مع شاحنة قادمة... ينظر إلي وعلى كل وجهة ترتسم ابتسامة تظهر سماحة خلقه، وارد على ابتسامته بابتسامة واعجب كيف ان الابتسامات بإمكانها خلق التواصل بين البشر.

نمر عبر (كلاله) التي كانت مقراً سابقاً للثورة وهي قرية مختلفة تماماً عن (جومان) فهي تملك طابعاً أقدم وقد بنيت على منحدر حاد وبيوتها تقع ملتصقة ببعضها على طول شارع ضيق. تعرضت (كلاله) للقصف عدة مرات في نهاية نيسان وأقسى هذه المرات كان في 29 نيسان حين لقي 20 شخصاً حتفهم.

نواصل شمالاً عبر واد جديد بمحاذاة جرف شاهق الارتفاع، بمثابة سور منيع، ونلتقي بين الحين والآخر سيارات أخرى وقوافل من البغال والبشر تثير في سيرها غيوماً من غبار أصفر ترتفع إلى أعالي السماء. عند أحد هذه الملتقيات أرى مشهداً من هذه المشاهد الجميلة التي لا تدوم طويلاً ولكنها تعلق بالذاكرة إلى الأبد: مجموعة من النساء تأتي مع حميرهن وبغالهن... يتحول الغبار بمواجهة ضوء الشمس حولهن إلى غيمة مضيئة من الذهب وكأنها تصعد بالبشر والبهائم إلى الأعلى، من فوق سطح الأرض... كأنه حلم.

نعرف من سائق لاندروفر نتلقاه في طريقنا بان الطريق نحو الغرب مقطوعة عند (بالك). لقد جرت معارك طاحنة هناك وقد توغلت الدبابات العراقية أماماً وتقدمت كثيراً بحيث إن في مقدورها قصف الطريق. علينا أن ننحرف من الطريق ونصعد الجبل متوجهين نحو الشمال في طريق شقتها الثورة قبل حوالي عام فقط كإجراء أمني تحسباً لقطع الطريق المختصرة. طريق الحرب هذه أطول بكثير، بيد أن كلاً من عبدالله وأحمد لا يعرفان مقدار طولها وهكذا ننطلق بالسيارة إلى المجهول بكل ما في الكلمة من معنى، وليس لدينا أية فكرة عن وقت وصولنا.

انه طريق رديء جداً، بحيث انه ليس بمقدور، سوى اللاندروفرات والشاحنات، أن تستمر فيه وقد شق بشكل مستقيم في قلب المنطقة. تغرب الشمس على الجرف في الجنوب ولكن عبدالله ينتظر طويلاً قبل أن يضيء المصابيح الأمامية... يسوق في العتمة إلى درجة لم يعد بمقدوره تقريباً رؤية أي شيء ولا يضيء مصابيح السيارة إلا حين نتجاوز ممراً جبلياً ونختفي وراء سور آخر من الجبال.

نجد أنفسنا خلف شاحنات ثقيلة الأحمال تتحرك ببطء في صعودها المرتقيات بمحركاتها المتعبة ونلتقي بسيارات قادمة بدون حمولة، ولا أرى أي شيء من المنطقة ولكني أحس أحياناً بأننا موجودون على جرف عظيم... أستطيع أن أرى نيراناً تتوهج هناك عميقاً في الأسفل... تحتنا، وكأنما نسافر في الفضاء.

يتوقف عبدالله عدة مرات ويتحدث إلى من يلتقيهم من القادمين... انهم يسألون عن الطريق والمرء يقيس المسافة هنا بالزمن. يسأل واحد من هؤلاء القادمين:

- كم تبعد (كلاله) من هنا؟ ويجيب أحمد: حوالي ست ساعات. وكم تبعد (بله) من هنا؟ ست ساعات تقريباً.

نتبع الآن أحد الأودية ويدعى (حسن بك)، ويقال بأنه أحد أجمل الوديان في كوردستان كلها، ولكني لا أرى شيئاً منه... الظلام حالك تماماً وفي السماء تتلألأالنجوم وهلال رقيق فقط.

لقد تزود عبدالله ببنزين احتياطي وضعه في خمس تنكات كبيرة... يوافق على بيع واحدة منها إلى لاندروفر مقبل من الجبهة الأخرى وممتلىء بالبيشمركه، والبنزين الذي في سيارتهم لن يكفيهم إلى (كلاله). يوقفنا رجل بيده مصباح جيب ويسألنا بلهفة عما إذا كان لدينا أخبار عن الحرب، فقد سمع بأنه وقع هجوم عراقي كبير بالقرب من (بالك) خلال اليوم، وان البيشمركه حاربوا بقوة. لم يعد يمكنه سماع راديوه لأن البطاريات فقد نفدت. هل تدرون شيئاً؟ ولكننا بالطبع لانعرف شيئاً... لم نستمع إلى الراديو.

أحياناً تظهر الكلاب في العتمة وتلاحقنا وهي تنبح بفرح. في أحد الأمكنة نعبر نهراً على جسر مؤقت أنشئ من العوارض... يقول أحمد بأن العراقيين قد فجروا الجسر الذي كان قائماً هنا. الساعة تتجاوز الواحدة بعد منتصف الليل قبل وصولنا (بله) التي تبدو إنها نقطة وصل بين الشرق والغرب في خط الاتصالات الضعيف هذا. أحاول عبثاً تمييز بعض ملامح المنطقة في نور الفضاء الضعيف وأحس بأنني موجود في سهل رحب، ولكن ذلك بالتأكيد خطأ تماماً، لأنه لا يوجد أي سهل في هذا الجزء من كوردستان.

نلج غرفة كبيرة مضاءة بمصباحها بريموس معلق بالسقف يجلس فيها بيشمركه صامتون وقد تربعوا في جلستهم، ووضعوا بجانبهم بندقياتهم ورشاشتهم الآلية ويتطلعون إلي بإعجاب وحب شديدين. نشرب الشاي وأشعل أحد الصبية ناراً في إحدى زوايا الغرفة ويقدم لنا بعد برهة الرز. لا يمكن أن نكون بعيدين كثيراً عن الجبهة. يقولون:

- أجل، لقد جرت معارك خلال هذا اليوم وهاجمت الحكومة بالدبابات ودمرنا ستاً منها، ولكننا لم نستطيع منعهم من احتلال تلة غير بعيدة عن الطريق والتي هي الآن، لهذا السبب، مغلقة فأنهم يستطيعون قصفها بالدبابات.

لازال أمامنا مسافة ساعتين بالسيارة إلى النهر وقد واصلنا الرحلة في الظلام. نحن الآن في وادي (بارزان) وبعد ساعة من الزمن نعبر قرية غارقة في الظلام- إنها قرية بارزان- ونستمر في طريق عمره بضعة أسابيع... شقته الثورة وسيارتنا هي من بين السيارات الأولى التي تسير عليه. ثمة بعض المعابر فيه شاقة جداً بحيث ان سيارتنا تكاد الا تتجاوزها بالرغم من أن عبدالله يشغل الإطارات

الأربعة ويضع اعتبار السرعة في الأول وفي أحد المرتقيات يتعطل أحد الإطارات ويقومون بتبديله في الظلام... من مكان ما أسمع صياح ديك، عصف ريح، خرير ساقية.

نصل النهر في الساعة الخامسة فجراً وذلك تماماً حين يبدأ ضوء النهار بالانبلاج. انه نهر عريض... يسميه الناس هنا (ريشين) ولكني أعتقد بأنه النهر الذي يسمى على الخارطة (الزاب الكبير) وهو رافد من روافد (دجلة).

أذهب وأتمدد لأنام برهة في كيس النوم على ضفة النهر ولكن سرعان ما يوقظني أحمد... لقد حان وقت عبور النهر. أما عبدالله فقد غادر راجعاً في رحلة طويلة إلى (جومان)... وعلى اغلب الظن انه سيلتقي مسافرين في (بله) فثمة الكثير من البيشمركه طبعاً ممن يريدون الذهاب إلى (جومان) في إجازة.

ثمة رجال كثيرون قد تجمعوا على شاطئ النهر مع بغالهم المحملة بالأحمال الثقيلة، وبعد فترة قصيرة حين ترتفع الشمس وتضيء الجبال يبدأ العبور. توجد على الضفة الأخرى عبارة قد صنعت من ثمانية إطارات داخلية كبيرة منفوخة مع منصة من ألواح خشبية... يدفعها أربعة رجال بالمجاذيف ويقاومون التيار بقوة. بعد أن يجري تحميلها نصعد إلى سطحها ثم يسحبونها بحبل من الشاطئ الآخر. على البغال أن تتبع العبارة سباحة، والمرء يفلت بعضها لتسبح بملء إرادتها ويشد بعضها الآخر إلى العبارة.

نشرب الشاي ونأكل الخبز تحت سقيفة صيفية على الشاطئ الآخر ثم نسير صاعدين المنحدر الجبلي حيث تقف عدة لاندروفرات... نستقل واحدة منها إلى (العمادية). يبدأ واد عريض ينبسط ويعرض تدريجياً، بينما لا يزال سور الصخر العظيم والحامي في الجنوب بادياً للعيان. نعبر قرية واحدة فقط... ننزل ونذهب إلى بئر لنشرب الماء ونلتقي بالنساء والأطفال والرجال المسنين فقط. يقول أحمد:

- كنت هنا قبل شهر ووقتها كانت القرية مهجورة تماماً، كانت القرية تحت رحمة قصف الطائرات... ولم يكن أحد يجرؤ على البقاء فيها، ولكنهم الآن يبدؤون بالعودة. لقد توقف القصف الجوي بالقنابل في بهدينان منذ ثلاثة أسابيع... لا ندري سبباً لذلك.

عند الساعة العاشرة- حينها أصبح مجموع ساعات رحلتنا 18 ساعة والتعب قد أخذ منا كل مأخذ- نقترب من مدينة (العمادية).

إنها مشهد خيالي رائع!

(العمادية) مبنية على صخرة في الوادي... صخرة عظيمة وشديدة الانحدار وقمتها مسطحة. إنها تذكرني بالإمارة المستقلة سان مارينو في ايطاليا والتي هي أيضا مبنية على صخرة، وبالحصن الجبلي (مسعدة) في إسرائيل، ولكن العمادية اكثر أسطورة وجمالاً بكثير.

توجد طريق واحدة فقط في أعلى الصخرة... طريق ضيقة ومتعرجة قد شقت في الصخرة. نصعد هذه الطريق بالسيارة وندخل المدينة من بوابتها... وكأننا ندخل مباشرة القرون الوسطى لأن

العمادية، المدينة المشيرة على الصخرة بالتأكيد لم تتغير كثيراً خلال عدة مئات من السنين. يقول أحمد:

- يحكي انه في قديم الزمان كانت العمادية محاصرة مرة من جحافل عدو لثمانية أعوام، بيد أنها بالرغم من طول المدة لم تستسلم ولم تقع بيد العدو.

يسكن والدا أحمد هنا... يأخذني إلى هناك. انه بيت قديم جداً:

- واحد من اقدم البيوت في العمادية، وعمره اكثر من مائة عام بالتأكيد، أحمد في الثالثة والعشرين، وهو ليس مولوداً هنا في العمادية وإنما في (بامرني) الواقعة غرباً وبعيداً منها. والده تاجر... أو بالأحرى كان تاجراً، فان أحمد يخبرني بأنه الآن كبير السن ولا يعمل شيئاً. الوالد الآن مسافر إلى الخارج.

لدى أحمد من الأشقاء اثنان ومن نصف الأشقاء ستة... الأب متزوج مرتين. أحاول معرفة المزيد عن عائلة أحمد ولكنه قليل الكلام جداً.

الآن، وحين يعود أحمد إلى البيت بدون استعداد ومعه غريب، والأب مسافر، ألاحظ بأنه يوضع مباشرة في المركز، ويعامل باهتمام ورعاية شديدين من زوجة والده وأخوته على السواء. هو الولد الوحيد الذي درس في الجامعة يقول:

- اخوتي كلهم- حتى الفتيات- يذهبون إلى المدرسة ويتعلمون القراءة والكتابة.

نرتقي درجاً حجرياً، مهدماً جزئياً، وندخل صالة البيت وتفرش زوجة والد أحمد- التي هي امرأة مهيبة وشقراء الشعر ولا بد أنها كانت في شبابها فاتنة الجمال- الأرض بالفرش... نضع حقائبنا على الأرض ونتمدد هناك.

تخرج زوجة والد أحمد صواني البورسلين من حقيبة سفر كبيرة، وبعد برهة تقدم الطعام على سفرة كبيرة وضعت على الأرض... رز ولحم وبندورة وعنب. نضطجع بعد الأكل هناك ويغالبنا النعاس فننام.

يكاد الحر في النهار هنا في أعلى الجبل لا يطاق، وتبدو المدينة شبه مهجورة، ويوضح أحمد:

- لقد انتقل الناس إلى الوادي ففي هذا الوقت من السنة يكون الكل تقريباً في الوادي ويهتمون بمزروعاتهم.

بعد الظهر نهبط من الجبل ومن ثم نتجول مشياً على الدروب بين البساتين الخضر والحقول الخصبة حيث تتدفق المياه العذبة في كل مكان. في أسفل المدينة تماماً تقع حدائق سكان المدينة وهناك يكاد كل شيء تقريباً أن ينمو... العنب والتين والخوخ والتفاح. وفوق تلك الخضرة الخصبة ترتفع أشجار الجوز والقيقب والحور.

يقيم أهالي المدينة في حدائقهم وعند (سولاف) التي تقع في مدخل واد صغير بمواجهة صخرة العمادية تماماً، وقد بني هناك فندق سياحي إلا انه ليس جاهزاً بعد، وقد توقفت عملية البناء فيه بسبب الحرب، ويستخدم قسم منه الآن كمستشفى والقسم الآخر مأوى للاجئين. ويجري في الوادي جدول غزير ونتبعه صاعدين... وكأنما نتجول في حديقة استوائية. تمتلئ الأرجاء بالناس ونتوقف للتحدث مع بعضهم؛ لاجئون قد بنوا أكواخا بسيطة هناك، نتبع الجدول مرتفعين إلى منبعه تحت الجبل ونغسل هناك وجهينا بالماء الصافي.

أسفل الفندق السياحي بقليل يقع مكتب حاكم المنطقة... هو أيضا قد ترك الحر على صخرة العمادية. لقد وضع طاولته للكتابة وعدة كراسي للزوار تحت سقيفة صيفية بجانب الجدول الرقراق. يدعى الحاكم أحمد شالي وهو قائد منطقة (دهوك)... يوجد حاكم آخر في (دهوك) تحميه القوات الحكومية ولكن شالي معين من قبل القيادة الثورية ويتلقى أوامره من (جومان) فقط. أسأله:

- كم يبلغ عدد السكان الذين يعيشون هنا في الغرب؟

- يبلغ العدد بحسب الإحصاء الأخير للسكان حوالي ثلاثمائة ألف نسمة، ولكن هذا لإحصاء اجري قبل 16 سنة... والعدد الآن هو أكثر بكثير، على ما أعتقد حوالي نصف مليون... وذلك في منطقة دهوك. مشكلتنا الكبيرة هي الطعام فليس لدينا ما يكفي للشتاء، وفصل الشتاء هنا قاسي جداً بثلجه الكثير حيث ننعزل كلياً... لا نستطيع الحصول على المساعدات. لقد وعدوا بتزويدنا بما نحتاجه من (جومان).

نحتاج أيضا مدافع للدفاع الجوي ومدفعية ثقيلة للجبهات، وقد وعدوا أن يرسلوا لنا هذه أيضا.

يستخدم الضمير ((هم))... وأتوقف متأملاً في ذلك. هو يعني قيادة الثورة في (جومان)، ولكن أن يستخدم الضمير ((هم)) وليس ((نحن)) يجعلني استغرب. حين نجلس هناك في الأعلى في رواق أرضي ونشرب الشاي والبيشمركه يحيطون بنا، أصور لنفسي باني افهم الوضع...

الحكومة في طريقها إلى قطع الصلة بين الشرق والغرب كلياً... الطريق الوحيدة هي الطريق التي سلكناه في رحلتنا إلى هنا. حركة المرور على هذه الطريق كانت قوية جداً ولكن فقط إلى (بله)... وبعدها فان النهر عائق مزعج، والنهر هو الذي يشكل الحدود الحقيقية بين الشرق والغرب.

وكل هذه المنطقة الشرقية معتمدة كلياً على صلة الوصل الهشة هذه مع لعالم الخارجي... كل شيء يجب أن يأتي على هذه الطريق وعبر هذا النهر، الحدود مع تركيا مغلقة وكذلك مع سورية، وفي الجنوب تمتد الجبهة.

يختلف الوضع في الشرق كلياً... الطريق إلى إيران مفتوحة ومن هناك يمكن للمرء التزود بالمؤن؛ الطعام والبنزين والذخيرة، ولكن كيف ستجري الأمور هنا في بهدينان حين يقبل الشتاء... كيف سيتدبر الناس أمورهم هناك؟

ربما يوضح ذلك سبب كف الحكومة عن قصف القرى في بهدينان وسبب عدم ضراوة المعارك على الجبهات هنا مثلما هي عليه في الشرق! تضع الحكومة في تقديرها إن المجاعة ستقوم بواجباتها

في الشتاء... هذا هو تكتيكها، ولذلك فان الوضع في منتهى الجدية، ولكن هل يرى القادة في الشرق جدية الأمر حقاً؟ حين تحدثت إلى الدكتور محمود لم يشير إلى شيء من ذلك.

لقد كنت من قبل وكما هو معروف في (بيافرا)... لقد رأيت كيف هزمت المجاعة (بيافرا) وحطمتها. أحاول جاهداً تجنب المقارنات، وأريد أن أنظر إلى كوردستان وهي بعيدة عن تأثير بيافرا، ولكن لا يمكن تجاهل حقيقة إن خبرات المرء السابقة تبقى حية. وأرى الآن إن الأمر واضح تماماً؛ الحكومة في طريقها إلى خلق حالة بيافرا جديدة هنا في بهدينان النائية. حين يقبل الشتاء ستـقبل المجاعة أيضا...

يجب أن ألتقي الدكتور محمود ثانية حين أعود إلى (جومان). أو أن التقي إدريس البارزاني.

ولماذا قال الحاكم ((هم))؟ لماذا قال ((لقد وعدوا بان يحاولوا حل المشكلة))؟ لماذا لم يقل ((سنحاول))؟

إن هذه الشرفة الأرضية لفي غاية الروعة والجمال، ومنها أرى بمواجهتي صخرة العمادية الرائعة الجمال ومنها أطل على الوادي الرائع بكل حدائقه وبساتينه. نشرب شاياً محلى في كؤوس صغيرة وينتقل صبي صغير بيننا وهو يقدم الماء لكل من يريد. يجلس البيشمركه على البسط من حولي وهم يضعون بندقياتهم وكلاشينكوفاتهم بجانبهم... معظمهم يلوذ بالصمت ويستمتعون بأرضهم الجميلة فحسب وكأنما يستمدون القوة من الجمال ليعودوا بعدها إلى الجبهات بعزم جديد.

يسألني رجل شاب يجلس على البساط بجانبي وبالإنكليزية عن موطني فأجيب عن سؤاله فيقول بأنه يعرف جيداً موقع السويد وهو سعيد لوجودي هنا.

يحكي لي بان العراقيين قتلوا أخاه الأكبر قبل أسبوعين ويوضح:

- كان يسكن في (الموصل) وكان اسمه فرج إسماعيل اللينكي وله من العمر 24 سنة. كان يملك سيارة وقد حاول مساعدة الثورة الكوردية من خلال شحن الطعام في سيارته إلى قوات البيشمركه، ولكن جندياً عربياً كشفه. لقد تم إعلامي بأنه قد اعتـقل وبعد بضعة أيام وصل الخبر بأنه قد اعدم. كان لديه ابنة لها سنتان من العمر وطفل حديث الولادة... زوجته والطفلان لا يزالون في (الموصل). ويقول بان اسمه هو إسماعيل إسماعيل وعمره 19 سنة وهو معلم في (العمادية)، ويضيف...

- كنا أربعة إخوان وكنت أصغرهم، وحين سمعت بان أخي كان معتـقلاً أردت أن اذهب إلى (الموصل) لأحرره ولكن لم يساعدني أحد. سأعتني بزوجته وسأتزوجها حين تنتهي الحرب وتتحرر كوردستان، فهي على كل حال ابنة عمي أيضا.

أساله إن كان يحبها فيجيب.

- لا، ليس الموضوع هو موضوع الحب عليك أن تعرف بأنها عادة عندنا، وهي عادة جيدة... سأتبعها. لقد أحببت أخي... انه من واجبي أن اعتني بزوجته وطفليه فعائلة أخي هي عائلتي أيضا وأولاده هم أولادي أيضا.

لست متزوجاً وسأتزوجها.

يريني صورة لأخيه ويخرج صوراً أخرى أعطاه إياها أخوه، ويقول:

- انظر هنا، انه أخي مع جنديين عربيين، وقد كانا صديقيه. كان أخي يملك أصدقاء فقط... الكل أحبه الكورد والعرب، والآن فقد قتله الفاشيون في بغداد.

لا أحد يبالـي بـنا

لقد وصى أحمد على بغلة من اجل السفر إلى (برواري بالا)، الوادي الذي يقع على الحدود التركية. سنعبر السلسلة الجبلية شمال (العمادية) حيث لا يوجد هناك أي طريق، إنما دروب الحمير فحسب.

تقف البغلة في الصباح خارجاً في الشارع، وصاحبها الفلاح يدعى صالح... أتواصل معه بصمت كما مع سائق اللاندروفر عبدالله، فنحن في الحقيقة لا نتكلم مع بعض وإنما يبتسم واحدنا للآخر ونصير صديقين إلى الأبد.

يضع صالح كل أمتعتنا- حقيبة الظهر وكيس النوم العائدان لي وحقيبة الظهر العائدة لأحمد- في أكياس خشنة يحملها على البغلة ونغادر سائرين على طول الشوارع، ولكننا نذهب أولا إلى البيطار فالبغلة بحاجة لنعلين جديدين لحافريها الأماميين وهناك تقف صابرة متحملة وهي تدع الرجل يدق النعلين بالمسامير... يبدو إنها تستمتع بذلك.

ننـزل- أنا وأحمد- إلى وادي البساتين ونسير في الدرب المخصص للمشاة فيه... يذهب صالح مع البغلة في طريق آخر. انه صباح مليء بالإثارة والطريق إلى (برواري بالا) يبدأ من عند النبع في الوادي الصغير هناك في الأعالي.

حين ننتهي من غسل وجوهنا من العرق ونروي عطشنا من ماء النبع يقبل صالح سيراً على الأقدام وهو يقود بغلته.

عندما القي نظرة إلى الأعلى نحو الجبل أراه غامراً في قوته وهيبته. أعاني صعوبة في تسلق الجبال وأعتـقد باني إنسان سهل لا إنسان جبل، وأحس بان حالتي بائسة... كل متر أتسلقه هو عذاب لي في هذا الارتفاع عن سطح البحر وبدون البغلة لن يمكنني القيام بذلك.

لا أستطيع أن أفهم كيف سيمكن للبغلة أن تتحمل، ومع ذلك فحين يوقفها صالح بجانب صخرة ويشير إلي بأن أركبها، أفعل ذلك دون تردد، ولا يصدر الحيوان أي رد فعل... يحل صالح الحبل الذي كان يقودها به وهذه المرة يسير وراءها، وبلفظة لا تكاد تسمع يجعلها تسير مهرولة وتبدأ التسلق صعوداً في ذلك الدرب الصخري.

خلال الأيام الأربعة التالية أتوصل إلى فهم صرامة البغلة وقوتها العظيمتين، بيد ان استغرابي منها لا ينتهي أبدا.

حيوان من هذا النوع هو انتصار الطبيعة المؤكد على التكنيك. لا يستطيع أي لاندروفر أو تراكتور ذي عجلات مسلسلة أو مدرعة أبدا أن يقطع هذه الدروب الجبلية والتي دائماً ما تسير البغال فيها مع أحمالها. خلال مئات السنين، وربما آلاف السنين تحول هذا الحيوان إلى ماكنة نقل كاملة موجهة كلياً لاجتياز الجبال... وهي ماكنة ذكية فلا أحد يمكنه الادعاء بان البغل يفتقد الذكاء.

بينما اجلس على الأحمال وساقاي تتدليان على عنق البغلة أستطيع دراسة آلية عملها. يسير صالح وراءها بصمت وهو يحمل بيده سوطاً، ولكنه لا يستعمله أبدا وإنما أحيانا يستحثها فقط حين تتردد ويتحدث إليها مشجعاً.

طول الوقت تتقدم البغلة في الدرب مستكشفة... تزن في رأسها كل ممر وتضع حافرها في مكان مختار بدقة وتتأكد ما إذا كان يوجد موطئ قدم لها على الصخور الزلقة أيضا. تختار دائماً الطريق الأنسب... دماغها يعمل بشكل محموم فلا تغيب الأرض عن نظرها أبدا. أحيانا تقف لحظة قصيرة لتختار ما بين ممرين ممكنين ولكنها في اختيارها لا تخطئ أبدا. لا تمر أبدا بين صخرتين كبيرتين إذا كان الممر ضيقاً بحيث أن أكياس الحمولة ستوقفها... في هذه الحالة تختار طريقاً آخر. تستطيع أن تسير قريباً جداً من منحدر جبلي دون خوف ولكنها لا تبالغ أبدا في القرب.

فترة التأخير في عمل دماغها لا يستغرق سوى لحظات جداً قصيرة... فهي تحفظ نظرها على مسافة متر تقريباً أمامها ولكن الأوامر لا تذهب إلى عضلات العين إلا في تلك الثانية التي تكون قد وصلت فيها إلى تلك الصخرة التي سجلها دماغها للتو بوصفها مناسبة لوضع حافرها عليها وبعدها الحافر التالي ثم التالي.

يوجد في كوردستان الحمير أيضا، نلتقي بقافلة منها وهي محملة برزم ضخمة من الأغصان الصغيرة وتهرول بعزم على طول الدرب... عندما نتلاقى تحيد بغلتي جانباً في الوقت المناسب وتتوقف كي تدع الحمير تمر. الحمير أيضا مستغرقة كلياً في عملها، والتقي عدة مرات حميراً بدون سائقين ولكني مقتنع تماماً بان المرء يستطيع أن يحمل حماراً حمله ويرسله في درب عبر أحد الممرات الجبلية... سيتوجه طوعاً إلى الهدف ويسلم حمله، ولذلك فيحتمل أن الناس قد عملوا بهذا النحو مع تلك الحمير التي نلتقيها على الدرب من غير سائقيها.

ولكن الحمير لا تستطيع حمل الأحمال الثقيلة، ومن جهة أخرى فالأحصنة تستطيع حمل الكثير ولكنها تلاقي صعوبات كبيرة في التقدم في ارض جبلية وعرة، ولذلك فان وسيلة النقل غير القابلة للمقارنة مطلقاً في هذه المناطق الجبلية هي البغال التي تجمع مابين قوة الحصان وعزم الحمير.

ستكون الحياة في كوردستان بدون بغال صعبة، فكل يوم _ وكل ليلة _ تقطع مئات القوافل من البغال الجبال وتصل مابين مختلف الوديان وتنقل الطعام والوقود والذخيرة إلى الجبهات.

استمع مرة مع مجموعة من البيشمركه إلى أحد تقارير الجبهة من الراديو ويتحدث التقرير عن معركة غنم فيها الكورد 20 كلاشينكوفاً وكمية كبيرة من الذخيرة ومدفعين خفيفين وبضعة أجهزة لاسلكي وتسع بغال ويستمع الرجال بذهن شارد إلى التقرير عن الكلاشينكوفات والذخيرة والمدفعين

وأجهزة اللاسلكي ولكن حين تذكر البغال تشرق وجوههم من الفرحة ويشيرون لبعضهم إشارات ذات مغزى.

الدرب من (سولاف) إلى الشمال عبر الجبل يعج بحركة مرور نشطة من القوافل، ويحكي أحمد بأن الإنكليز قد شقوه قبل سنوات عديدة... لقد كان عندهم في أعلى الجبل حامية عسكرية ولا يزال المرء يمكنه رؤية الخراب المتبقية منها. في هذا الوادي الصغير الشديد الانحدار بني نوع من الدرجات قد تآكلت حجارته من أثر حوافر البغال، ونخرج إلى سهل مرتفع في أعلى الوادي الصغير قد نمت فيه فقط وبشكل متناثر شجيرات ثمرها عليق أصفر-صالح للأكل- وأعشاب صفر. ثمة قطيع من الغنم يلوح من بعيد يتحرك نازلاً من أحد المنحدرات نحو بقعة من مرعى اخضر. لاتزال أمامنا مسافة لابأس بها لنصل القمة، ولكن كم هي رائعة هذه البلاد التي حتى في هذه المنطقة الجرداء واليابسة في جبالها ينبثق نبع آخر من الجبل تماماً في الوقت الذي يعاودنا فيه العطش. نتوقف هناك برهة... نلمح من بعيد جداً صخرة العمادية الرائعة.

حين نصل إلى الأعلى ويبدأ الدرب يميل إلى الانحدار أترجل عن البغلة... أنا قادر على السير هبوطاً. ندخل غابة أشجارها مليئة بالعقد ونصل نهراً صغيراً حول مجراه إلى قناة... نتبع القناة واكتشف فيما بعد كيف إن كل الأنهار الصغيرة والغدران التي لا ينقطع ماؤها أبدا في هذه الوديان يتم الاعتناء بها وتقاد عشرات الكليومترات على طول سفحي الجبل والتلال الأرضية لتمنح كل القرى وكل الحقول وكل بساتين الفواكه الماء... في كل مكان هذا الماء المتدفق العذب!.

نتوقف في أول قرية نصلها لنأكل من زوادتنا... نجلس أولا تحت شجرة بجانب قناة الماء ولكننا نندم فيما بعد ونتوجه إلى أحد المنازل حيث تدعونا امرأة إلى الجلوس في الظل تحت سقيفة صيفية وتقدم لنا الشاي وتعطينا اللبن من صحن كبير... اللبن مصنوعة من حليب الماعز.

نتابع تجوالنا عبر المنطقة- أركب أحيانا البغلة التي لا ينال التعب منها أبدا- ونبلغ وادياً غير مأهول يرعى فيه قطيع من البقر، ثم نأتي فوق مرتفع جبلي حيث الجبل يتكون من طبقات سميكة ملآى بالاوكار والكهوف وفوق سهل مرتفع جاف تماماً يقطعه أخدود نهير قد جف ماؤه، وبعدها وخلف المرتفع الجبلي التالي ينفتح أمام ناظري مشهد أرى انه غير قابل للوصف.

انه (برواري بالا).

خط أفق مقطوع بحدة... هناك في الأعلى تقوم الحدود التركية: انه هنا نهاية العالم، لا يستطيع أحد العبور إلى هناك في الأسفل: التلال الصفر التي تتناثر عليها أشجار يضرب خضارها إلى السوداء، ومن ثم الخضرة المفاجئة للوادي والتي تنتصب من خلالها أشجار الحور شبيهة بعلامات التعجب. منطقة توراتية... أفكر في نفسي بأنه هكذا تماماً ترسم الجنة الإلهية في السماء سواء في التوراة أو في القرآن، هكذا تبدو. إن الناس الذين حلموا بجنات كانوا من المؤكد شعباً صحراوياً كان عليه مرة أن يبتعد عن الجبال ليقيم في تلك السهول المجدبة وبعدها بقي يحلم بها دائماً.لقد عرفوا انه يوجد وراء تلك الجبال الشاهقة وادٍ كهذا الوادي وقد منوا أنفسهم دائماً بالعودة إلى هناك.

ننزل إلى الوادي والى الخضرة المنعشة والعميقة والى حيث الماء يجري مندفعا في الغدران، وثمة امرأة تملأ جرارها من نبع يتدفق بالماء، ويرحب أحد الرجال بقدومنا إلى (كاني ماسي)- وهو

اسم القرية- ويدلنا إلى الطريق المؤدية إلى بستانه، بستان من أشجار التفاح... تحمل محصولاً رائعاً وغنياً من تفاح كبير جداً قد نضج لتوه وبدأ يتساقط على الأرض، ويقول الرجل:

- نحن لا نستطيع بالطبع بيعه الآن وما علينا إلا أن نتركه على الأرض بتعفن.

لم يسبق لي أبدا أن شاهدت مثل هذا التفاح من قبل... انه أصفر فاتح مع بقع وردية، ويقول الرجل:

- تفضلوا!

أكل تفحاتين واضع في جيبي اثنين اخرين، ويرينا الرجل بقية مزروعاته... نذوق عنباً كبير الحب وذا لون اخضر زاه ويكاد أن يكون شفافاً، وبندورات حلوة المذاق وقانية الحمرة، وقثاء (خياراً) منعشاً، وبطيخاً احمر يرسل الرعشة في الجسد.

لقد واصل صالح المسير مع البغلة... نلتقيه بعد أن صعد مسافة لابأس بها في القرية. يسقي المرء هنا حقول الذرة والرز في أطراف الواحة بوساطة نظام أقنية بارع، ولكن خارج حدود الزرع الحادة تبدأ التربة الداكنة المجدبة.

يقبل علينا رجل من الدرب فيهتف أحمد:

-انه أبي!

انه مستعد لاستقبال والده هنا فقد عرف انه كان هنا في زيارة للأقارب في (برواري بالا). انهما يحضنان بعضهما ويقبلان بعضهما في الخدود... الوالد رجل عجوز ويرتدي ثياباً بسيطة سقطت أسنانه كلها، بيد انه لا حواجز بينه وبين ابنه وإنما شعور داخلي عميق فحسب.

لا يمكنني أبدا التواصل بشكل جيد مع احمد خلال الرحلة كلها بالرغم من أننا نقضي الوقت كله معاً، ومن المؤكد إن السبب يكمن في شخصياً بقدر ما يكمن فيه... لا نفهم بعضنا بشكل حقيقي أبدا. احمد يحاول كل جهده ليساعدني في فهم ما أراه ولكني ألاحظ العديد من المرات بان سنوات الدراسة في بغداد قد أبعدته قليلاً عن شعبه حتى وان لم يقر هو نفسه بذلك. هو لا يملك الجواب عن الأسئلة ولكنه يتردد في سؤال الآخرين.

هو حريص على ألا يعرض أبدا وبأي شكل من الأشكال معرفته متباهياً بها، مثله في ذلك مثل جميع الطلبة الشبان الكورد وأساتذة الجامعات والأطباء وغيرهم من المثقفين، والذين قد انضموا إلى الثورة. إن فكرة، أن تعليمه بأي شكل من الأشكال سيعلي من قدره لا يمكن أبدا أن تخطر في ذهنه.

لم يسبق لي أن عايشت مجتمعاً متحرراً إلى حد بعيد من الصراعات الطبقية مثل المجتمع الكوردي، ويمكن لأحمد أن يكون مثالاً على ذلك... لا يوجد أي حاجز بينه وبين صالح، الرجل صاحب البغلة، فهما صديقان ويحترم أحدهما الآخر لما هو عليه.

ولا وجود أيضا لأي صراع بين الأجيال.

في بلدان جنوبية أخرى حيث أفقرت ثقافتها الأصلية بسبب التأثير الغربي يمكن للمرء أن يلتقي شباناً يؤمنون بان التعليم هو كل شيء ويسارعون إلى نسيان أصلهم ويتصرفون كالغرباء حين يعودون إلى قراهم ويزدرون أقربائهم الجاهلين. يوجد بالتأكيد في السويد أيضا ما يقابل هذه العقلية، ولكني لا ألاحظ أي شيء من ذلك في كوردستان... وبالعكس فمثل هذا الموقف يظهر مستبعداً تماماً.

يملك المرء هنا الاعتزاز، بيد أن الاعتزاز مبني على إدراك إن المرء لم يقم أبدا بما يخزي، لم يتجاوز أبدا القوانين غير المكتوبة، لم يخن أبدا شعبه، لم ينكر أبدا اصله. لا يأتي الاعتزاز من الأملاك أو المكانة الاجتماعية أو التعليم وإنما يأتي من كون المرء كوردياً بين الكورد، إنسانا بين البشر.

ربما يمكن سبب عدم انفتاحنا- أنا وأحمد- أبدا على بعضنا خلال الرحلة كلها وعدم اقترابنا أبدا بشكل حقيقي من بعضنا... يكمن كل ذلك في مشاق الرحلة من جهة ومن جهة أخرى في قلق أحمد الشخصي أيضا- لأننا إلى حد ما نتجول في مناطق هي مجهولة له أيضا- وفي فضولي المربك. أنسى، في كفاحي من اجل تسجيل اكثر ما يمكن تسجيله وتذكر اكثر ما يمكن تذكره، أن اهتم بأحمد شخصياً.

ولكنه الآن حين يلتقي أباه خارج القرية في (برواري بالا) بشكل غير متوقع تماماً، افهم بان الاحترام الذي يظهر لوالده ليس شيئاً تم تلقينه إياه، احتراماً مصطنعاً وإنما هو فقط تعبير عن الأواصر التي تشد الأجيال بعضها إلى بعض في كوردستان، هناك حيث لم ينس المرء انه قد وجد من خلال أجداده، والاحظ إن الوالد يكن لأبنه الاحترام نفسه، فالميراث سيتواصل من خلاله.

يصاحبنا والد أحمد ويركب البغلة عندما نغادر (كاني ماسي) في خطوة أخيرة إلى قرية (بيدوه) حيث سنبيت الليل عند أحد أعمام أحمد. نتبع طول الوقت النهر الصغير... شاطئاه فقط غنيان بالأشجار الخضر وما تبقى من الوادي هنا تقريباً أرض مجدبة، فالأعشاب الجافة وأشجار السنديان الكثيرة العقد لا تصلح إلا علفاً للغنم والماعز.

(بيدوه) قرية كبيرة جداً مقسمة إلى ثلاثة أقسام. نذهب مباشرة إلى المنزل الذي يسكن فيه عم أحمد ويقيم فيه الآن والده أيضا. ويقول أحمد عن هذا المنزل:

- انه بيت بسيط جداً وقديم جداً. أقاربي ليسوا أغنياء واعتقد إن رؤية بساطة العيش في كوردستان يمكن أن تكون ذات أهمية لك.

المنزل الكوردي يبنى وفق طرق قديمة جداً، إما من حجارة طبيعية أو من طوب مجفف في الشمس. يخلط المرء الطين البني اللون مع القش كي يصبح الطين متماسكاً على نحو أفضل، ثم يضعه في قوالب ليتكون منه طوباً كبيراً إلى حد ما ثم يترك ليجف في الشمس. البيوت الطينية هي الأكثر انتشاراً ولكن البيوت الحجرية تعتبر أفضل.

تبنى الجدران وترفع بوضع طين ممزوج بالقش يستخدم أيضا في اكساء الجدران الخارجية والداخلية. السقف مسطح تماماً ويبني من أعمده طويلة بيضاء من خشب الحور، الحور تغطي اولاً بأغصان الشجر والقش، ويوضع فوق هذه الطبقة من القش طبقة سميكة من التراب وفوق الكل طبقة من الطين.

إن شرط تماسك سقف مبني على هذا النحو بمواجهة المطر هو أن يكون التراب والطين قد دكا دكا جيداً، ولذلك يستطيع المرء أن يرى محادل يدوية على اغلب الأسطح... تستخدم حين تمطر. في فترة الشتاء يجب على الناس حفظ الأسطح من الثلج كي لا يثقل عليها كثيراً.

تتطابق البيوت الطينية كثيراً مع أرض بحيث يصعب أحيانا اكتشافها. إن ما يميز القرية الكوردية هو الأسقف المسطحة... غالباً ما يستخدم السطح مكان عمل للنساء، فيقمن بنشر العنب والتين عليه لتجفيفهما في الشمس، ويمكن للمرء أيضا رؤية صواني كبيرة حمراء من عصير البندورة الذي يترك في الشمس إلى أن يصبح دبس بندورة.

حين يسافر المرء عبر الريف يمر أحيانا بين قرى صغيرة تقع بيوتها في أسفل الطريق وتقع الأسطح في مستوى واحد مع الطريق، وما يرى وكأنه موقف للسيارات بجانب الطريق إنما هو الحقيقة سطح أحد البيوت... ولكن يمكن لأحد الغرباء بسهولة أن ينخدع والنتائج ستكون وخيمة.

بحسب قواعد البناء المتعارف عليها، يبني المرء اولاً الجدران ويترك منافذ للأبواب والنوافذ ليثبت فيما بعد أطرها، بيد أني شاهدت في (جومان) كيف انهم قد عقلنوا عملية البناء... يثبتون اولاً أطر الأبواب والنوافذ ويدعمونها بالقضبان ومن ثم يبنون الحائط حولها. إنها طريقة من المفروض أن تكون أسرع وافضل... هذا مثال على كيفية إن المتعلمين الشبان يذللون المصاعب بعد انضمامهم إلى الثورة. لقد جددوا فن البناء التقليدي بطريقة سهلة جداً.

يجد المرء في كل المنازل الكوردية فتحة المدخنة في السطح. يضع الناس في الشتاء مدفأة في وسط الغرفة مع أنبوب (بوري) من الصفائح المعدنية المرنة يخرج من خلال الفتحة إلى السطح... يجلسون حول النار ويتدفئون، فلا يوجد الكثير من العمل في الشتاء وقد استعدوا له وهم الآن ينتظرون الربيع فحسب، هذا وان الكثير من الوديان النائية في كوردستان خلال اشهر الشتاء معزولة كلياً.

منزل عم أحمد مبني من الحجارة ويتألف من غرفتين فقط، توجد في كبراهما فتحة صغيرة هي بمثابة نافذة، ولا وجود للمفروشات. الحشايا واللحف موضوعة في إحدى الزوايا... لقد فرشوا على طول الجدران فرشاً للجلوس عليها. إلى الداخل من هذه الغرفة الكبيرة توجد أخرى صغيرة تفتقد إلى النوافذ... يحفظ فيها أواني وأدوات المطبخ وفيها أيضا ينام الآن النساء، فهذا هو دأبهن حين يحل الضيوف في الدار. وطهي الطعام يجري خارجاً في فناء الدار.

عند الغروب ندخل الدار ونجلس هناك على الفرش ويقدم لنا الطعام على سفرة كبيرة من الألمنيوم... يتألف الطعام من اللبن والرز والمرق والخبز والشاي المحلي... لا وجود للحم فيه.

انهم يجلسون هناك ويتحدثون، ويدخل الغرفة عدة رجال ويجلسون. انهم يدخنون سجائر يلفونها من التبغ الكوردي الأصفر، وثمة مصباح كاز (كيروسين) معلق في الحائط ولا نعود نرى النسوة فهن يغسلن الصحون خارجاً في الفناء المعتم يقول أحمد:

- نتحدث عن الوضع في الحرب وهم يتساءلون عما سيحدث لاحقاً ويأملون بوقف لإطلاق النار، وهم لا يملكون ما يكفي من الطعام للشتاء، وهذه هي مشكلتهم الكبيرة.

انهم يستمعون إلى إذاعة كوردستان... لقد كانت معارك طاحنة على كل الجبهات، واليوم هو عيد ميلاد الثورة وقد أهدى الجنرال البارزاني إلى الشعب رسالة خاصة. لقد قال: ((لن نتوقف عن الكفاح قبل أن نحصل على الحكم الذاتي ومهما يكن فان يوم النصر لقريب)).

لا أحد من الرجال في الغرفة معه بندقية أو كلاشينكوف... لماذا هم ليسوا بيشمركه؟ يجيب أحمد عن تساؤلي:

-اكثر من 70 رجل في هذه القرية هم بيشمركه. يوجد على الجبهة من كل عائلة أحد أفرادها والقاعدة هي انه يجب أن يبقى دائماً رجل في البيت ... يجب أن يكون هناك من يعتني بالحقل فلا يستطيع الكل الخروج إلى الحرب، ولو احتاج الأمر فان هؤلاء الرجال أيضا مستعدون لأن يصبحوا بيشمركه،وليس عندهم بالتأكيد أمنية أغلى من ذلك.

ومهما يكن من أمر فالحرب تترك بصماتها واضحة على أفكارهم أيضا في هذا الوادي النائي، وهم يتحدثون عن الوضع على الجبهات ويحاولون استخلاص النتائج، وهم يتكلمون عن المستقبل... عن أن السكر والشاي قد نفدا أو كادا، وان الأسعار قد ارتفعت.

وأخيرا يذهب الضيوف مودعين ويختفون في عمق الليل. أحصل على مخدة ودثاراً (بطانية) وسرعان ما اذهب في النوم على الفراش الوثير ويطفئ أحدهم مصباح الكيروسين.

في الصباح وحين اخرج إلى الفناء يكون صالح قد جهز البغلة مع حمولتها والنسوة قد استغرقن في العمل. ثمة فتاة شابة تهم باستخلاص الزبدة من الحليب... لقد ملأت قربة في جلد الماعز معلقة بسقف العوارض خارج الدار باللبن وقد شدت القربة إلى العارضة بثلاثة حبال بحيث تكون معلقة كأرجوحة، وتدفع بها اماماً وخلفاً في إيقاع ثابت، ويسمع المرء خض اللبن، يبدو، ويجب أن تكون العملية فعالة في استخلاص الزبدة.

قبل أن نغادر يخوض أحمد مع عمه نقاشاً طويلاً وافهم انه يريد أن يدفع نقوداً لقاء الطعام والمنام ولكن العم يرفض بعناد أن يأخذ أية نقود، ويبدو أحمد بسبب ذلك متأثراً ومنفعلاً قليلاً ويقول لي:

- انهم في حاجة إلى النقود. انهم بحاجة إلى شراء المؤونة للشتاء ومع ذلك فانهم يرفضون أخذها!

نسير عبر أزقة القرية الضيقة ومن فوق جسر مرتفع من الخشب. ترتفع في أرجاء القرية أشجار الجوز وعلى جانبي الدرب قد نمت أشجار التوت ولكننا حين نصعد أعلى فأعلى تصبح المنطقة فقيرة بالنبات، وعندما نعبر بستان خضار تنمو فيه البطاطا والقثاء والبطيخ، وبستان تفاح غرست أشجاره حديثاً تنتهي القرية ونتابع سيرنا في سهل مرتفع خال من العمران يرعى فيه الغنم والماعز في قطعان كبيرة ونستطيع أن نرى القطعان تتحرك على سفوح الجبال من حولنا ويرعى كلاً منها راع وحيد مع كلاب ضخمة وفظة.

عند الظهيرة نصل وادياً جديداً وقرية جديدة... اسمها (هدينه) ولا تشبه أي قرية من القرى التي مررنا بها. وما كنا نفكر بالتوقف فيها ولكننا حين نأتي مكاناً واسعاً ومكشوفاً تظله أشجار جوز ضخمة وخضراء نقرر البقاء ونأكل الغذاء في شرفة أحد المنازل. تكون أعالي أشجار الجوز سقفاً

يغطي كل القرية ويمنحها الظل والبرودة. يروننني قنبلتين ضخمتين أسقطتهما الطائرات، وقد عرضتا مثل نصب... يحكون لي بأنهما تعودان إلى عام 1966 حين قصفت طائرات الحكومة القرية، ولكن القنبلتين لم تتفجرا وقد تم عزلهما فيما بعد.

نصادف دون انقطاع في سيرنا نزولاً في الوادي مشاهد جمال جديدة وغير قابلة للوصف، فعلى جانبي الدرب تحمل أشجار التين والتفاح ثماراً ناضجة ويجري الماء في الجداول والغدران ويتجمع ثم يصب في اسفل مرسى في الوادي مكوناً شلالاً هادراً ومتألقاً. أقف هناك طويلاً يأخذني الإعجاب بهذه الطبيعة الآسرة والرائعة الجمال وادع أحمد وصالح يواصلان السير مع البغلة ولكنهما ينتظرانني تحت إحدى أشجار الجوز.

بعد مسافة بعيدة في اسفل الوادي يكبح النهر الصغير والغزير بحاجز صخري ويتابع اغلب مائه متساقطاً في شلالات المنحدر ولكنهم قد حولوا ماتبقى منه إلى قناة ضيقة قد شقت مباشرة في سفح الجبل. يواصل صالح والبغلة سيرهما في الدرب الكبير والذي يتبع النهر الصغير، بينما نسير أنا وأحمد على طول القناة ونصل بعد قليل قرية صغيرة على المنحدر ونتوقف عند أحد البيوت حيث يجلس رجل وراء ماكنة خياطة ويخط بزات (بدلات) البيشمركه... يظهر. أن أحمد يعرف الرجل، وسرعان ما يقبل العديد من الرجال وبضع نساء ليسمعوا ما يقوله أحمد عن الحرب وعن الوضع في (جومان). يذهبون ويأتون بتينات خضراء كبيرة من الحديقة وبعنب اخضر حباته في حجم الخوخ وبتفاحات كبيرة الحجم جداً. عندما اقطع شريحة من تفاحة يرفع اسمن دود تفاح سبق لي أن رأيته برأسه ثم يسقط على الأرض حيث تنتظره دجاجة وتنقره فيزحف مسرعاً قدر استطاعته ولكن ماهي إلا لحظة حتى تراه الدجاجة من جديد وتبلعه في لقمة واحدة.

لا ادري لماذا أتذكر التفاحة الكبيرة والدود والدجاجة... ربما كان ذلك بسبب الحجم فقد كانت اكبر تفاحة سبق لي أن أكلتها وكان اسمن واثخن دود تفاح سبق لي أن رأيته، وبينما كان أحمد وأصدقاؤه يتحدثون بلغة ما كنت افهمها استمتعت بمشاهدة محاولة الدود عبثاً في الهرب زحفاً من الدجاجة الناقرة وسعدت- حين حصلت الدجاجة أيضا على وجبة طعام دسمة- لأن الدود انتهى إلى معدة الدجاجة بدلاً من معدتي.

لم يسبق لي أبدا أن أكلت هذا القدر من الفواكه مثلما في تجوالي في تلك الوديان الكوردية ولم يسبق لي أبدا أن رأيت تفحاً وتيناً وعنباً وبطيخاً بمثل هذا الحجم وهذه النوعية.

نتيه هناك في اسفل الوادي فالدرب ينتهي فجأة بين حقول الرز الزاهية الخضرة وحقول الذرة الداكنة الخضرة... لم يسبق لأحمد وصالح كليهما أن سافرا في هذا الطريق من قبل ولكنهما يسألان بعض الرجال الذين يعملون في أحد الحقول عن الطريق، وبعد أن نسير عبر منطقة قاحلة ملآى بتلال داكنة الحمرة- كما لو كنا في فوهة بركان- نصل إلى القرية التالية والتي قد بنيت إلى لوح صخري عظيم ولا يبقى أمامنا إلى قرية (بازي) التي سنبيت فيها سوى القليل.

نضطجع هناك ثانية على فراش ناعم في غرفة كبيرة ويقدم إلي كأس من الماء واكتشف بان من عاداتهم أن يتم الترحيب بالضيف بتقديم كأس من الماء إليه... ماء بارد وعذب ويتلألأ كالكريستال لا اعرف شراباً أعذب منه...

ارفع الكأس أولا واشربها بعيني... ثم اترك الماء يجري إلى حلقي في جرعات كبيرة ويملأ كل جسدي بالانتعاش.

ينتشر خبر وصولنا بسرعة ويدخل رجال القرية الغرفة ويجلسون. يطلب أحدهم- اسمه محمد أحمد وفي الخامسة والثلاثين من العمر- من أحمد يبلغني بأنهم ممتنون لأني قد جئت لأكتب عن كوردستان، وأسأله بدوري:

- وماذا تريدني أن اكتب؟

- ستحكي قبل كل شيء بأنه ليس لدينا ما يكفي من الطعام، وبأننا معزولون كلياً ولا نملك قوتاً للشتاء... إننا قلقون جداً لذلك. وكذلك نريدك أن توصل استغرابنا من عدم اهتمام الأمم المتحدة بالشعب الكوردي. بالرغم من أننا عانينا طويلاً فلا أحد يهتم بنا ونحن لا نستطيع أن نفهم سبب ذلك.

أسأله عن الثورة... ماذا تعني الثورة بالنسبة لهذه القرية وعلى أي نحو تغيرت الحياة فيها؟ فيقول:

-الثورة تعني، إننا استرددنا قيمتنا الإنسانية. فيما مضى كان يملك رجال أغنياء عاشوا في المدينة كل الأرض في هذه القرية وكل القرى الأخرى هنا في الوادي. كنا نستأجر الأرض، وكنا عمالاً مأجورين... بإمكان مالك الأرض في أي وقت شاء أن يرغمنا على العمل من اجله. لقد كنا- نحن الكورد- نعتبر طبقة أدنى، ولكننا بعد الثورة طردنا مالكي الأرض وحرقنا بيوتهم، والآن فنحن نملك الأرض التي نزرعها بأنفسنا ولا يزال مالكو الأرض في المدينة وهم يتعاونون مع الحكومة ويريدون أن يحطموا ثورتنا ويستعيدوا الأرض، ولكننا لن نسمح لهم أبدا أن يفعلوا ذلك.

أسأله عن الجنرال بارزاني فيجيب: برأيي إن الجنرال بارزاني رجل عظيم جداً. لقد حارب دائماً من اجل الشعب الكوردي... طوال حياته وهو يحارب.

يهز الآخرون برؤوسهم موافقين ويرون أن محمداً قد أجاد التعبير، وقد بذل أحمد قصارى جهده ليترجم ولا املك أي سبب في الشك بصحة ترجمته. انهم مدركون لقضية الصراع وعما يدور حول الصراع... حتى في هذه القرية النائية هم يدركون ذلك، وقد انتشر هذا الوحي في كوردستان كلها من خلال الراديو. قبل أن نذهب لننام نستمع إلى أخبار المساء من إذاعة كوردستان والبث يسمع جيداً بالرغم من محاولات التشويش العراقية.

((تفيد برقية من اللجنة المحلية لحزبنا في (رانيا) بان قوة ضخمة للعدو قد هاجمت بيشمركتنا في قرى (بردانكة) و(بيربي) بالقرب من مدينة (رانيا) وقد رد عليها بيشمركتنا وأرغموها على التراجع، هذا وقد قتل سبعة وجرح اثنان من الجنود المرتزقة، وفي إجراء انتقامي اعتقل العدو ثمانية من القرويين في المنطقة.

بحسب بلاغ صادر عن فرقتنا في (شيخان) فان المعارك الطاحنة بين بيشمركتنا وبين قوة كبيرة للعدو بالقرب من قرية (مريبة) لاتزال مستمرة، هذا وقد تكبد العدو خسائر فادحة...

ونقلاً عن قواتنا في منطقة (دهوك) فقد قصفت مدفعيتنا يوم أمس حامية العدو المتمركزة بالقرب من مدينة (دهوك). وعلاوة على ذلك فقد نقلت معلومات عن أن الحكومة قد أعدمت قبل أسبوع 32 موطناً كوردياً في مدينة (الموصل). تفيد برقية من فرقة زاخو بان لغماً ارضياً قد انفجر بسيارة شاحنة للعدو كانت ملآى بالجنود بالقرب من مدينة (زاخو)...

يذكر تقرير من الكتيبة السادسة في (خانقين) إن قوة البيشمركه قد هاجمت قافلة للعدو بين قريتي (عيسايي) و(علي خان)، ويذكر التقرير أيضا إن مدفعية الكتيبة المضادة للطائرات قد أصابت طائرة عراقية كانت تطير على ارتفاع منخفض فوق نهر (سيروان)...

يجري في اسفل القرية تماماً نهر صغير وهناك تقوم طاحونة ماء قديمة جداً، تحصل على الماء من قناة اغتسل بمائها البارد في الصباح ونغادر بعد أن نتناول الفطور سوف نتسلق الآن جبل (متينا) الذي هو جبل شاهق الارتفاع... بالرغم من أنني أشفق على البغلة إلا أنه علي أن امتطيها بعد قليل وآلا فإني سأتخلف بلا رحمة عن الركب ويتوجب أن أتوقف باستمرار للاستراحة واسترداد أنفاسي. ومن جديد يأخذني الإعجاب بقوة البغلة العظيمة التي تلقف بين الحين والآخر عشباً يابساً أو أغصانا شوكية صغيرة... وفي الوقت نفسه الذي تصعد فيه الدرب بعناد يروح فكاها يمضغان ما تلقفته من الدرب.

نسعى جاهدين لصعود الجبل في ذلك الدرب المتعرج لعدة ساعات... أحيانا أترجل عن البغلة وأحاول الارتقاء بنفسي ونتوقف عدة مرات للاستراحة. أحيانا نتقدم صعداً في ارض تتكون من كتل صخرية كبيرة وأحيانا أخرى فوق تلال مغطاة بالشجيرات ومن خلفنا تنكشف المناظر اكثر فاكثر... في النهاية نلمح من بعيد جداً السلاسل الجبلية وهي تختفي في ضباب رقيق.

نبلغ غابة من نباتات البهشية (الايلكس) يعمل فيها فتيان وفتاتان معاً في جمع العلف للغنم... انهم يشبهون أغنية شعبية؛ يعتلي الفتيان الشجيرات ويقطعون الأغصان والتي تجمعهما الفتاتان في كومات مرتبة. يمكن للمرء أن يرى هذه الغابات في كل مكان وقد احتطبت بهذا الشكل. حين يقبل الشتاء تكون الأغصان قد يبست... يلوك الغنم الأوراق القاسية وما تبقى يستخدم وقوداً.

نلتقي بقافلة من البغال وبعدها نكون وعلى نحو مفاجئ على ظهر الجبل.

يمتد هناك عميقاً في الأسفل واد جديد.

إلى أن ننتصر أو نفنى

قبل عام 1970 كان جبل (متينا) يشكل الحد الفاصل بين منطقة البيشمركه والمنطقة التي تسيطر عليها الحكومة، فخلال حرب 1965-1966 كانت قوات الحكومة قد هاجمت من (دهوك) واقتحمت هذا الوادي الكبير كله واحتلته، وحينها كانت (العمادية) أيضا تحت سيطرة الحكومة مثلها في ذلك القرية الكبيرة (بامرني) والتي أراها تمتد عميقاً أسفل الجبل. يحكي أحمد:

-كنت اسكن وقتها في (بامرني) لقد أحرقت القرية كلها باستثناء المسجد خلال المعارك وفر السكان عبر الجبل ملتجئين إلى (برواري بالا) وكان باستطاعة الحكومة الوصول إلى هذا الجبل بدباباتها، ولكن الطريق انتهى هنا وقوات البيشمركه لم تدعهم يمرون فيما بعد.

يهبط صالح مع البغلة قبلنا المنحدر الحاد والصخري وينتظرني أحمد، فالتسلق يستغرق وقتاً طويلاً بالنسبة لي لأني دائماً أرغب في التوقف ومشاهدة تلك المناظر الخلابة. نأتي نبعاً من ينابيع الجنة، هناك حيث تجلس امرأة مع أولادها في كوخ- ويرعى الغنم والماعز في تلك الأنحاء- ونسير فيما بعد أطراف القرية ويأخذني أحمد إلى إحدى الخرائب ويقول:

-كنا- أنا وعائلتي- نسكن هنا ولكن الحكومة أحرقت بيتنا ولم تجر أبدا إعادة بنائه، فنحن لم نرجع أبدا إلى القرية.

في (بامرني) نجلس برهة من الزمن في بستان ونشرب الشاي على النهر الصغير بين أفراد من البيشمركه قد جاءوا إلى ديارهم في إجازة. النسوة يغسلن الثياب. لدى أحمد أقارب هنا أيضا... نقوم بزيارتهم ويقدم لنا الطعام، ويجري الحديث مرة أخرى عن الحرب والحصار.

يجلس واحد من الرجال وقد حمل ابنه الصغير في حضنه واسند بندقيته الكلاشينكوف إلى الحائط وهو قادم لتوه من الجبهة. يطلب من أحمد أن يترجم ما يقوله وهو موجه إلي:

- لماذا لا يبالي أحد بكفاح الكورد؟ لماذا لا يصغي أحد إلينا؟ نحن وحيدون، ولا نملك أصدقاء سوى جبالنا.

إلى أين سنتوجه إن لم يسمح لنا بالعيش بحرية في جبالنا؟.. ليس في مقدورنا العيش في أي مكان آخر ومهما يكن من أمر فإننا سنواصل الكفاح مفضلين الفقر على الظلم.

تقتضي خطتنا الآن أن نقوم بزيارة لأسعد قائد الجيش الكوردي الأول واستحصال إذن منه لمواصلة السير إلى الجبهة بالقرب من (دهوك). يقع مقر قيادة الجيش في قرية صغيرة تقع غرب (بامرني)... ثمة طريق وعرة تؤدي إليها، ونغادر نحن الأربعة؛ أنا وأحمد وصالح والبغلة. حين نقترب من القرية التي تقع محشورة في صدع عريض بمواجهة الجرف الصخري نلمح أفراد الحرس على الجبل ويدلنا أحد أفراد البيشمركه على الطريق صعداً إلى مقر القيادة العسكرية... انه مجرد افريز مستو في الصدع ومسقف بأغصان الشجر. هناك يجلس البيشمركه على كراس في نصف دائرة... يلبس الكل الزي نفسه ويضعون اسلحتم بجانبهم ولكني أتعرف مباشرة على القائد اسعد من بينهم وأتقدم إليه.

لا يوجد في جيش البيشمركه أية ألقاب للضباط ولا شارات المراتب العسكرية، لا شيء من ذلك. وليس هناك أي تدريب عسكري ولا خدمة عسكرية إلزامية ولا مشية عسكرية مميزة ولا تحية عسكرية.

ومع ذلك فإني حين أجد نفسي تحت ذلك السقف من اغصان الشجر لا اشك لحظة في من هو القائد اسعد من بين حلقة المحاربين الغارقين في الصمت؟ يرحب بي ويشير إلي بان اجلس على الكرسي الخالي على يساره ويطلب منهم أن يقدموا الشاي. اجلس مستغرقاً في هدوء عميق ورضى

لا يوصف. ينضم بين الحين والآخر رجال جدد إلى الحلقة... يحيون ويجلسون. يتحدث الجالسون بصوت خافت.

يقول اسعد بأنه سعيد للزيارة ويؤكد انه بإمكاني بالطبع زيارة الجبهة.

يأتي واحد من البيشمركه ببرقية مكتوبة بخط اليد ويعطيها لأسعد الذي بدوره يدفعها إلى الرجل الجالس على يمينه والذي يجب أن يكون معاونه، ويطلب منه أن يقرأها بصوت عال. يترجم أحمد لي:

-إنها برقية من (الموصل) وتتحدث عن انه قد شوهدت شعارات مكتوبة على جدران المنازل فيها ومن بعض ما جاء فيها: ((كل شيء غال جداً في العراق، البلد الغني بالنفط)) ((والبعثيون يقتلون النساء والأطفال والشيوخ)) لقد افرغوا مستشفى الموصل من جميع المرضى ووضعوا فيها بدلاً منهم الجنود الجرحى، وقد جرت تظاهرات خارج المستشفى ولكنها قمعت بالعنف.

اطلب من اسعد أن يصف الوضع على الجبهة فيقول:

-إن الوضع في صالحنا إلى حد بعيد فنحن نسيطر تماماً على جبهتنا وقوات الحكومة في (دهوك) لا تستطيع مغادرة الحامية، وهم منصرفون إلى إرهاب المدنيين.

أسأله عن عدد الرجال الذين فقدهم إلى الآن في الحرب فيجيب:

-لم يقتل اكثر من 30 من البيشمركه ولكن اكثر من 100 شخص من المدنيين. لقد خسرت قوات الحكومة اكثر من 1000 جندي من القتلى واكثر من 500 من الجرحى. لا نلقي أي مصاعب في رد هجماتهم التي يتكبدون فيها خسائر فادحة. إذا شنوا هجوماً كبيراً بالدبابات والطائرات فسنواجه مصاعب في إيقافهم، ولكنهم إذا اخترقوا خطوطنا في مكان ما فسينتهي بهم المطاف حالاً إلى موقع ضعف من جديد... سنقطع خطوط اتصالاتهم بسهولة ونبيد قواتهم الأمامية. تقوم قواتنا بعمليات خلف خطوط الجبهة بمسافة بعيدة ونسيطر على كل الجبال... قواتهم محجوزة في المدن والحاميات.

-لقد حارب اسعد مع البارزاني منذ عام 1943 وكان معه في روسيا... عاد إلى العراق عام 1958 واشترك في المعارك الأولى عام 1961. أطلب منه أن يقارن بين ذلك الوقت وبين الفترة الراهنة فيقول:

-ثمة فرق كبير، فحينها لم نكن اكثر من 1000 بيشمركه والآن فقد ازداد عددنا بأكثر من عشر مرات. وقتها كنا نملك في الحرب أسلحة بسيطة فقط، والآن تملك الحكومة احدث الأسلحة التي يمكن لروسيا أن تزودهم بها، وإنها لحرب اشد ضراوة الآن. وعلى كل حال فثمة فارق آخر أيضا؛ الآن يدرك كل الشعب الكوردي طبيعة ومضمون وأهداف الكفاح، ويعي بأنه ليس لنا من خيار سوى أن نقاتل. بيشمركتنا لا يقهرون وهم أفضل الجنود في العالم. نحن نستخدم جزءاً واحداً فقط من قواتنا الإجمالية فإني لو احتجت تعزيزات على الجبهة سيكون بإمكاني خلال عدة أيام فحسب أن أجهز أكثر من ألفين من البيشمركه... رجال، كل ما يتمنونه هو أن يذهبوا إلى الجبهة ليقاتلوا.

أسأله كم يمكن للحرب أن تستمر باعتقاده فيجيب: إلى أن ننتصر، أو أن نفنى كلنا، لدينا خياران فقط كوردستان أو الموت؟

- ماذا حدث اليوم على الجبهة؟

- لقد قصفنا مواقعهم بالمدفعية، انفجرت بضعة الغام أرضية بين (دهوك) و(الموصل) ودمرت لهم عدة شاحنات عسكرية، شنت مجموعة من بيشمركتنا غارة على مخفر أمامي لقوات العدو بالقرب من (زاخو).

يدعونا اسعد إلى العشاء بعد ساعة وننزل لنتجول في القرية قبل أن يخيم الظلام. إنها قرية صغيرة، بيد أن بيوتها متلاصقة بعضها إلى بعض ويعيش فيها الكثير من السكان. ونلقي نظرة على محطة الإذاعة والتي تقع في أحد الكهوف. يمتلئ المكان الذي يقع بعد سفح الجبل وبعيداً في الأعلى بكهوف طبيعية كانت كلها في زمن ما مأهولة بالناس. يحكي أحمد:

-قبل حوالي شهر كانت الطائرات تشن يومياً غارات في هذه المنطقة، وقد انتقل الناس آنذاك صاعدين إلى الكهوف، ولكن الغارات الجوية الآن قد انقطعت تقريباً... نحن لا نعرف السبب. لقد رجع اغلب الناس إلى بيوتهم في القرية.

لا يزال بعض النسوة والأطفال يعيشون في أحد الكهوف وقد رتبوا المكان هناك بشكل رائع جداً. الكهف واسع جداً وقد بنوا خارجها سقفية صيفية.

نأكل العشاء مع اسعد ويقدمون أطيب البندورات... كانت هذه المنطقة قبل الحرب مشهورة ببندورتها وكانت مئات الشاحنات المحملة بالبندورة تذهب كل يوم إلى بغداد، وكان سعر الكيلو غرام الواحد منها آنذاك 30 فلساً والآن فهو أكثر من 200 فلس في بغداد بينما لدينا هنا في كوردستان فائض من البندورة.،/P>

نغادر القرية حين تبدأ العتمة تصبح كثيفة وأودع أولاً صالح الذي سيرجع مع بغلته إلى (برواري بالا). سوف نستقل شاحنة إلى الجبهة وما نكاد نقطع مسافة قصيرة من ذلك الطريق المتعرج المحاذي للجبل حتى ينطفئ ضوء السيارة التي يبدأ السائق الشاب يقودها خبط عشواء إلى أن ينجح في إيقافها. لم يكن إصلاح دائرة السيارة الكهربائية هناك ممكناً... كان محرك التشغيل أيضا معطلاً والشاحنة تسد الطريق تماماً. تأتي سيارة لاندروفر فيها أفراد من البيشمركه في أثرنا وينجحون بعد جهد جهيد في دفع الشاحنة وتشغيلها ثانية... تكون مهمتي هي حمل كل الكلاشينكوفات والبنادق بينما يجري العمل على قدم وساق في دفع السيارة.،/P>

اعير سائق الشاحنة الشاب مصباح الجيب ويحاول هو بمساعدته استكشاف الطريق المتعرج ولكن لسوء حظنا فان البطاريات شبه ميته ومخروط الضوء يضعف كثيراً... علينا أن نتوقف ثانية. لقد نبذت من رأسي فكرة الوصول إلى الجبهة في تلك الليلة، ولكن فجأة تظهر سيارة أخرى... إنها- كما أخبرت- سيارة اسعد الخاصة، وهي تويوتا لاندكروز شبه جديدة نركبها وتنطلق بنا بأقصى سرعة على طريق الأسفلت ونتجه جنوباً، وبعد ساعتين يطفئ السائق الضوء، وبالرغم من أن القمر غائب وضوء النجوم خافت جداً ينجح في متابعة الطريق بإخراج رأسه من النافذة الجانبية. نصل عند منتصف الليل وندخل غرفة كبيرة حيث ينام البيشمركه على أرضها واسلحتهم بجانبهم. احشر نفسي

في كيس النوم ولا أجد أية صعوبة في الإخلاد إلى النوم بعد واحدة من أطول مراحل اليوم التي انتهيت منها. أقول لنفسي بأنه قد مر دهر منذ أن استيقظت وذهبت إلى ساقية الطاحونة في قرية (بله) واغتسلت في مائها البارد وامتطيت بعدها بغلة صالح على ذلك الجبل الوعر.

ليس لدي أية فكرة حول ما قادتنا إليه هذه الرحلة الليلية... أعرف فقط أننا من المفروض أن نكون قريبين من الجبهة ومع ذلك فانه لا يمكننا أن نكون بعيدين جداً عن وادي (برواري بالا) الآمن بالرغم من أن المسافة تبدو لي لانهائية، واليوم طويلاً جداً. عند الفجر يوقظني أحمد الذي يبدو حزيناً ويكتفي بالقول بان الوقت قد حان للذهاب إلى الجبهة.

نتبع مجموعة من البيشمركه... لا أعرف كم سنمشي والى أين؟.. وفي الحقيقة لست عابئاً بذلك. خلال هذا اليوم كله اصرف معظم جهدي في السير بالذات. تمتلئ قدماي بالقروح وأحيانا ترتخي ركبتاي ويتصبب العرق من كل مساماتي. ربما أستطيع يوماً ما أن أعيش مثل بيشمركه... أسير معهم على الجبال والتلال في هذه المنطقة المشاع والقاحلة حيث دمرت كل القرى وامتلأت الطرق كلها بالحفر بسبب القنابل. يوماً ما... مهما يكن من أمر فليس في مقدوري السير ابعد.

نسير ساعات وتزداد وطأة الحر كلما ارتفعت الشمس اكثر إلى كبد السماء، وهنا لا وجود لانهار أو جداول تتدفق بالمياه كما في الشمال والمسافة بين الينابيع هنا تطول. افقد كل فكرة عن الزمن والمسافة ففي مسودة الريبورتاج يشغل هذا اليوم صفحتين فقط، فإني لم أستطيع أن اكتب مشاهداتي، ولكني فيما بعد حين أحاول الآن التذكر أرى المنطقة في أعماقي على هذا النحو تقريباً:

مقر قيادة الفرقة، حيث بتنا ليلتنا والذي لم أره أبدا في ضوء النهار، يقع في بيت ابيض بجانب الطريق تماماً... كان على ما يبدو مطعماً للمسافرين على الطريق من قبل. انه طريق السيارات الوحيد من (العمادية) و (وادي بامرني) وهو يمر من فوق إحدى السلاسل الجبلية، إلى (دهوك) التي تقع في ذاك الوادي العريض من حول المجرى العلوي لنهر دجلة. هذه الجبال ليست مرتفعة ووعرة جداً وعلى كل حال، فهي ليست كذلك في كل امتدادها وطريق السيارات لا يمر بأي معبر حقيقي.

تقع المنطقة بين مقر قيادة الفرقة والذي يقع في أعالي تلك الجبال الجرداء وبين مدينة (دهوك) التي تقع في الأسفل من السهل تحت السيطرة الكلية لقوات البيشمركه. السهل مكلل ببضعة تلال عالية نصب الكورد نقاط مراقبتهم. لقد هجر المدنيون كلهم هذه المناطق التي تقصف بين الحين والآخر من قبل المدفعية العراقية وعلى الدروب تتحرك فقط مجموعات البيشمركه. يمكن للمرء أن يعتقد بان البلاد مدمرة كلياً- من المؤكد إنها كذلك لو نظر إليها من الجو- ولكن البيشمركه، آلاف البيشمركه، يسيطرون على كل سفح جبل وكل تلة، وهم مستعدون لدحر كل محاولة اعتداء وانتهاك.

في إحدى ساعات ما قبل الظهيرة ننزل إلى أحد الوديان الضيقة حيث تتواجد مجموعة من البيشمركه... انه مقر قيادة السرية حيث نأخذ فيه قسطاً من الراحة تحت ظل سقيفة صيفية ونتناول بضع كاسات من الشاي.حين نتابع سيرنا نتبع وادي النهر الصغير والذي يجري أحياناً في وديان صغيرة قد نمت فيها المزوعات من جديد، ونصل بعد ساعة أخري سفح جبل شديد الانحدار نجد فيه مقر قيادة سرية أخرى وهو أكثر المراكز العسكرية تقدماً في هذا القسم من الجبهة، وندعى هناك إلى الغذاء. يقول قائد السرية بأنه يوجد فيها 95 بيشمركه ومهمتهم هي حراسة الجبهة وصد كل هجوم، ولكن لم تجر معارك منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، منذ أن قامت الحكومة بهجوم كبير واستمرت المعركة حينها أكثر من ثلاث ساعات.

ويضيف:

- وبعدها كان عليهم أن يتراجعوا، ولا ندري كم فقدوا من الجنود ولكن بقيت جثث ستة من قتلاهم على أرض المعركة وفي تلك المعركة استخدموا الدبابات أيضا. في اليوم التالي قدمت مجموعة من النسوة واهتممن بالقتلى... وبالطبع فقد سمحنا لهن بذلك. لا نملك مدفعية مضادة للدبابات ولكننا نستطيع إيقافها بالألغام الأرضية والقذائف المضادة للدروع. الوضع الآن هادئ على جبهتنا ونحن نسيطر على الوضع ولدينا دوريات خلف خطوطهم تقطع اتصالاتهم.

وأسأله عن عدد الرجال الذين فقدهم فيجيب:

-خسائرنا منذ آذار هي 8 قتلى و15 جريحاً، ولكن خسائر العراقيين هي أكثر بكثير ولا نعرف العدد.

أواصل السير مع أحمد ودليلين عبر الوادي الضيق إلى أن ينفتح هذا على سهل فسيح، ثم نتبع الدروب خلال حقول لم تحصد بعد إلى تل منخفض، ومن هناك نرى (دهوك). نجلس هناك تحت إحدى أشجار التين ونرقب بعض المراكز الأمامية العراقية من خلال المنظار... نحن قريبون جداً بحيث نستطيع أن نرى الجنود بوضوح وهم يتحركون. الهدوء يخيم تماماً ولا أسمع صوت أية طلقة.

في طريق عودتنا نأتي إلى مفرزة بيشمركه تتمركز تحت أحد الجسور. يروننني أسلحتهم أحاول أن أدون فيما يلي ما لديهم:

إن سلاح البيشمركه الأكثر شعبية هو بندقية الماوزر الطويلة من طراز (برنو). إن تاريخ صنعها هو نهاية العشرينات من هذا القرن... على واحدة منها أرى كتب عام 1927. إن أي واحد من البيشمركه لديه بندقية (برنو) يعتني بها برفق عظيم ويطلق بها مع قدرة على إصابة الهدف تثير الدهشة، واحضر تدريباً قصيراً على الرمي؛ يضعون تفاحة عل حجر ومن مسافة بعيدة بحيث أكاد أستطيع بعيني المغشيتين تمييزها ثم يرمونها ويصيبونها من أول طلقة.

أولئك الذين ليس لديهم بندقيات (برنو) لديهم بدلاً عنها بنادق رشاشة روسية من طراز (كلاشيينكوف) والتي يسع مخزنها 30 طلقة ويرمون مع دقة كبيرة في الإصابة بهذا السلاح أيضا. وتوجد كلاشينكوف صينية الصنع تشبه تماماً الروسية ولكنها تعتبر أسوأ.

ويوجد لديهم أيضا بنادق من طراز (سمينوف) ورشاشات ثقيلة من طراز (تكتريوف) ذات مخزن شريطي فيه 100 طلقة. أرى أيضا بضع رشاشات برنو والتي يسع مخزنها 20 طلقة. بيد أن أثقل سلاح على الجبهات هو على الأغلب مدفع الدوشكا الآلية والتي تستخدم أيضا ضد الطائرات التي تطير على ارتفاع منخفض.

ننتقل إلى سرية أخرى تتمركز في اسفل جبل عال ووعر وقد وصلهم كتاب بأنهم يفكرون في قصف بعض النقاط الحراسة العراقية بالمدفعية في الساعة الرابعة من بعد الظهر... لدي إحساس مؤكد بان القصف قد نظم بالتأكيد من اجلي ولكنهم ينكرون ذلك بشكل قاطع ويدعونني لمرافقتهم إلى أعلى الجبل... أنا في غاية التعب والإرهاق إلا إني لا أريد أن أخيب رجاءهم وإنما اذهب مع مجموعة من البيشمركه. لا املك أية آمال أبدا في أنى سأقدر على التسلق ولكني لشدة دهشتي وبعد

ساعتين من الآلام اكتشف باني قد فعلت ذلك حقاً. عميقاً في الأسفل يقع ذلك السهل المقفر من الناس، ونرى مدينة (دهوك) بوضوح تام، ونرى كذلك الطريق الذي يتجه إلى الأقاصي حيث يمكن أن أتصور أنها الأرض العراقية الصحراوية.

تتألف قمة الجبل من جلاميد صخرية ضخمة وصخور ناتئة الحواف، ويسهل هنا إيجاد نقاط مراقبة آمنة.

تقع الحامية العراقية خارج (دهوك) تماماً ومن خلال المنظار يمكنني أن أرى شاحنات عسكرية واقفة هناك.

يبدأ تبادل نيران المدفعية مع بضعة انفجارات كتيمة، وفيما بعد، ومن نقطة المراقبة أكون شاهداً على مشهد يلوح لي مستبعداً تماماً. مدفعية الحكومة متواجدة في الحامية هناك في الأسفل من السهل، وارى سحائب من الدخان ترتفع من هناك وثمة بضع سيارات تسير على الطريق بعيداً في السهل تتوقف.

ومهما يكن من أمر لا يبدو الكورد يقصفون الحامية وإنما بضع مواقع أمامية عراقية رأيناها حين كنا هناك في السهل جالسين تحت شجرة التين، ولا نستطيع رؤيتها من هنا على قمة الجبل حيث تختفي المدفعية الكوردية مخبأة في الجبل ولا أرى من أي جهة تأتي قذائفهم ولا على ماذا يسددون ولكن يظهر واضحاً إن القذائف العراقية تأتي من الحامية وتنفجر هنا وهناك في الجبل محدثاً صوتاً كتيمة وسحائب من دخان، من الواضح انهم يقصفون عشوائياً فقط ولا يملكون أية فكرة عن مكان وجود مدفعية البيشمركه. بضع قذائف تئز من فوق قمة الجبل تماماً وتنفجر بعيداً في الجهة الأخرى، ولكن بعضها يسقط بالقرب من المكان الذي كنا نجلس فيه قبل ساعتين تحت شجرة التين.

لا أستطيع أن احكم على مغزى القصف الكوردي، بما إني لست قادراً على رؤية أهدافه، ولكني لا افهم سوى إن القذائف العراقية هي مضيعة فحسب ولا فائدة منها على الإطلاق. أقول في نفسي مفكراً بأنه مجرد تدريب صغير وغير ذي أهمية على الرمي... ومع ذلك فربما قد نظموه من اجلي كي احصل على شيء احكي عنه.

(دهوك) مدينة محض كوردية... العديد من البيشمركه الذين أتحدث إليهم هم منها ولا تزال عائلاتهم باقية هناك في السهل، أحيانا تزور دوريات البيشمركه المدينة ليلاً، إلا انه لا توجد أية خطط للقيام بالهجوم ومحاولة تحرير المدينة... سيكون ذلك غير ممكن. لن يملك مشاة البيشمركه هناك في الأرض السهلية اسفل الجبل أي حظ في مواجهة القوات المدرعة العراقية، ولكن الأمر نفسه ينطبق على القوات العراقية إذا ما حاولت احتلال هذه الجبال التي تدافع عنها قوات البيشمركه بقوة.

نبدأ عند الفجر بالعودة سائرين ويدلنا على الطريق واحد من المحاربين القدماء والذين كان مشتركاً في القتال طوال اليوم. سرعان ما يحل الظلام المطبق فأحرص على البقاء بقرب الدليل ملتصقاً به، وهو في سيره لا يتبع أي درب وإنما يمشي باستقامة داخل المنطقة، ولا افهم كيف ينجح في مسألة التعرف على المكان. يقف بضع مرات ويغير الاتجاه، كما لو انه استطاع أن يرى في العتمة. لا ادري كم من الوقت نمشي هناك في الليل، ولكن يجب أن يكون ذلك عدة ساعات... بالنسبة لي يعني ذلك دهراً. وأخيرا حين نصل إلى مقر القيادة بجانب الطريق تكون رغبتي الوحيدة هي أن

أتمكن من غطس قدمي المتألمتين في حوض ماء النبع في الفناء وان أتمدد... ولكن الفناء يشغله البيشمركه الذين يجلسون حول طاولات عليها مصابيح كيروسين... تلتهمني حلقتهم على الفور ويحييني قائد الفرقة بهذه الكلمات.

- أهلاً بك في جبهتنا!

حين انظر إليه في الضوء الخافت أرى انه صورة طبق الأصل عن اسعد، القائد العسكري الذي التقيته في مقر قيادة الجيش، ويقول أحمد مبدداً استغرابي:

- اجل، انه ابنه.

الشبه بين الاثنين يثير العجب تماماً، فلا يمكن الشبه في قسمات الوجه فحسب وإنما في التألق المنبعث من هدوء من يثق بنفسه ومن هو رابط الجأش. العيش الجو نفسه الذي عشته في الليلة السابقة عندما كنت جالساً بجانب اسعد.

يوجد على الطاولة ضيف آخر، يرتدي هو أيضا لباس البيشمركه وبجانبه كلاشينكوف، ولكني استطيع أن ألاحظ بأنه ليس محارب جبهة. يتحدث إلي بود بالإنكليزية ويدعى محمد سليم المفتي ويخدم في الإدارة المدنية للثورة... يقوم الآن بجولة تفتيشية في بهدينان ويقول لي:

- لقد أتيت إلى مقر القيادة هنا لأحاول الحصول على بعض الأخبار عن عائلتي التي تقيم في (دهوك) ولا أعرف أي شيء عنها.

لقد عاش عيشة مرفهة في (دهوك) قبل عدة اشهر، فقد كان لديه مكتب محاماة كان يعمل جيداً، وملك بالإضافة إلى ذلك أرضا زراعية خارج المدينة، ويقول بأنه والى حد ما انتمى إلى الطبقة الغنية في (دهوك)، ولكنه غادر في آذار متجهاً شمالاً لينضم إلى الثورة، ويضيف قائلاً:

- لقد مرت سبعة اشهر وعشرة أيام لم اسمع خلالها أي شيء عن عائلتي، وأعرف فقط بأنهم قد اعتقلوا نسيبي الذي كان ضابطاً في جيش الحكومة. لقد أتيت اليوم إلى الجبهة هنا لأسمع ما إذا كان لديهم أية معلومات من (دهوك) ولكني لم احصل على أي شيء.

أقول له باني اليوم رأيت (دهوك) من فوق أحد الجبال. فيقول:

أه! أتمنى أن افعل أنا أيضا ذلك، فقط أن أراها من بعيد وأعرف إن عائلتي هي في مكان ما هناك في الأسفل.

حين غادر محمد سليم (دهوك) اخذ معه سيارته الفيات وهي لاتزال معه... لقد جاء إلى الجبهة بها. يدعوني وأحمد أن نرافقه إلى (سرسنك) ويقول بأنه يمكننا أيضا أن نبيت عنده فمسكنه هناك كبير.

يقول لي القائد ابن اسعد.

- تستطيع بدلاً من ذلك البقاء هنا والاستراحة حتى الغد.

بالطبع أرغب في البقاء ولكني مع ذلك أريد أن استغل الفرصة للذهاب إلى (سرسنك).. طريق العودة إلى (جومان) طويل. أستطيع أن أبلغ أنه لا جديد على الجبهة الغربية. يسيطر البيشمركه على الوضع. إنهم يتمددون هناك على الجبال ويحرسون.

عند منتصف الليل نقوم بتوديعهم.

يقول لي المحارب العجوز الذي دلني على الطريق:

- أنت بارع في السير، ولو مكثت هنا لجعلنا منك بيشمركه حقيقياً.

ويحضنني ويقبلني من خدي على الطريقة الكوردية.

تبتعد بالسيارة في ذلك الليل وقد أطفأنا مصابيحها.

حقاً إن ما نطلبه ليس بالكثير

(سرسنك) هي واحدة من أكثر المناطق السياحية شهرة في كوردستان العراقية. كان الناس في زمن السلم يحبون السفر إلى الجبال هرباً من حر الأرض القاحلة ملتمسين البرودة. يوجد هنا وهناك في الجبال عدة فنادق سياحية بنيت حديثاً، و(سرسنك) هي أحد المراكز، وقد كان الملك فيصل يملك فيها قصراً صيفياً قبل ثورة 1958 وقد بنت الحكومة العراقية منذ ذلك الوقت عدة فنادق.

الآن لا يوجد أي سائح في (سرسنك) وبالمقابل فقد تحولت الفنادق إلى مساكن طارئة للاجئين، ولم تبقى أية بناية تكون مركزاً للإدارة الثورية في بهدينان كلها. العديد من المثقفين الذين التحقوا بالثورة عندما اندلعت الحرب في آذار قد حلوا في (سرسنك) ويحاولون أن يكونوا ذوي نفع هناك. إن مرشدهم الأساسي هو برنامج الحزب الديمقراطي الكوردي، وعلى سبيل المثال ما جاء في المادة 23:

((نعمل من اجل تحقيق تعليم ابتدائي تكون إلزاميا لكلا الجنسين وإعداد دروس مسائية للعمال والفلاحين وغيرهم، وزيادة عدد المكتبات للرفع من مستوى تعليم الشعب)).

الهدف هو محو الأمية كلياً، وهذا العمل جار على قدم وساق بالرغم من الحرب المحرقة والمدمرة، ففي اليوم الذي وصلت فيه (سرسنك) تحديداً كانوا قد نظموا امتحاناً في اللغة الإنكليزية لمائتين وثمانية عشر طالباً شاباً مرشحاً لمهنة التعليم. يجري الامتحان في إحدى المدارس ويجلس الطلاب مكتظين في الغرفة على مقاعد خشبية بسيطة في غرف الصف وفي الممر وأمامهم ورقة الأسئلة. القسم الأكبر منهم شبان في مقتبل العمر.. بضعة منهم من البيشمركه وقد جاءوا مباشرة من الجبهة؛ تركوا أسلحتهم في إحدى الغرف. وثمة بين الممتحنين مجموعة من الفتيات أيضا.

مع اندلاع الحرب أغلقت الجامعة الكوردية في (السليمانية)، ولكن الأساتذة والطلاب سارعوا بالمغادرة والالتحاق بالثورة. كانت الخطة هي إنشاء جامعة جديدة في (قلعة دزة) ولكن المدينة تعرضت في 24 نيسان لهجوم كثيف بالطيران كانت ضحاياه 131 من القتلى واكثر من 300 من الجرحى، وقد دمر نتيجة القصف مدرستان ومعظم القتلى كانوا من الطلاب. ومذ ذاك احتلت (قلعة دزة) من قبل القوات الحكومية وبعدها ترك السكان كلهم تقريباً المدينة والتجئوا إلى الجبال.

حاول الكورد لفترة طويلة الاستمرار في التعليم بيد أنه حين استمر القصف الجوي لم يكن هناك بد من إغلاق المدارس بوصفه الإجراء الأكثر أمناً. يقول مصطفى محمد وهو مدير مدرسة في (سرسنك):

- نحاول الآن فتحها من جديد وقد تم البدء بالتعليم في العديد من القرى بالرغم من أن ذلك لا يجري في أبنية المدارس وإنما معظمه في الهواء الطلق.. نخاف من غارات جديدة ولا نريد أن يتكرر ما حدث في (قلعة دزة) وإنه لمن الملح أن تتم المحافظة على التعليم المدرسي. وبالرغم من أننا نعيش في ظل ظروف غير عادية فإن مدارسنا ذات مستوى أفضل بكثير منها في العراق. إن الشبان الذين يمتحنون الآن في اللغة الإنكليزية قد جاءوا من جميع أنحاء كوردستان.. من (السليمانية) و(كركوك) و(الموصل). لقد انتهوا من الدروس وجاءوا هنا إلى (سرسنك) لتقديم الامتحانات التحريرية.

ألتقي في سرسنك شخصاً مثيراً للدهشة والإعجاب يدعى كوركيس ملك جكو وبحسب ما هو مدون في بطاقة الزيارة التي يقدمها لي هو رئيس ((اللجنة العليا للشؤون المسيحية (كوردستان- العراق))).

لقد كان واضحاً لي من قبل أنه ليس كل الكورد على الإطلاق مسلمين لأني التقيت مسيحيين في بضع قرى من قرى (برواري بالا)، وانه لمن الواضح تماماً إن المسيحيين والمسلمين يعيشون جنباً إلى جنب في قرى محددة، هذا بالإضافة إلى أني وكما سبق التقيت في (جومان) قائد اليزيدين.

يوجد في سرسنك حي للمسيحيين ونذهب هناك أملا في التقاء القسيس فأنا متلهف لمعرفة المذهب المسيحي الذي ينتمون إليه- فمن المعروف انه يوجد العديد من المذاهب- وأحمد الذي ينتمي إلى الجيل العصري والذي ليس لديه اهتمام كبير بالدين وبالرغم من أنه مثل والده مسلم.. أحمد هذا لا يعرف الجواب.

نلتقي القس في ردهة أحد المنازل ولدهشتي أرى كوركيس ملك جكو أيضا جالساً هناك وهو يتحدث إلي بإنكليزية متقنة ويبدي كامل استعداده للإجابة على كل أسئلتي حول الدين في كوردستان فهو طبعاً رئيس ((اللجنة العليا للشؤون المسيحية)) ويقول:

- أغلبية الكورد المسيحيين هم من الروم الكاثوليك ولكني انتمي للكنيسة الشرقية القديمة.. يسموننا نساطرة.

كان نستوريوس (نسطور) بطريركاً في (القسطنطينية) في أعوام 428-431م، وقد تأمل في ((الطبيعة الإنسانية)) للمسيح وانتهى إلى الرأي بأن المسيح كان ذا طبيعتين.. طبيعة الإنسان وطبيعة الإله. إن أهم خلاف في الرأي بين النساطرة وبين سائر المسيحيين هو إن النساطرة لا يقبلون مريم

العذراء بوصفها ((والدة الإله)) يوجد حوالي 40.000 من النساطرة في كوردستان العراق ولكن البطريك يعيش في (سان فرانسيسكو).. يوجد نساطرة في كل أنحاء العالم. ويضيف جكو:

- معظم الكورد هم من السنة المسلمين ويأتي بعدهم الروم الكاثوليك فالنساطرة ثم اليزيدية- عبدة الشيطان، كما ندعوهم- وأخيرا المسيحيين البروتستانت والذين هم مجرد قلة قليلة. ومهما يكن من أمر فالحقيقة هي أننا لم نشهد صراعات دينية في كوردستان فهنا يسمح لكل واحد أن يسعد بالشكل الذي يناسبه. أنا شخصياً ليس لدي أي اعتراض على الإسلام وأنا أعتبره متساوياً في القيمة مع ديني.نحن نؤمن بالإله نفسه ولكن يختلف اسم نبيه عند كل فريق منا فحسب، وهذا لا يبرر أن ينتقص واحدنا من قدر الآخر. لقد حاول نظام بغداد أن يستخدم سلاح الدين في هذه الحرب ولكن عبثاً. نحن لا نرى أية علاقة في كوردستان بين الدين والسياسة. تحتوي الثورة الكل، والكل يشترك في الكفاح سواء في ذلك النساطرة والمسلمون وعبدة الشيطان والكل يحارب جنباً إلى جنب. لم يختر أي واحد منا دينه فقد ولدنا على ديننا. إن رأيي الشخصي هو إن على كل إنسان أن يؤمن بجوهر أعلى وإلا فإن المرء يبقى مجرد حيوان، وأما مسألة ماذا يسمى المرء؟ وماهي الطقوس التي يمارسها أثناء دعوته وصلاته لربه؟ فإنها ذات أهمية أقل. نحن نحترم آراء بعضنا في كوردستان، وإنه لشيء يميز الشعب الكوردي بدرجة عالية جداً؛ التسامح إزاء اختلاف الرأي، ألم يلفت ذلك انتباهك؟

وأجيب: بلى، وان كان الأمر على هذا النحو فقد وصلتم درجة عالية جداً من التطور، أعلى مما لدى أي شعب آخر، لأني أعتقد إن المرء يمكنه قياس درجة الحضارة مع درجة التسامح إزاء اختلاف الرأي.

ويعقب جكو على ما قلته:

-أجل، ولكن هناك أيضا شيء آخر يميز الثقافة الكوردية ألا وهو العلاقات العائلية القوية. أنا أشعر نوعاً ما بالإشفاق عليكم أنتم السويديين.. لقد أنجزتم الكثير مادياً ولكن العلاقات العائلية تحطمت ولعمري إنه ثمن غال دفعتموه من أجل الرفاهية ولسوف تواجهون مشاكل كبيرة جداً.

- هل أفهم من هذا أنك كنت في السويد؟

- نعم، في كانون الثاني. لقد أرسلتني قيادة الثورة في زيارة كي نحصل على الدعم لثورتنا. لقد قابلت بالمة في السويد وقد أصغى ألي باهتمام.. لقد توصلت إلى قناعة بأن موقفه كان إيجابياً من الكورد وبأنه تفهم أهداف ومحتوي ثورتنا.

- ولكن هل حصلت على مساعدة؟

لقد وعدوا بمساعدتنا إنسانياً وحصلنا على بعض الدواء، ولكن أكثر ما نحتاجه هو الدعم السياسي وهو أهم من كل شيء وسيكون من السهل جداً للسويد أن تطرح القضية في الأمم المتحدة وهذا هو كل ما نطلبه.

أنا لا أفهم جكو تماماً، فهو يقدم نفسه بوصفه رئيساً في ((لجنة مسيحية)) ترتبط بشكل من الأشكال بالثورة، وبالإضافة إلى أنه قد اتضح بأنه قد أرسل في جولة دبلوماسية في أوروبا، وأنه في كانون الثاني قد تباحث مع رئيس الوزراء بالمة لمدة ساعة من الزمن، والآن أجده هنا في (سرسنك)

وعلى ما يظهر غير فعال كلياً وأخوض معه نقاشاً حول إمكانيات السويد في منح الثورة الكوردية الدعم السياسي، وأقول له:

- لا أعتقد أنه يمكنكم أن تأملوا من السويد شيئاً، فهذه القضية كما هو معروف ((شأناً داخلياً)) للعراق، والأمم المتحدة لا تهتم بمثل هذه القضايا.

يجيب جكو:

- ولكن مبدأ الأمم المتحدة هو أن لكل شعب الحق في أن يختار حكومته ويقرر مصيره بنفسه. لماذا يستثنى الشعب الكوردي من ذلك؟ أن نكون أقلية في بلد يدعى العراق لا يعني أنه يجب أن نتخلى عن حقوقنا القومية. ومع ذلك فنحن لا نطالب بالاستقلال.. نحن نطالب بالحكم الذاتي.. فقط أنظر على سبيل المثال إلى (كويبك) في كندا.

أنا أعتقد أن (بالمة) بدأ يدرك عدالة كفاحنا. أنا أتوقع أن تعني السويد بمسألة إدراج كوردستان في جدول أعمال الأمم المتحدة، فما دام السويديون قد وقعوا مرة على لوائح الأمم المتحدة فيجب عليهم أيضا أن يعنوا بمسألة التقيد بهذه اللوائح. لدى حكومتك خياران فقط: أن تترك الأمم المتحدة أو تعنى بمسألة إدراج قضية كوردستان ومناقشتها في الأمم المتحدة.

أقول له:

- أنا أوافقك الرأي، ولكن مع ذلك فالأمور لا تجري بهذا الشكل. أنت تبني آمالاً عريضة جداً على السويد والأمم المتحدة.

ثمة شيء آخر تستطيع أن توضحه للشعب السويدي. يقول كوركيس ملك جكو. إنه يتعلق بالنفط فإذا تم للكورد تحقيق مطالبهم العادلة في الحكم الذاتي فستقع حقول النفط داخل حدود الحكم الذاتي في كوردستان. تحتل قوات الحكومة الآن حقول النفط ولكنها مع ذلك تعود لنا، وحين نحقق النصر لن تلقى الشعوب التي ساندتنا في كفاحنا أية مشاكل مع النفط.. سنولي عنايتنا بمسألة أن يحصلوا على النفط الذي يريدونه.

أقول له:

-ولكن النفط سيستثمر كما هو معروف من قبل الحكومة المركزية، وقد أكد لي الدكتور محمود ذلك: لا يريد الكورد المطالبة بالنفط لمصلحتهم الذاتية.

هذا صحيح، يقول جكو ويضيف:

- ولكن سيكون بإمكاننا ممارسة التأثير على الحكومة المركزية حين يتعلق الأمر باستخراج النفط ولسوف نهتم بمسألة أن يحضى أصدقاؤنا بامتيازات. وبالمناسبة فإن هذا ينسحب على كل الثروات الطبيعية الأخرى التي نملكها.

كوردستان بلد غني فهنا يوجد الحديد واليورانيوم وحتى الذهب وكميات كبيرة من الكريستال، وسنولي عنايتنا بتلك الثروات الطبيعية كي تستثمر، وستكون مكافأة الذين يدعموننا غالية.

أقول له.

- لا أعتقد أنه من المفيد لكم استخدام سياسة العصا والجزرة في مسألة النفط من أجل الحصول على الدعم السياسي من الغرب. طالما يسيطر العراقيون على حقول النفط فإنهم سيلقون الدعم.

- ولكن ماذا سنفعل؟ يهتف جكو منفجراً. لم نحصل حتى الآن على دعم دولة واحد في الأمم المتحدة. علماً إننا ومن جهة أخرى سوف ننبري لهذه الحرب بأنفسنا وسوف ننتصر لأننا نحارب من أجل قضية عادلة ولأن الشعب كله يؤمن بكفاحنا ومستعد للموت من أجل قضيتنا.

- وهل أنت أيضا كذلك؟

- أخي كان بيشمركه.. لقد استشهد في المعركة. كان اسمه هرمز وقد سميت كتيبة خاصة باسمه، قوات هرمز. من الطبيعي أن أصبح أنا أيضا بيشمركه لو كانت هناك حاجة إلي، ولكني في الوقت الراهن أرى أنني أقوم بعمل أكثر نفعاً في الصفوف الخلفية للجبهة. من المؤكد أني محارب عديم النفع.

بعد الظهر يوصلنا محمد سليم المفتي بسيارته الفيات إلى (العمادية) حيث نبيت ليلتنا في بيت أحمد مرة أخرى. كان الحاكم قد وعد أن يرسل سيارة باكراً في الصباح التالي لتأخذنا غرباً إلى النهر ويفي بوعده.

لا نتوجه حين نصل النهر إلى مكان العبارة وإنما نزولاً إلى مكان يسهل خوضه. تغالب بضع بغال التيار القوي.. يصل الماء إلى صدور سائقيها الذين ينجحون في العبور بعد بذل مجهود عظيم.

يلمحنا بعض الرجال في الجهة الأخرى من النهر وتأتي بعد قليل كاشطة طرق هادرة نازلة من منحدر التل وتخوض مباشرة في الماء وتعبر المخاضة دون صعوبة تذكر، ونصعد إليها مع أحمالنا وتعود بنا إلى الضفة الأخرى. هناك التقي بعمال الطرق.

إنهم الذين شقوا الطريق بين (بارزان) والنهر وبين النهر و(العمادية).

يدعى رئيسهم أحمد سعيد بريفكاني وهو مهندس مدني من (دهوك) في السادسة والعشرين من العمر. درس في جامعة الموصل وحصل على بكالوريوس منها عام 1971. في آذار حين اندلعت الحرب ترك وضيفته لدى الحكومة والتحق بجيش البيشمركه. يقود الآن قوة من 30 رجلاً وثلاثة بلدوزرات وكاشطتي طرق وضاغطة وجرارين.

يقول لي:

- لقد أنجزنا شق الطريق من النهر إلى (بارزان) في 35 يوماً. لقد بدأنا من هذا الطرف لأن آلياتنا كانت هنا. إنه مسافة 30 كيلومتراً وقد عملنا فيه ليل نهار، والآن سنبني جسراً عائماً على النهر

هنا بيد أننا اضطررنا إلى التوقف.. ليس عندنا ما يكفي من الوقود. ننتظر شاحنة بترول من (جومان).

إنهم- عمال الطرق- نموذج متميز من الناس، الحياة وشق الطرق عندهم يعنيان شيئاً واحداً، يطفحون برباطة الجأش وبطاقة لاتنضب تجعلهم قادرين على هد جبل. إنهم مدركون تماماً إن الإسهام الذي يقدمونه في الحرب بهذا العمل هو إسهام مماثل في القيمة للقتال على الجبهة وهو إلى ذلك محفوف بالمخاطر بالقدر نفسه تقريباً. إنها مأثرة أن تشق طريقاً بطول 30 كيلو متراً في 35 يوماً وفي هذه الأرض الوعرة.

ويوضحون بأنه كان من الممكن أن تشق منذ زمن طويل ولكن الحكومة لم تكن مهتمة بشق الطرق في كوردستان، وفقط عندما انهارت المفاوضات واندلعت الحرب من جديد، استطاع بناة الطرق أن يطلقوا العنان لطاقتهم وان يجاهدوا من أجل شق الطرقات في كوردستان. يقول بريفكاني:

- طبعاً الآليات هي من العراق وهي أيضا من اللاجئين.. لقد ترك سائقوها (دهوك) وأخذوها معهم ليسلموها إلى الثورة.

يملك عمال الطرق تلك القدرة الرائعة على التمتع بيومهم كيفما كان وتحمل كل الظروف. وعندما يتعلق الأمر بالعمل فمن المؤكد إن طاقتهم لا تنضب أو تكاد. ليس لديهم الآن شيئاً يفعلونه بسبب انتظارهم لشاحنة البترول. إنهم يحيون هناك بجانب النهر مدة يومين حياة مسترخية تماماً.

يتسلون بصيد السمك بالديناميت.. يصنعون قنبلة من خلال وضع المادة المتفجرة في علبة مربعة من صفيحة معدنية تجهز بصاعق وفتيل. أرافقهم في الذهاب بعكس اتجاه النهر إلى أن يصلوا إلى حوض مياهه عميقة ويضعون القنبلة هناك في القاع.. تنفجر محدثة صوتاً كتيماً وشلالاً مرتفعاً من الماء وفي الحال يطفوا السمك الغائب عن الوعي بكميات كبيرة إلى السطح.. ويجمع من قبل السباحين رجالاً وصبياناً. ويقول لي بريفكاني:

- إن هذه الطريقة في صيد السمك ممنوعة، ولا نستخدمها غالباً إلا أننا نريد تقديم وجبة من السمك إليك.

يشوون السمك على النار يوقدونها على الشاطىء ونأكله مع الرز والبطاطا.

في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر نغادر في سيارة لاندروفر.. كان بريفكاني قد وعد أن يوصلنا إلى (بله).

الطريق في حالة أفضل منها قبل عدة أيام حين أتينا إلى هنا في الليل وقد جرى تحويله في إحدى الأماكن. ويقول بريفكاني:

- في يوم ما سيصبح هذا طريقاً رئيسياً معبداً بالأسفلت رائعاً.

هو بحق وبعمق راضٍ من عمله، فقد شقوا الطريق دون أن يقيسوا أو يستعينوا بالأجهزة.. لقد شقوا طريقهم إلى الأمام بمساعدة آليات الحفر وتغلغوا في الأرض الوعرة بالتفجيرات وحسب، والآن

فإن هذا الطريق هو صلة الوصل الوحيدة بين الشرق والغرب في كوردستان المحررة.. وأسأل عما إذا كانوا سيبقونه مفتوحاً حين يقبل الشتاء فيجيبني بريفكاني:

- هذا ما لا نعرفه ولكننا سنحاول، فإن أكبر مشكلة تواجهنا هي الوقود الذي علينا جلبه من إيران على هذا الطريق.

هذا المهندس الشاب يؤثر فيَّ تأثيراً عميقاً جداً، كان يمكنه أن يبقى في العراق.. كان لديه عمل جيد وكان عليه أن يتزوج وينجب الأطفال ويعيش حياة سعيدة بلا هموم، ولكنه بدلاً من ذلك اختار حياة خشنة وقاسية هنا في الجبال دون نساء ودون وسائل راحة ودون أمن. وأسأله:

-أما فكرت أبداً بأن حياتك قد تبددت؟

- بلى، طبعاً. أحياناً.. في الليل حين أريد أن أنام أروح أتأمل. حياتنا قاسية ولكن لا يوجد أي بديل آخر. علينا أن نهب كوردستان حياتنا.

نتوقف في (بارزان) لنزور الحاكم الذي يدعى عبدالله بارزاني وهو بالطبع من أقرباء الجنرال بارزاني. يلح علينا أن يستضيفنا على طعام العشاء بالرغم من أننا نفضل مواصلة رحلتنا، ونجلس هناك في حديقة منزله التي تفوح بعطر الأزهار بينما كان الغسق يحل ويأتي أفراد من البيشمركة ويجلسون بصمت على الشعب ويستمعون إلى إذاعة كوردستان التي تتحدث باستمرار عن المعارك العنيفة على جبهة رواندوز.

نرجع حوالي منتصف الليل إلى (بله) وأجلس ثانية في ذلك المطعم البدائي الذي يتدلى من سقفه فانوس يصدر فحيحاً مزعجاً. يوجد إلى جانب المدخل من الداخل طبق عليه ماء الشرب.. يشرب البيشمركه المتعبون منه حين يجيئون من قلب العتمة ويدخلون. ثمة في الخارج بغلة تنهق وهرة أم ومعها صغارها تتجول في أرجاء المكان باحثة عن بقايا طعام. أهيئ نفسي لقضاء الليلة كلها هناك ولكن بعد منتصف الليل بقليل نجد مكاناً في سيارة لاندروفر هي في طريقها إلى (جومان).

يثقل النعاس عيني أثناء هذه الرحلة الطويلة في الليل ولكني ألمح في ضوء المصابيح الأمامية شاحنة بترول قد انقلب في ممر ضيق. ربما تكون هي نفسها التي ينتظرها عمال الطرق.

ليس لنا من أصدقاء سوى الجبال

بينما كنت في بهدينان احتدمت المعارك على الجبهات في الشرق وحين أصل عائداً إلى (جومان) في الصباح ألاحظ أن الجو يختلف عنه في بهدينان فالحرب أقرب بكثير.

في اليوم نفسه وفي الساعة الرابعة تسنح لي الفرصة في الذهاب إلى جبهة بالك والتي تبعد عن (جومان) مسافة ساعتين بالسيارة. يرافقني واحد آخر من المترجمين الشبان في سيارة لاندروفر.. يدعى لطيف ويفتقد الثقة بالنفس التي لدى أحمد.

بالقرب من (كلاله) نحيد عن الطريق ونتجه غرباً ونتوقف عند المخافر العسكرية. نحصل على الإذن بالمواصلة حتى الخطوط الأمامية من قائد عسكري يجلس خلف طاولة كتابة تحت سقيفة صيفية بجانب كهف أحدث بالتفجير في الجبل، يقول لنا:

-من المؤكد أنكم مدركون للمخاطر، أليس كذلك؟

ندرك ذلك، وكلما توغلنا في الطريق يزداد القلق ويشحن الجو بتوتر أكبر. السيارات الشاحنة المدنية قد توقفت ملتجئة إلى ظلال الأشجار. ونحاط علماً بأن الحكومة قد شنت غارة بطائرات الميغ على الجبهة قبل عدة ساعات وقد راح ضحيتها العديد من البيشمركه.

وهكذا قطعت هذا الطريق باكراً في الصباح نفسه. ولكن عند أحد تفرعات الطريق وحيث يمتد ذلك الطريق المؤقت المتجه إلى الغرب شمالاً عبر الكتلة الجبلية نواصل باستقامة وبمحاذاة الوادي. سائق اللاندروفر عبدالله- ليس ذلك الهادئ أبداً وإنما هو رجل آخر- غاضب ومنفعل ويريد العودة، ولكنه بسبب الاحتجاجات يضطر إلى الاستمرار في ذلك الطريق المتعرج الذي يبدأ الآن هذه بالانحدار هبوطاً. تثير السيارة زوبعة من دخان من المؤكد أنها ترى من الجو، وأحس بأن هذه الرحلة خطرة جداً وكان علينا أن نسافر ليلاً لأنه وفي أية لحظة وكما هو معروف يمكن أن تظهر طائرة ميغ وتختار بالتحديد سيارتنا هدفاً للهجوم. نسمع صدى انفجارات قذائف المدفعية في الجبال حولنا. أفكر كل الوقت بعائلتي، وأندم على ما ورطت نفسي فيه، ولكن الوقت متأخر للتراجع.

وعلى حين غرة نجد أنفسنا في أسفل واد عميق حيث يصب مسيل، وينبثق من الجبل نبع صاف كالكريستال ويصب ماؤه في نهر صغير يجري مباشرة على الطريق. كان يجب أن يكون مكاناً سماوياً لروعته إلا أنه يحمل آثاراً طازجة للموت والإبادة. ثمة سيارة جيب محترقة تحت إحدى الأشجار، وهناك كوم من خرق قماش ملطخة بالدم ولا يزال دخان الحريق يتصاعد من هناك.

كانت طائرة ميغ 17 مع كل مدافعها الآلية من عيار 37 مم و22 مم في كامل فاعليتها قد أغارت قبل ساعتين على هذه المنطقة حيث كان 11 مقاتلاً من البيشمركه الشبان يجلسون ويشربون الشاي تحت ظلال الأشجار..

انقضت الطائرة النفاثة على المسيل بسرعة، لم يلحقوا معها أن يرموا بأنفسهم إلى ملجأ آمن. لقد أبيدوا بوحشية.. كلهم ماعدا واحد هو فاضل. يقف هناك بجانب سيارة الجيب سالماً لم يصب بأي خدش ولكنه لا يزال مصعوقاً من هول ما حدث، يقول لنا:

-لقد كانوا مجرد شبان تتراوح أعمارهم بين السابعة عشر والثامنة عشر جاءوا حديثاً من المعهد والتحقوا بالثورة. أربعة منهم كانوا من مجموعتي وكانت هذه سيارتي التي دمرت.

لقد اختاروا هذا المكان خلف الجبهة لاستراحتهم.. اعتقدوا أنه آمن. يوجد هناك الكثير من الكهوف والثغور بين الصخور يمكن للمرء الاحتماء بها.. ولكنهم في هذه المرة لم يسمعوا هدير طائرة الميغ إلا حين كان الوقت أصبح متأخراً.

فجأة تشتد وطأة القصف المدفعي ويبدو أن القذائف تتساقط حولنا ويصيح فاضل برفاقه ((انتشروا)) ويريني الطريق إلى مغارة صغيرة تحت بضع صخور كبيرة ويقول لي وهو يلاحظ بأن الذعر قد بدأ يتملكني:

أنت هنا آمن تماماً.

الآن فقط - حين أرى هدوءه الفائق- أبدأ أفهم هو أحد القادة العسكريين في هذا القسم من الجبهة، ولكن أن يكون هذا الشباب بسلوكه غير العسكري تماماً هو أحد الأبطال في الحرب فهو أمر سأفهمه فيما بعد.

هو أيضا واحد من الشباب الطلاب الذين التحقوا بالثورة عندما اندلعت الحرب في آذار 1974. هو من مدينة (كركوك) ولكنة درس في بغداد. يقول لي:

-كان لدي عدة أصدقاء سويديين هناك في بغداد وقد كانوا جيراني في المسكن وكانوا يعملون في شركة سويدية، أريكسون..

وأساعده مستفهماً: ل. م. أريكسون؟

أجل، هكذا كانت تدعى. لقد استمتعت بصحبتهم وإذا قرؤوا ما تكتبه فلربما يتذكرونني.

عندما ذهب فاضل إلى كوردستان خدم في البداية في الإدارة الثورية، ولكنه كان يطمح في الذهاب إلى الجبهة بصفة بيشمركه وبعد ثلاثة أشهر حقق هدفه.. لقد عين قائداً لمجموعة من 20 شاباً خضعوا لدورة مكثفة في التدريب على تشغيل خمس قطع أمريكية حديثة مضادة للدبابات مركبة على سيارات جيب، ويسمونها ((106)). لقد كان معروفاً أن القوات الحكومية تخطط لهجوم كبير بعدة مئات من الدبابات الروسية. لقد كانت قوة الدبابات العظيمة هذه تهديداً قاسياً لجيش البيشمركه.. والآن فقط تركوا لعشرين شاباً أمر تمرين أنفسهم من أجل هذه المعركة.

بالرغم من أن شدة القصف المدفعي لا تزال كما هي وأصور لنفسي أن القذائف تتساقط حولنا، يأتي صبي كما هي العادة تماماً بالشاي إلى حيث نجلس في ملجئنا محتمين بالصخور. أحياناً تتوالى الانفجارات بكثافة شديدة بحيث لا نستطيع التحدث إلى بعضنا بعضاً ولكنها حين تتوقف لبرهة يقول فاضل:

- قبل أسبوعين وقفنا وجهاً لوجه مع سبعين دبابة وقد أوقفناها بعد قتال دام خمس ساعات. كان لدينا سيارتا جيب مضادتان للدبابات وقد دمرنا ثلاث عشرة دبابة.

يتحدث بهدوء وبنبرة توحي بأنه لا ينتظر بأني سأصدقه، أضف إلى ذلك أني ربما لا أصدقه أو ربما لا افهم حقاً ما يقول.. ألقى صعوبة في التفكير بوضوح بينما تدوي الانفجارات وتغمر الصخور التي احتمينا بها بين الفئة والأخرى بالشظايا يقول فاضل:

-أربعة من الشبان الذين شاركوا في تلك المعركة قتلوا اليوم، أربعة من أفضل أصدقائي. بضعة منهم جرحوا في الهجمة الأولى ثم عادت الميغ وقضت عليهم.

-كيف تشعر حين تفكر بهم؟

أفكر فقط بأن علي أن أثأر لهم. سأنتقم من قاتليهم.. هذا هو الآن كل ما سأعيش من أجله.

يقبل الغسق ببطء هنا في هذه الجبال حيث تنعكس الأشعة الأخيرة للشمس طويلاً من القمم الشاهقة.

يقول فاضل:

لقد عثرنا على بطاقة زيارة في جيب أحد القتلى من الجنود العراقيين، وقد كانت دعوة إلى حفلة في (جومان) في 24 أيلول ولكنه لم يأت إلى هناك ولن يأتي أحد آخر منهم إلى هناك.

عندما يحل الظلام يتوقف القصف المدفعي، وفقط يسمع صوت بضعة انفجارات كتيمة من المدفعية الثقيلة والتي ترمي لمسافات طويلة، وأحياناً يسمع صفير قذيفة تعبر من فوق الوادي الضيق الذي نتواجد فيه.

يقول لي فاضل:

-نستطيع أن نذهب الآن ونقابل مصطفى. مصطفى توفي هو قائد الفرقة.. قائد كل هذا القسم من الجبهة أي الجبل الاستراتيجي (كيروي عمر آغا) وما يحيط به. نحن أسفل الجبل تماماً ومقر قيادة الفرقة يقع أعلانا قليلاً على رف صخري تحت جدار أفقي تماماً لصخرة عظيمة. نصعد إلى هناك ونجلس على بضع بطانيات ونحن ننتظر لأن مصطفى موجود في قمة الجبل. يشعلون فانوساً ويضعونه على صخرة. يؤكد فاضل على انه مكان آمن تماماً ولن يكون بمقدور قذائف المدفعية أن تصل إلينا ولا حتى طائرات الميغ التي لو حاولت الهجوم فستخاطر بالاصطدام مباشرة بجدار الصخرة الأفقي. ويوضح فاضل:

- الجبال تحمينا، ليس لنا من أصدقاء سوى الجبال.

أجلس هناك وظهري مستند إلى جدار الصخرة وأحس بنفسي مطمئناً تماماً، والمساء هادئ بعد أن سكت القصف المدفعي وبين الحين والآخر يأتي بيشمركه صامتون يمرون بنا على الرف الصخري وبندقياتهم وكلاشينكوفاتهم على أكتافهم.

حين يأتي مصطفى. قائد الفرقة، تكون الساعة قد تجاوزت الثامنة. أنهض احتراماً ولكنه يشير إلي بأن أجلس في مكاني ويرحب بي بكلمات قليلة والتعب باد عليه. يجلس بمواجهتي مصالباً ساقيه وصامتاً ومتفكراً ويشعل سيجارة ويدخن بقليل من حركات اليد، حركات أنيقة جداً ورشيقة جداً ومطمئنة ومهدئة جداً.

أتطلع إليه في ضوء الفانوس.. إنه شخصية آسرة. يرتدي الثياب نفسها مثل بقية البيشمركه وعمامته مزخرفة باللون الأحمر ويرتدي صدرية كوردية من صوف تحميه من الحر والبرد على السواء.. يتمنطق في وسطه حزاماً عريظاً ومليئاً بالخراطيش ويضع كلاشينكوفه وجهاز الراديو

للإرسال والالتقاط بجانبه. يحمل انفاً ضخماً وذا فتحتين كبيرتين، شفته السفلية البارزة قليلاً تقوي من ملامح وجهه المعبرة عن التصميم الراسخ والاعتزاز المنيع والقدرة التي لا تتأثر على التركيز.

إنه يملك التألق الفريد الذي يملكه أسعد القائد على الجبهة الغربية.

ليس الوقت وقت الكلام وإنما وقت التفكير. أتطلع فقد إليه واشعر نحوه بتقدير واحترام بالغين.

وفقط بعد نصف ساعة من الصمت أسأل من خلال المترجم إذا ما كان يريد الإجابة عن بعض الأسئلة فيجيب:

ليس الآن، فأنا متعب جداً ومنزعج جداً، وإذا تكلمت الآن فربما لا أختار كلماتي بدقة وربما أكشف عن سخطي... نستطيع التحدث فيما بعد.

يقدمون العشاء على طبق.. والعشاء كالعادة رز ومرق وقطع لحم دهينة يدفع نحوي بأطيبها وفيما بعد يقدم إلي عنقوداً كبيراً من العنب ونأكل كلنا معاً وبصمت. تعلمت في كوردستان إن تناول الطعام ليس أبدا طقساً احتفالياً ولا إجراءاً متكلفاً، ولكنه أيضا ليس إجراءاً الهدف منه هو الشبع فحسب وإنما بناء علاقات الصداقة الأبدية أيضا.. لقد أحسست بذلك عدة مرات في بهدينان وأحس به هنا على هذا الرف الصخري على جبهة (بالك) اكثر من أي مكان آخر.

حين يقدم الشاي يستعيد قائد الجبهة نفسه. لا أعرف أي قرار اتخذه أثناء صمته ولا أي وضوح وصل إليه ولكنه يقول الآن وابتسامة ترتسم على شفتيه:

- نستطيع الآن التحدث معاً وأستطيع الآن أن أجيب عن أسئلتك.

أطلب منه أن يشرح لي الوضع على الجبهة فيقول:

- لقد احتلوا (راوندوز). لم نستطيع إيقاف الدبابات هناك في الوادي، ولكن الناس كلهم قد تركوا المدينة.. إنهم يحتلون أراض مقفرة من الناس فحسب ولا قيمة لأرض بلا ناس. لقد كنا نعرف انهم يعدون عدتهم وقد كنا في انتظار الهجوم. لقد كانوا يفكرون بالاختراق هنا بجانب الجبل وفي التاسع من هذا الشهر جرى الهجوم الأول، وقد جاءوا بقرابة مائة دبابة والعديد من الطائرات المقاتلة مستهدفين احتلال هذا الجبل. لقد كان رجالنا مستعدين، وردوا الهجوم مستخدمين المدافع المضادة للدبابات والصواريخ وقد دمرنا 14 دبابة وبضع شاحنات عسكرية ولكن القتال كان ضارياً.

في الليلة التي تلت الهجوم الأول بدؤوا بالهجوم الثاني وقد زجوا بكل قوة المشاة لديهم مزودين بالبنادق الآلية والمدافع الخفيفة ولكننا رددنا هذا الهجوم أيضا على أعقابه وقد تكبدوا في المعركة أكثر من 200 قتيل ودمرنا العديد من الدبابات وغنمنا 36 بندقية آلية و20 جهاز إرسال قابلاً للحمل و20 بغلة، وبالمناسبة أحتفظ هنا بواحد من أجهزة الإرسال.

ويشير إليه بيده، إنه جهاز روسي الصنع مجهز بالسماعات وبهوائي طويل قابل للطي، ويتابع حديثه:

- ولكنهم وبالرغم من ذلك لم يكفوا فقبل يومين جرى الهجوم الثالث والذي كان أعنف هجوم يشنه العراقيون حتى الآن، وقد بدأ في وقت مبكر جداً من الصباح ودام القتال 13 ساعة. لقد كانوا يزجون بالقوة إثر الأخرى وحسب، ولكن بيشمركتنا أظهروا شجاعة فائقة وحاربوا ببسالة وتبصر. لقد قتلنا أكثر من 300 من جنود الحكومة..لقد بقيت جثث العديد منهم على خط النار ولا تزال هناك حتى الآن، إنه منظر مريع. غنمنا أربعة عشر بندقية آلية وأربعة مدافع هاون وثلاثة مدافع خفيفة وكمية كبيرة من الذخيرة وأسرنا ثلاثة عراقيين، وقد أخبرنا واحد منهم أن القائد العراقي لهذا القسم من الجبهة قتل في المعركة.

هذا المحارب القديم قد قاتل طويلاً، فقد كان مشاركاً في كفاح الكورد في العراق منذ البداية، ويقول بأن هذه المعركة كانت أقسى معركة يخوضها في حياته، ثلاث عشرة ساعة بدون انقطاع من القتال ضد معتد كان كلياً متفوقاً حين يتعلق الأمر بعدد القوات والسلاح.

لقد بدؤوا هجومهم في الساعة التاسعة مساءاً واستمر القتال حتى الساعة العاشرة في اليوم التالي، لقد هجموا طوال الليلة كله.

وأسأله ما إذا كان يتوقع هجمات جديدة فيجيب:

- لو كانوا يملكون مشاعر إنسانية لما هجموا مرة أخرى.. من المعلوم انهم قد تكبدوا أكثر من 500 جندي من القتلى. ولكنهم سيهاجمون، ربما ليس في الأيام القليلة القادمة ولكن فيما بعد. ليس لديهم أي تقدير لحياة الناس ولا أية رأفة بجنودهم. نحن متأهبون. علينا الاستمرار في قتلهم.

يأخذ جهازه (الووكي توكي) ويرسل بضعة نداءات ويتكلم مع مواقع أمامية على مختلف أقسام الجبهة.. ويتلقى تقارير عن الوضع. يقول لي المترجم لطيف بينما هو يستمع:

- رائع جداً. أنت تعلم أننا هنا في كوردستان نتحدث دائماً مع بعضنا بلباقة ونستخدم الكثير من التعابير اللطيفة في حياتنا اليومية، والآن أسمعهم وهم يتحدثون هنا عن الجبهة على النحو نفسه، باللطف والكياسة كليهما ويقول لي مصطفى وهو يضع الووكي توكي جانباً:

- أريدك أن تبلغ الشعب السويدي بأننا نحتاج المساعدة. نحن شعب مسالم وإنما ندافع عن بلادنا فحسب. سوف ننتصر في النهاية وأنا مقتنع بذلك فالحق إلى جانبنا. إنهم يريدون استعبادنا.

أحكي فيما بعد مطولاً مع مصطفى عن كوردستان وعن العالم، وهو أيضا يطرح تلك الأسئلة الثابتة والتي لا يمكنني أبداً أن أجد لها جواباً مرضياً: لماذا لا يهتم العالم بنا؟ لماذا لا تتدخل الأمم المتحدة؟ لماذا أصبحنا مستبعدين من العالم؟

حين تقترب الساعة من العاشرة يرسل بضعة نداءات عبر الووكي توكي.

وأخيراً يولي عنايته بأمر حصولي على بطانية أخرى ويقول بأنه يمكنني أن أنام مطمئناً هناك على الرف الصخري ثم يودعني ويخرج سائراً في العتمة.

إنها ليلة رائعة يغيب فيها ضوء القمر ولكن النجوم تتلألأ في السماء.. لا يصبح الليل أبداً معتماً بحق.

تمر بنا أحياناً دوريات البيشمركه بصمت وأسمع صوت خطواتهم وألمحهم كالظلال. أحس من فوقي بجدار الصخرة شديد الانحدار.

أعيش، وأنا على التخوم بين اليقظة والنوم، وهماً قوياً: أن تنام تحت قبة سماء ساطعة النجوم في بلد غير موجود.. على رفَ صخري وعلى جبهة قتال كانت قبل فترة قصيرة مجال فوضى لقتال ضارٍ كان يتعلق بالحياة أو الموت، وحيث يمكن للجحيم في أي وقت كان أن يفتح أبوابه من جديد.. أن تنام هناك مع إحساس تام بالأمن والرضا.

أنام جيداً نوماً تغيب فيه الأحلام، أستيقظ مرة واحدة فقط خلال الليل وذلك حين كسرت بضعة انفجارات الصمت الذي كان يخيم على المكان، وأعرف من صوتها بأنها قنابل عراقية تسقط خلف الجبهة بينما لا تكلف المدفعية الكوردية نفسها عناء الرد عليها.

إنه صباح هادئ ورائق وأرى الطباخ يبدأ بتجهيز طعام الإفطار على قليل من النار. أكتشف أن قائد الفرقة مصطفى قد نام في فجوة بين صخرتين قريباً من جدار الصخرة ليس بعيداً من مكاني وأراه الآن وهو يعد نفسه للقاء يوم جديد.. يشد عمامته على رأسه ويلف (شاله) الطويل والذي يرتديه كل بيشمركه على وسطه ويعلق كل أحزمة الرصاص ويحمل كلاشينكوفه على كتفه. أتناول طعام الإفطار سويةً معه.. يقدمون الخبز وقطع كبد مشوية وبندورات حلوة وعنب وبالطبع الشاي. أسأله ما إذا كان قد حدث شيء خلال الليل فيقول:

- لا كان الليل هادئاً.

يقبل واحد من البيشمركه ومعه رسالة يعطيها للقائد الذي ينظر فيها ثم يناولها أحد معاونيه والذي يقرؤها له بصوت عال. يتضح لي الآن فقط أن قائد قوة الدفاع الكوردية على أهم جبهة من جبهات القتال لا يعرف القراءة ولا الكتابة. لم يسبق لي أن فكرت بذلك من قبل، والآن يتضح لي فجأة أن هذه المعرفة- معرفة القراءة والكتابة- التي كنت أعتبرها سابقاً شيئاً لا غنى عنه هي تماماً بلا أهمية.

يجيء فاضل، القائد الشاب للمجموعة المضادة للدبابات، سائراً ويتباحث لفترة قصيرة مع مصطفى الذي يستخدم بين الحين والآخر جهاز الووكي توكي. يبدوا واضحاً أن المحارب القديم الأمي وطالب الجامعة الشاب فاضل يكنان لبعضهما الاحترام والتقدير المتبادلين. يقول لي فاضل:

- إننا نعاني مشكلة وهي أننا يجب أن نحاول تأمين سيارة جيب مضادة للدبابات جديدة بدلاً من التي دمرت أثناء الغارات الجوية يوم أمس، فيمكن للدبابات في أية لحظة أن تقوم بالهجوم من جديد ووقتها يجب أن نكون جاهزين.

أرافق فاضل حين يرجع نازلاً إلى مكان استراحته في ذلك المسيل الواقع أسفل الجبل، ولكننا قبل أن نصل هناك نسمع هدير طائرة في الجو، وعلينا أن نركض القسم الأخير من المسافة كي نبحث عن ملجأ في المغاور الكائنة أسفل تلك الصخور الكبيرة. إنها طائرة ميغ تجيء محومة في الأعالي وباحثة عن فريسة، ومن جديد أحس بذلك الرعب العاصف والذي تسببه المعرفة بأن ذاك الذي يجلس

هناك في الأعالي خلف عصا القيادة فيها يبحث عن شيء يتحرك على الأرض وأنه يمكنه في أية لحظة أن يقبل هابطاً مثل صقر يطارد فأراً، ولكن الطائرة تتابع التحليق وتغيب باتجاه الشمال.

أرجو من فاضل أن يحكي لي عن الصراع ضد الدبابات وأقول له:

- أحك لي بالتفصيل ما حدث.

وهذه هي رواية فاضل:

- كان لدينا خمس سيارات جيب مضادة للدبابات، مجهزة بالصواريخ. إنها أمريكية وفعالة جداً، وأنا لا أعرف كيف حصلنا عليها. لقد كنا قد تدربنا جيداً على إطلاق تلك الصواريخ. يتألف طاقم كل جيب من أربعة أشخاص يجلس أحدهم خلف المقود والى جانبه قائد المجموعة، ومهمة الثالث هي توجيه ماسورة المدفع بمساعدة جهاز توجيه، وأما الرابع فيقوم بشحنه بالصواريخ. نستطيع أن نطلق في كل الاتجاهات ولمسافة كيلومتر ونصف.

والآن كنا تركنا سيارتين منها للاحتياط هنا خلف الجبهة وتوجهنا بثلاث منها إلى الخطوط الأمامية، فقد أدركنا بأنهم سوف يقومون بالهجوم في الصباح. أثناء الليل صعدنا بسيارتين إلى تلة صغيرة كانت ذات موقع مناسب وموهناهما هناك بأغصان الشجر المورقة، لقد حسبنا حسابنا بأن الدبابات العراقية سوف تتقدم عبر ذلك الممر بين جبلين.

وفي الساعة الخامسة صباحاً بالضبط وحيث كان النهار يبدأ بالإضاءة، رأينا أن الدبابات العراقية قد باشرت تحركها وقد كانت قوة عظيمة كاملة. لقد رأيناها من مسافة بعيدة وعرفنا أن كل شيء كان متوقفاً علينا لأننا وعلى هذه الجبهة ما كنا نملك سلاحاً آخر مضاداً للدبابات سوى سيارات الجيب هذه. كان الأمر يتعلق بعدم فتح النار مبكراً وقد انتظرنا إلى أن أصبحت المسافة بيننا أقل من كيلومتر فقمنا بإطلاق الصواريخ الأولى من كلتا السيارتين وقد أصابت كلتا القذيفتين الهدف.. لقد رأينا كيف انفجر الصاروخان مباشرة في الهدف. الوابل الثاني والثالث من القذائف أصابا أيضا أهدافهما.

وبعدها أصبح الوضع عبارة عن ((نحن وهي)) فحسب، فقد تخلت الدبابات عن التقدم وتوقفت في مكانها.. لم تقترب واحدة منها أقل من 800 متر منا، وهكذا فحين كانت تقف ساكنة كانت إصابتها بالطبع أسهل لنا، ولكن كان أسهل لها أيضا أن تصيبنا. لقد رمونا بالمدافع الآلية والرشاشات ولكنهم أخطؤونا طوال فترة الاشتباك لأننا طبعاً كنا نتنقل فوق التلة بلا انقطاع، فالمرء يستطيع فقط أن يطلق ثلاث أو أربع قذائف في كل مرة وبعدها عليه أن يغير موقعه لأن هذه الصواريخ تصدر لهباً قوياً من فوهتها، وقد كان ذلك سبباً في كشف موقعنا، وهكذا فقد سقنا السيارة أماماً وخلفاً وصعوداً ونزولاً على تلك التلة. لا أعرف على وجه التحديد كم من الدبابات قد دمرنا، ولكننا نعتقد أنها كانت على الأقل ثلاث عشرة دبابة.

لقد أطلقنا إلى أن انتهت القذائف الصاروخية في سيارتي وحدث خطأ ما في ماسورة المدفع في السيارة الثانية وهكذا فقد كنا مضطرين إلى مغادرة المكان بعد أن نجحنا في إيقاف الدبابات التي لم يعد بإمكانها الاستمرار في التقدم. أتينا بواحدة من السيارات الاحتياطية وجلبنا كمية كبيرة من الصواريخ، إلا أنه كان من غير الممكن لنا الوصول إلى المواقع السابقة نفسها فرمينا من الطريق وقد كانت زاوية صعبة جداً ومع ذلك فقد دمرنا دبابة وقطعة مدفعية وأرغمنا الأخريات على التوقف في

مرتفع من الأرض حيث لا تزال تقف هنا، وبعدها قمنا بمحاولة للتقدم بسيارتين إلى موقع أفضل وحينها سنحت لهم الفرصة لإصابة سيارتي التي استشهد سائقها على الفور وأصيب الآخران بجراح خطيرة، وأما أنا شخصياً فقد سلمت ولم أصب بأي جرح تماماً كما جرى الأمر مع هجوم طائرة الميغ يوم أمس.. من المؤكد أنه لم يحن دوري بعد.

حين يروي فاضل ما حدث له ولمجموعته أفهم أن هذه يجب أن تكون واحدةً من أكثر حوادث الحرب غرابةً. لقد جرت في التاسع من أيلول من عام 1974 وحينها لم يكن هناك أي صحفي أو مصور على الجبهة ولكن بالرغم من ذلك فإن تصور المشهد سهلٌ:

كمن على الجبل عدة آلاف من محاربي البيشمركه على أتم الاستعداد وهناك في الأسفل من السهل أقبلت متدحرجةً قوة عظيمة تتألف من نحو مائة دبابة روسية الصنع.. كان يوجد بمواجهتها كلاشينكوفات وبنادق تشبه لعب الأطفال. لقد كان الهجوم الكبير الأول في هذا القسم من الجبهة، وقد عهد بكل عملية الدفاع ضد الدبابات إلى ثمانية شبان جاءوا من الجامعات والمعاهد قبل عدة أشهر، وقد كانت هذه معركتهم الأولى. بينما كان محاربوا البيشمركه فوق الجبل يتفرجون، راح هؤلاء الفتية يطلقون النار على الدبابات ونجحوا في إعاقة أكبر هجوم للجيش العراقي حتى ذلك الحين.

وأتأمل مفكراً وأقول:

- إنه أمر غير معقول كلياً.

ويقول فاضل:

-أجل، فلقد تأملت أنا أيضا في الأمر ولكني لا أزال غير قادر على فهمه. إنه غير معقول بالنسبة لي كما بالنسبة لك. لايمكن فهم ذلك، ولو كنت متديناً فبالتأكيد كنت سأقول بأن الله هو الذي ساعدنا ولكني لا أؤمن بمثل هذه الأمور.

- لا بدَّ أنكم كنتم مذعورين؟

- لا، لقد كان الفتية كلهم شجعان ولم يفقد أحد صوابه. أنت تعرف بأننا كلنا مستعدون بالطبع للموت ولسنا خائفين منه. لو خسرنا هذه الحرب فلن يبقى لدينا شيء نعيش من أجله.

ويجلس عندنا شاب يقدمه فاضل إلي قائلاً:

- هذا هو ملا علي كريم وهو أعز صديق لي، لقد دمر ثلاث دبابات في المعركة وعمره أربع وعشرون سنة فقط، ولكنه مشارك في الثورة منذ عام 1965.

يطلب فاضل من علي أن يحاول جمع البقية من المجموعة المضادة للدبابات لأني سألتقط صورة لهم. ونذهب إلى إحدى سيارات الجيب المضادة للدبابات والتي أوقفوها في الظل وموهوها بأغصان الشجر المورقة. يأتي أغلب الفتية إلى هناك ويظهرون سلاح الصواريخ ويوضحون كيف يعمل التوجيه، ولكني لا ألحق أن آخذ الصورة بجانب الجيب لأننا في تلك اللحظة بالذات نسمع هدير طائرات ويضيق الوقت فيسارعون إلى إعادة تمويه الجيب بالأغصان قبل أن نجري صاعدين نحو

قمة الجبل إلى أحد الشقوق لنحتمي به. إنها طائرة ميغ في جولة استطلاعية من جديد ولكنها تطير عابرة من فوقنا دون أن تهاجم. وأتساءل: ألم ير الجيب بالرغم من أنها تقف مكشوفة تماماً بجانب الطريق؟ ويجيب فاضل:

- نعم فلو رأها لقام على أغلب الظن بالهجوم، فالجيب كانت في الظل تماماً وبذلك فإنها لا ترى من الجو فالظلال هنا سوداء جداً.

أرافق فاضل لأرى المكان الذي جرت فيه تلك المعركة الغريبة، ولأرى الدبابات العراقية التي أتخذت مواقعها هناك في الأعالي بين التلال، وهناك حيث أوقفها فاضل ورفاقه. المسافة إلى هناك تقدر ببضعة كيلومترات وكانت يمكننا أن نستقل سيارة جيب ولكني بشكل من الأشكال كنت مرعوباً من الجلوس في الجيب في الوقت الذي تبحث فيه طائرات الميغ من الجو في الأعالي عن فريسة، وأفضل أن أمشي على قدمي ويقول فاضل بأنه يفهمني.

لقد نصب الكورد على الطريق كله مدافع مموهة بشكل جيد ويقوم عليها كلها شبان في مقتبل العمر. لو حاولت الدبابات العراقية اختراق الجبهة فعليهم أن يتقدموا على طول هذا الطريق ولهذا فقد تم إعداد الدفاع من الخطوط الخلفية. والطريق عميقاً في أسفل ذلك الوادي الضيق مزروع بالألغام ونضطر إلى الهبوط من الجبل متجنبين الطريق.

يصاحبنا قائد كتيبة اسمه ((العم بجان)) الذي يحكي فاضل بأنه كان مع مصطفى البارزاني في روسيا. حين يسمع بجان بأني سويدي تحضر في ذهنه حالاً ذكرى كارل الثاني عشر ومعركة بولتافا، ويقول لي:

- لقد خسرتم تلك المعركة، أليس كذلك؟

يتجاوز عمره الستين، يعرج عرجاً خفيفاً، ويستعمل العكازة حين يسير ومع ذلك فهو سريع في سيره. نهبط إلى مسيل أحد الأنهار الصغيرة ونأخذ قسطاً من الراحة على صناديق ذخيرة فارغة واستغل الفرصة لأسأل بجان عن حياته في روسيا.

لقد التجأ إلى هناك مع البارزاني بعد أن جرى سحق جمهورية مهاباد، ولبث في الاتحاد السوفييتي أثني عشر عاماً وقضى في البداية عامين في الجيش الروسي وعمل فيما بعد للحزب الديمقراطي الكوردستاني والذي كان قد تشكل في ذلك الوقت. درس في المدرسة الحزبية الشيوعية في (طشقند) بينما درس البارزاني في معهد عسكري روسي ودرس كل شيء عن ماركس ولينين وهيغل وغيرهم من الرواد الشيوعين. ويقول بجان:

-ولكن هذا لا يعني أنه أصبح شيوعياً. نحن لسنا بشيوعيين، نحن ديمقراطيون.

لقد كانوا حوالي 500 شخص في المجموعة التي فرت من العراق، تزوج ما يقارب المائتين منهم من روسيات.. والحقيقة هي أنهم عندما التجئوا للسوفييت لم يسمح لهم بالإقامة في المناطق الكوردية في الاتحاد السوفييتي وكان عليهم أن يسكنوا في (طشقند). لقد تزوج بجان أيضا من روسية.

في عام 1959 جاء إلى العراق وسكن في بغداد حيث كان معلماً للغة الروسية في المدرسة العسكرية العليا، ولكنه انضم إلى الثورة الكوردية في عام 1961 واستمر في التعاون مع البارزاني. بقيت زوجته الروسية وابنتاه في بغداد ولكنهما أبعدتا إلى الاتحاد السوفييتي عام 1963 دون أن يكون له علم بذلك. إنه الآن متزوج من جديد وبامرأة كوردية وله منها ثلاث بنات وولد. يقول العم بجان:

- البارزاني بالنسبة للكورد هو بمثابة روبسبير بالنسبة للفرنسيين وماو تسي تونغ بالنسبة للصينيين. إنه القائد الكبير لثورتنا.

ندور حول الجبل متسللين ودليلنا هو العم بجان. الطريق أصيب بالخراب من جراء القصف وثمة بقايا سيارة شاحنة محترقة.

نتقدم متسللين بحذر بين الشجيرات إلى مكان نستطيع أن نرى منه الدبابات العراقية وهي تقف على مرتفع من الأرض. إنها مموهة بأغصان وأوراق الشجر ومع ذلك، فإنها ترسم ملامحها بوجه السماء بوضوح تام، وهي تسيطر من المرتفع على مسافة قصيرة من الطريق.. بقايا السيارة الشاحنة هي بالطبع شاهدة على ذلك. لقد منعها فاضل ورفاقه من الوصول إلى الطريق ولكن بالرغم من ذلك فقد حققت الحكومة من خلال هجوم الدبابات هدفها بشل حركة المرور على الطريق، وهذا هو السبب في أن كل حركة باتجاه الغرب يجب أن تمر عبر ذلك الطريق الأطول بكثير في الشمال والذي قطعته البارحة. حين نتسلل عائدين من وراء الجبل يقول بجان:

- لم يرونا، فلو رأونا لكانوا قد رمونا.

يحكي فاضل عن بجان قائلاً:

- إن العم بجان هو رامٍ رائع، لقد أصاب قبل عدة أيام ثلاثة عراقيين من مسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر وبثلاث رصاصات.

نركب واحدةً من سيارات الجيب المضادة للدبابات عائدين، لا نلمح في السماء أي طير من الجوارح، ولكن حين نجلس فيما بعد ونتحدث خلف صخرتين كبيرتين تعود طائرة الميغ وتقوم بحركتي التفاف كبيرتين فيعلق فاضل قائلاً:

- سوف تعود مرةً ثالثة فهم معتادون على القيام بذلك.. أولاً حين يبحثون عن شيء لمهاجمته يقومون بدورتين، وإذا لم يجدوا شيئاً فإنهم يقومون في العادة بمهاجمة الجبهة هناك في أعلى الجبل.

ولكن في هذه المرة لا ترجع الطائرة للمرة الثالثة وتجري مضايقتها فقط بوابل من القصف المدفعي بين الحين والآخر، وتصفر القذائف أحياناً من فوق رؤوسنا محدثة صفيراً غريباً.

يخرج محمد شوقي الذي هو مسؤول جهاز الدفاع ضد الدبابات كله في هذا القسم من الجبهة، كتاباً إنكليزياً عن الطائرات ويريني الطائرات التي يملكها العراقيون والتي تقوم بالغارات على كوردستان. إنها: قاذفة المسافات البعيدة والطائرة الاستطلاعية توبولوف 22. والطائرة القاذفة والمقاتلة وذات المقعد الواحد سوخوي su-11، والطائرة المقاتلة سوخوي su-7M، والطائرات

المقاتلة ميغ 17 وميغ 19 وميغ 21، وطائرة الهليكوبترالثقيلة ميل K-M110 والتي لم تعد ترى منذ أن جرى إسقاط اثنين منها في بداية الحرب.

يبلغ شوقي سبعاً وعشرين سنة من العمر، وقد كان ضابطاً في الجيش العراقي. ويقول بأنه تطوع فيه منذ أن كان في الثانية والعشرين فقط من أجل أن يكتسب معارف وخبرة لاستخدامها في الكفاح الكوردي من أجل الحرية.

حين اندلعت الحرب في آذار فرّ من الجيش العراقي مباشرة والتحق بقوات البيشمركه.

في حرب تشرين 1973 اشترك في الهجوم العراقي على إسرائيل ولكنه لا يوفر الكثير عن كيفية إدارة القادة العسكريين العراقيين لتلك الحرب، يقول:

- لقد انطلقنا- لواء كامل- من بغداد ولم نتوقف طوال مسافة الطريق كلها حتى الجبهة في سورية، وجاءتنا الأوامر بعد ذلك بالقيام بالهجوم مباشرة دون أخذ أي قسط من الراحة ودون أية خطة على الإطلاق، وكانت النتيجة أن سريتي كلها طوقت مباشرة من قبل القوات الإسرائيلية، والوضع كان كارثياً، وتم إنقاذنا من خلال زج سرية أخرى اخترقت الطوق الإسرائيلي بحيث استطعنا القيام بالانسحاب، وقد كانت تلك هي تقريباً كل المساهمة العراقية في تلك الحرب.

يطلب شوقي منا أن نرافقه إلى مكان استراحته والذي يقع بعيداً في الطرف الآخر من ذلك الوادي الصغير ويدعونا إلى طعام الغذاء هناك. يقدم مع الرز علبة سردين كانت قد أخذت من جندي عراقي قتيل، ويعلق:

- يحمل الجنود العراقيون دائماً معهم زاداً كثيراً بينما لا يفعل البيشمركه ذلك نحن نكتفي بالشاي والخبز إن لم نحصل على طعام آخر.

أسألهم عن الظروف المعيشية للبيشمركه.. هل يحصلون على راتب على سبيل المثال؟ فيجيب فاضل:

ليس مباشرة، فالأمر هو أني على سبيل المثال أقبض 32 ديناراً في الشهر عن رجالي الذين يبلغ عددهم 20، وبهذا المبلغ أشتري السجائر والشاي وما شابه.. إن احتاج أحدهم شراء شيء فسيحصل مني على النقود.

البيشمركه الذي لديه عائلة يستحق نقوداً من أجل نفقاتها، ولكن لا يوجد مبلغ ثابت، وإنما يتحدد بحسب حاجته، فالذي لديه عشرة أطفال يستحق أكثر من الذي لديه خمسة.

وأقول مستفهماً:

- أنا أفكر بشيء.. كيف تتدبرون أموركم دون نساء لفترة طويلة؟

يجيب فاضل:

- إنها مشكلة كبيرة، فالعديد من البيشمركه يقضون على الجبهة فترة شهرين دون انقطاع، ومع ذلك فيحدث أن المتزوجين تسنح لهم مرة على الأقل فرصة زيارة زوجاتهم. ولكن الشبان غير المتزوجين.. لا توجد لهم أية نسوة. لدينا في كوردستان قواعد صارمة بهذا الخصوص. من الواضح أن الأمر صعب ولكن ذلك هو جزء فقط من التضحية. سنتغلب على هذه الصعوبة!

ويحكي لطيف:

- لقد رافقت في إحدى المرات صحفية إلى الجبهة، وعلى ما أعتقد كانت أمريكية. لقد حاولت أن أجعلها تفهم بأنه عليها ارتداء ثياب لائقة ولكنها لم تفهم شيئاً. لقد كانت تتجول مرتدية بنطلون جينز ضيق جداً وقميصاً شفافاً ولم تكن ترتدي حمالات الصدر. لو أنها فقط فهمت ما كانوا ينادونها به وماذا كانوا يقولون عنها فيما بينهم! لقد كانوا بالطبع يثيرون الشفقة، فلم يحدث أن رأوا امرأة لشهور وأتت هي وتجولت على ذلك النحو، وفي كوردستان! لم تكن تلك المرأة تملك أي عقل، أي عقل أبداً.

بينما نحن جالسون هناك يمر بنا البيشمركه كل الوقت، ويجلس بضعة منهم برهة ليستريحوا. يحيي فاضل وشوقي واحداً منهم تحية حارة متميزة، ويوضح فاضل قائلاً:

- إنه الأخ نوري (كاك نوري)، لقد قدم مع بيشمركته ليساعدنا على هذا القسم من الجبهة فكاك نوري جدّ مشهور.

لا يعتمر أية عمامة ولا يلف أي شوتك على وسطه، توحي قسمات وجهه بقوة إرادة مركزة.. عيناه نصف المغمضتين تحت الحاجبين الأسودين والكثيفين، جبهته التي دبت فيها تجاعيد خفيفة وذقنه الداكنة. يقول فاضل:

- لقد استعاد كاك نوري مع 90 من البيشمركه جبل كورا؛ لقد كانت مأثرة.

نوري في الثالثة والثلاثين من العمر وهو من مدينة (السليمانية). كان قد التحق بالثورة منذ 1962 بعد أن أنهى فترة التعليم المدرسي وقد شارك في الكفاح منذ ذلك الوقت. أطلب منه أن يتحدث عن المعركة على جبل كورا ولكنه قليل الكلام جداً.

لقد كان ذلك في السادس عشر من آب كانت القوات الحكومية قد احتلت هذا الجبل بعد معارك طاحنة، ولكن الجبل كان مهماً جداً من زاوية استراتيجية.. كان يجب أن يستعاد. لقد أسندت إلى كاك نوري مهمة صنع المستحيل وقد اختار أن يهاجم مع 90 فقط من البيشمركه الشبان المنتقين والمسلحين بالكلاشينكوفات فقط. لقد هاجموا في الساعة السادسة صباحاً وصعدوا إلى الجبل في ظل حماية من نار المدفعية وقاتلوا لمدة ساعتين قوة عراقية مؤلفة من 500 شخص وقتلوا أكثر من 200 من الجنود والضباط العراقيين وفي النهاية هرب الباقون منهم، وأما من البيشمركه فقد أستشهد 13 وجرح 35.

والآن فقد أرسلوا في طلب نوري من أجل الدفاع عن كيروي عمر آغا وهو قادم من جبهة السليمانية مع مائتي رجل، وبالرغم من أن المعارك عنيفة هناك أيضا، إلا أن الوضع على جبهة بالك أكثر تأزماً وهم يحتاجونه أكثر هنا.

أسأله عن بيشمركته فيقول:

- كل البيشمركه أبطال، كلهم محاربون باسلون، ولكن رأيي هو أن الشبان يحاربون أفضل من المسنين وكل رجالي من البيشمركه من الشبان.

يغادرنا نوري ليبحث عن مصطفى ويقول فاضل:

- سيساعد كاك نوري كاك مصطفى في تحصين إجراءات الدفاع هنا، ولكني أعتقد أن نوري يريد أن يقوم بالهجوم.

نحن لا نقوم بالهجوم إلا مكرهين.. لا أحد من البيشمركه يقوم بذلك بملء رغبته، فهذه الحرب التي نخوضها، كما هو معروف، حرب دفاع عن النفس ولا طاقة لنا بالتضحية بحياة الناس، ونعرف أن المهاجم يخسر عدداً أكبر في الأرواح من المدافع، ولكن كاك نوري يرى أننا يجب أن نهاجم القوات العراقية هنا في وادي راوندوز ونبيدهم.

لقد عرض أن يخطط للهجوم وأن يقوده.

بينما كنا جالسين هناك حل الغروب، ويشعلون ناراً من الأعشاب اليابسة والقش من أجل الضوء أكثر من أن يكون من أجل الدفء، نجلس طويلاً ونتحدث على ضوء النار، وألمح هناك في أعلى الرف الصخري مصباح الكيروسين في مقر القائد.

حين تهمد النار أكون قد رحت في النوم هناك. كان علينا أن نعود إلى جومان في تلك الليلة ولكن السيارة التي كانت ستأخذنا لم تأت أبداً.. ربما لأن السائق رفض أن يسوق. أصبح لطيف قلقاً لذلك.. ولكن في الحقيقة ليس الأمر بذات الأهمية عندي. أنا أفضل أن أبقى هنا بين الرجال الذين على الجبهة.

يوقظني لطيف مرة في منتصف الليل ويقول بأن شاحنة عسكرية قد جاءت بالذخيرة ويمكننا أن نعود معها، ويضيف:

- نستطيع أن ترجع إلى الجبهة فيما بعد.

ربما أفعل ذلك.

أردت أن أصبح مواطناً سويدياً

لم أكد أفارق الجبهة حتى بدأت أحن إليها والى الرجال هناك ولكن الانتظار بضعة أيام في جومان كان بالنسبة لي ضرورياً.. فبالطبع أريد أن أقابل بعض القادة الكورد وأفضل أن يكون الجنرال بارزاني نفسه.

يجتمع في قصر السلام- دار الضيافة التي أحل فيها- أغرب الشخصيات من مختلف أنحاء العالم. وبطبيعة الحال يجب أن أعد نفسي أيضا من بينهم.

أصاحب أكثر من أصاحب المترجمين الشبان، شمال وسيامند، اللذين بعد عدة سنوات من الدراسة في لندن عادا إلى كوردستان ليساهما بقسطهما في الحرب وكلاهما يمتلكان خبرة كبيرة في السياسة الدولية، وفي الوقت نفسه يستطيعان أن يجيبا عن كل الأسئلة عن كوردستان.

أتجنب أن أقضي الوقت مع الزوار الأجانب، ولكني بالطبع ألتقيهم أحياناً أثناء الطعام.

الصحفيون المحترفون هنا ليسوا كثراً، وفي أحد الأيام يظهر أمريكيان.. أحدهما من أسوشيتد برس والآخر من نيويورك تايمز. إنهما هنا لفترة ثلاثة أيام فقط، ولكنهما يعملان بشكل مركز، ويعمل شمال وسيامند جهدهما في أن يعود هذان الصحفيان بخبر يأملان أن يصبح عناوين بارزة في الصحافة العالمية: عن التدخل الروسي القوي في العراق. بيد أني لا أرى أبداً أية نتيجة لزيارتهما.

وثمة فريق تلفزيوني هولندي يصور فيلماً عن الثورة، نقطة الانطلاق فيه هي عائلة كوردية؛ من المؤكد أنه سيصبح فيلماً جيداً لأنهم يعملون بتركيز وبعزم. هدفهم الأساسي ليس وصف الحرب، ولكنهم يزورون في أحد الأيام الجبهة ويعودون شبه مذعورين؛ لقد وجدوا أنفسهم في وسط غارة جوية ويقولون بأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من الموت.

ويوجد أيضا فرنسي شاب يبدو أنه لا يوجد أحد يفهمه حقاً. لقد صار له في كوردستان ستة أشهر ويزعم أنه يعمل في تحضير رسالة دكتوراه عن الكورد، وبالإضافة إلى ذلك تراه أحياناً مشغولاً مع آلة تصوير سينمائية 16 ملم قديمة جداً، ويدعى بأنه يرسل مقالات إلى صحيفة فرنسية. هو متقلب المزاج إلى أقصى حد وكتوم ونكد في أغلب الأحيان.. يحدث أنه يدخل في نقاشات حادة مع مضيفيه الكورد، ويبدو لي سعة صدورهم تجاه أمراً غير مفهوم.

وثمة شاب تركي جاء إلى هناك من دون دعوة.. لقد تخطى الحدود بشكل غير شرعي ويزعم أنه مخرج تلفزيوني. الغريب في الأمر أنه لا يتكلم سوى التركية.. لا يستطيع التكلم بالإنكليزية أو الفرنسية. من الواضح أنه صور لنفسه أنهم يتكلمون التركية في كوردستان العراقية أيضا. بشكل من الأشكال ينجح في توضيح مهمته.. أنه يريد أن يصور فيلماً تلفزيونياً عن الجنرال البارزاني. وبما أنه لا أحد يستطيع التكلم معه فهو يقضي معظم أوقاته بالتجول في الأنحاء مثل أصم أبكم، وعلى شفتيه ترتسم دائماً ابتسامة، الأمر الذي يرهق المحيطين به. الكورد مدركون أن احتمال كونه جاسوساً هو كبير، ومع ذلك يعاملونه بالكرم نفسه بينما يبحثون ويحققون في خلفيته.

سيبقى عشرة أيام.. يوضح لهم بأنه هو الشخص الذي يدعى أنه هو، ويؤكدون له بأنهم يرحبون بعودته ولكن بشرط أن يكون برفقة أحد يعرف الإنكليزية أو الفرنسية.

ثمة شابان نمساويان قد قدما أيضا سيراً على الأقدام عبرة الحدود التركية يرتديان السراويل القصيرة، وكما لو أنهما في جولة على جبال الألب. لقد أهتم بهما بعض القرويين في (برواري بالا) ورافقوهما إلى اسعد في مقر قيادة الجيش.. وأرسلهما اسعد بدوره إلى جومان. سيمكثان أسبوعا ويغادران كوردستان فيما بعد عبر الطريقة المألوفة التي تؤدي إلى إيران.

ولكن قبل كل شيء: دكتور إلكساندر.

حين أرجع من الجبهة في منتصف الليل ألقاه متمدداً على السرير الذي اعتبرته سريري. أجد سريراً آخر خالياً ولكن بعد أن أكون قد عبثت في الغرفة بحيث تسببت في إيقاضه ويقول:

- صباح الخير! هل لديك سيجارة؟

الدكتور إلكساندر- اسمه الكامل ألكساندر ل. آرونسون- قد جاء من إيران وهو يسوق سيارة مرسيدس صالون مجهزة مثل عيادة طبيب مصغرة. لقد تجول دائماً حول العالم بهذه الطريقة.. ينتقل إلى تلك المناطق يعتقد أن ناسها هم بحاجة إليه. لا يطلب أي معاش عن خدماته ولكنه يقبل بالأكل والسكن.

أنه ضخم وقوي ويحمل شارباً غليظاً يثير الإعجاب حتى بين الكورد. يباشر الخدمة حالاً في مستشفى جومان ولكن المقام لا يطيب له هناك.. لديه أفكار متطرفة وعلى ما يبدو عقلانية جداً عن العناية الطبية وكيف يجب أن تكون، ولكنه لا يلقى آذاناً صاغية لاقتراحاته. يمتلك خبرة عملية عظيمة.. كان في بيافرا والهند وعديد من بلدان أخرى تعرضت للحروب أو الكوارث الطبيعية.. وقد علم نفسه إيجاد الحلول البسيطة لمعظم المشاكل، ولكن الأطباء الكورد الذين جاءوا من مستشفيات مجهزة بمعدات جيدة في بغداد وغيرها من المدن الكبيرة العراقية لا يستطيعون أن يفهموه.

حين يقترح أنه يجب تعليم النساء معالجة أطفالهن الصغار الذين يعانون من آلام البطن بإعطائهم مغلي من الرز ليشربوه بدلاً من إتخام الطفل بكميات كبيرة من الدواء لا يتحسن بها، يذهب الأطباء الكورد إلى أن ذلك مستحيل، فالأم تطالب كما هو معروف بأن يحصل طفلها على الدواء، النصح باستعمال مغلي الرز لا فائدة منه فهي لن تقبل بذلك.

وحين يقترح الدكتور ألكساندر أن يقوموا في كل مساء بصنع مغلي من الرز في المستشفى ووضعه في زجاجات تزود فيما بعد بالملصقات يهز الأطباء الكورد برؤوسهم ويعتبرونه فاقداً لصوابه.

عندما ألتقي الدكتور ألكساندر في كل مساء أجده ساخطاً دائماً على شيء قد حدث في المستشفى.. يصعب عليه الاتفاق مع زملائه من الأطباء الكورد. إنه يفكر أن يأخذ سيارته ويغادر إلى مكان آخر يستطيع فيه أن يعمل بحرية وباستقلالية.. ويقول بأنه إن لم يسمح له بذلك فسيسنى كوردستان ويواصل جولته إلى الهند.

وحين أسأله كيف يتأتى له أن يمول جولاته الطبية حول العالم يجيب قائلاً:

- أملك بعض الثروات.

لديه زوجة وابن في الرابعة عشر من العمر في بلده هولندا. إنه بلا شك إنسان فريد.. شخصية لا تنسى وأتفق معه بشكل جيد.

في ذلك اليوم الذي قابلت فيه الدكتور كمال في مدينة الخيم التابعة لدائرة الإعلام التقيت رجلاً سألني ما إذا كنت من إنكلتره، فأجبته:

- لا، من السويد.

- حقاً؟ نستطيع إذن أن نتحدث بالسويدية معاً.

كان رده بالسويدية كادت أن تكون خالية من اللكنة.

لقد كان سعيد دزَيي، أحد الكورد الذين درسوا في السويد. وقتها لم نملك الوقت للتكلم معاً والآن أبحث عن سعيد.. يعيش في منزل يكاد أن يكون من دون مفروشات، بالقرب من دائرة الإعلام، وهو سعيد لقدومي.

وهكذا ألقي هنا أخيراً إنساناً سويدياً- كوردياً.. رجل عاش في السويد فترة طويلة تكفيه لأن يتعلم فهم السويد والسويديين ولكنه الآن يعيش بين شعبه.

سعيد دزَيي هو واحد من أولئك الذين يعيشون في عالمين ويفهمهما كليهما.أطلب منه أن يحكي عن حياته.

هو في الخامسة والثلاثين من العمر.. لو طلب مني أن أخمن عمره لقلت بأنه أكبر ولكني توصلت إلى أني لا أستطيع أبداً أن أحدد الأعمار هنا بشكل صحيح. ولد في المدينة التاريخية (أربيل) التي كانت في الحقيقة ستكون عاصمة كوردستان ولكنها الآن تراجعت أمام مدينة النفط (كركوك). ويحكي لي سعيد:

- تزوج والدي ثلاث مرات وكان لدي 20 من الأخوة وأنصاف الأخوة؛ تسعة أخوان وإحدى عشرة أختاً. كانت عائلتي تملك الكثير من الأرض. أثناء ثورة 1958 في العراق صودرت أرضنا وعانت عائلتي حينها مصاعب كثيرة، والسبب هو أن الأرض كلها كانت باسم والدي ولذلك لم نحصل تقريباً على أي تعويض.. سمح لنا بالاحتفاظ بقطعة أرض صغيرة اعتبروها كافية لعائلة واحدة. لم يصب العائلات الأخرى التي سبق وأن وزعت الأرض بين أفرادها ما أصاب عائلتنا، فأحد أعمامي على سبيل المثال كان قد وزع أرضه على جميع أولاده ولكن والدي لم يكن قد فهم ذلك، ولهذا فقد وجدنا أنفسنا فجأة بدون إمكانية العيش تقريباً.. لم نكن نملك بيوتاً ولا فعاليات تجارية، لا شيء سوى الأرض وما احتفظ به والدي منها كان يكفيه وحده فقط.

الهدف من الإصلاح الزراعي كان توزيع الملكيات الكبيرة، تقسيمها إلى إقطاعات صغيرة مستقلة، والفكرة من حيث المبدأ كانت صحيحة ولكنها طبقت بشكل خاطئ تماماً، فقد حصل الفلاحون الصغار على حصصهم من الأرض ولكن لم يكن لديهم النقود أو الآليات ولا شيء يشترون به البذار ويحرثون به الأرض، وكانت النتيجة أنهم بدؤوا مباشرة يتعرضون لاستغلال التجار في المدن وتراكمت عليهم الديون.. أصبح الإصلاح الزراعي تجربة فاشلة تماماً. في الماضي كان الإقطاعيون

هم الذين يملكون الأرض وقد أولوها، وبالرغم من كل شيء، نوعاً ما من الاهتمام، والآن صار يملكها الرأسماليون والمرابون في المدن، ولم يسبق للظروف التي يعيش فيها الفلاحون أن كانت بمثل ما هي عليه الآن من السوء.

- عام 1958وبينما كنا لانزال أثرياء، أرسلني أهلي إلى بغداد للدراسة في واحد من افضل المعاهد العالية هناك، وبعدها سافرت إلى انكلترة ودرست السياسة في جامعة لندن حتى عام 1964حيث رجعت إلى مدينة (اربيل).

حاول سعيد تأمين عمل في مدينته ولكنه فشل وبقي عاطلاً عن العمل مدة سنة.وكان مهيئاً للانضمام إلى الثورة الكوردية منذ عام 1965.

-ولكن بعد أن وزنت الأمور بوعي نبذت الفكرة، فقد فهمت بأني لن أكون على أية حال ذا نفع كبير. كان لدي حوالي 4000كرون سويدي غادرت بها إلى أوروبا دون أن يكون لي أي هدف معين. سافرت إلى إيطاليا وسو يسرة وألمانيا وفي النهاية ألقيت نفسي في الدانمارك حيث التقيت فتاة أمريكية قالت لي.((أنا أرى أن تسافر إلى السويد)).

وهكذا جاء سعيد إلى السويد وكان قد غادر العراق بجواز سفر مزور...لقد سلم نفسه إلى الشرطة السويدية معلناً عن هويته الحقيقية وحصل على اللجوء السياسي. درس في جامعة استوكهولم وحصل ثلاث درجات في العلوم السياسية وواصل الدراسة عل الإجازة في العلوم الإنسانية في السياسية الدولية.

وحين أنهى دراساته بعد خمس سنوات ونصف في السويد بدأ يبحث عن عمل، فقد أراد أن يخلد إلى الراحة في السويد.

-أردت أن اصبح مواطناً سويدياً وقد حاولت حقاً ذلك! كنت قد اشتغلت في مصنع في أيام العطل ولكني كنت متعباً من عمل المصانع... طبعاً كنت أريد الحصول على عمل آخر أستطيع فيه الاستفادة من دراساتي. فكرت بأن أتزوج من فتاة سويدية ولكن ذلك كان مستحيلاً تماماً. قلت للسويديين:((احكموا بأنفسكم، لقد قمتم بأودي لأكثر من خمس سنوات، فمن المعروف إني درست بمساعدة القروض الدراسية، والآن وحين أريد تأمين عمل أستطيع به رد الجميع ودفع الديون المترتبة علي... لا أحصل على أي عمل)). كنت خائب الأمل جداً وفي النهاية لم يكن بد من الاستسلام. ودعتُ فتاتي وسافرت عائداً إلى بغداد.

كان ذلك في بداية 1972وحصل سعيد في بغداد على الفور على وظيفة جيدة في القسم الخارجي في وزارة المالية. في بداية عام 1974عرض عليه عمل في (أربيل) مديراً لمخزن استهلاكي حكومي جديد فسافر إلى (أربيل) وعمل في التخطيط للمخزن الاستهلاكي الذي ماكان قد افتتح بعد، وبعدها اندلعت الحرب.

- في الحادي عشر من آذار وصلتني برقية من مدير العام في بغداد وفيها أمر لي بالتواجد

هناك. سافرت إليهم وسألتهم عما كانوا يريدونه مني فقالوا:((لقد أرسلنا في طلبك لأننا لا نريدك أن تنضم إلى الثورة)). مكثت في بغداد مدة أسبوعين ثم رجعت إلى أربيل وأخذت سيارة أجرة من

هناك ورجوت السائق أن يأخذني إلى جومان، وكان قد سبق لآلاف من سكان أربيل أن غادروها وكلهم قد ذهبوا مشياً على الأقدام ووصلوا جومان بعد أسبوع من المصاعب الجمة لأن الطقس كان سيئاً جداً مع المطر والبرد. لقد أقدمت على مخاطرة كبيرة حين أخذت سيارة أجرة بدلاً من المشي.. طبعاً كانت تلك فكرة مجنونة، ولكني لم أستطيع أن أتصور إمكانية تحمل مسيرة طويلة جداً، وقد حدث اللامعقول وعبرت كل نقاط التفتيش وحواجز البوليس! ولا يزال الكثير من الناس لا يصدقون روايتي بأني ذهبت بسيارة أجرة من أربيل إلى جومان.

كان سعيد منذ سنوات الدراسة في إنكلترة نشيطاً في الحركة الكوردية، وواصل فعاليته هذه في السويد وكان يكتب مقالات صحفية ويلقي محاضرات، وكان واحداً من القياديين في اللجنة الكوردية في استوكهولم.

كان قد قرر منذ فترة طويلة أنه لو اندلعت الحرب من جديد فسيلتحق بالثورة وحين قدم إلى جومان كان مستعداً لتأدية قسطه في المجال الذي هو خبير به، وهو الآن يدير قسم البرامج الإنكليزية في إذاعة كوردستان ومن ضمنها تعليق سياسي يومي يكتبه سعيد نفسه. ومثل بقية المثقفين كلهم والذين تدفقوا على كوردستان بعد اندلاع الحرب، يعمل من كل قلبه للثورة ويعيش دون تذمر حياة قاسية خالية من وسائل الراحة ومن المتعة ومن النساء.

أصغي إلى التعليق السياسي لإذاعة كوردستان والمكتوب من قبل سعيد، وهو في هذا المساء يتناول عجز الأمم المتحدة:

((إن ما يحدث في كوردستان هو إبادة شعب وتمييز عنصري وحرب إبادة.الأعمال الوحشية والإرهاب في العراق هي جرائم لا جدال فيها بحق قوانين الأمم المتحدة. إرهاب البعثيين في كوردستان هو تحدٍّ صارخ لمبادئ الأمم المتحدة وأهدافها، مثلما هو تحد لكل القوانين الإنسانية المعترف بها على مر العصور من قبل كل الشعوب العالم المتحضرة.

وبالرغم من كل ذلك، فقد أصبحت الأمم المتحدة ومنظماتها المختلفة لحماية الحقوق القومية والإنسانية للأقليات أداة مغلوب على أمرها بأيدي العصابة المتسلطة في بغداد.

لقد أصبحت الحرب الوحشية في كوردستان وعمليات الإعدام الجماعية للأبرياء من الكورد والعرب التفسير البعثي ((للقانون والنظام)) في كل العراق، ومع ذلك لا تجرؤ دولة واحدة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة على الاحتجاج ضد العصابة البعثية. ولكن لن يكون هناك أي عذر لمن لديه كرامة إنسانية في أن يسكت على الوضع في كوردستان.

يجد المرء في أقسام أخرى من العالم بسهولة طرقاً وإمكانيات للتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء، ولكن حين يتعلق الأمر بالقضية الكوردية لا تظهر الأمم المتحدة وسكرتيرها العام سوى اللامبالاة.

يُسمَحُ للعصابة البعثية أن ترتكب جريمة إبادة شعب وأن تشن حرب إبادة ضد شعب بأكمله في كوردستان، بالرغم من عضوية العراق في الأمم المتحدة وتوقيعه على الاتفاقيات الدولية التالية:

1) الاتفاقية حول منع ومعاقبة ارتكاب جريمة إبادة شعب.

2) الاتفاقية الدولية حول إلغاء كافة أشكال العنصرية.

3) الاتفاقية الدولية حول الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

4) الاتفاقية الدولية حول الحقوق المدنية.

نحن لا نتهم البعثيين الفاشيين فقط على جريمة إبادة الشعب في كوردستان، وإنما نتهم جزئياً الأمم المتحدة أيضا على لامبالاتها وعلى سماحها للبعثيين الفاشيين في شن حربهم، حرب الإبادة ضد الشعب الكوردي البريء. تشجع المنظمة الدولية الفاشيين في بغداد على مواصلة حربهم القذرة في كوردستان. مثل هذا التشجيع منح لهتلر في الثلاثينيات من هذا القرن. دوافع البعثيين في بغداد فاشية. كوردستان هي البداية فحسب. إن لم يوضح لهم حد وهم قد بدؤوا حربهم في كوردستان فلسوف تصبح سياستهم مصيبة تنزل بكل الشرق الأوسط)).

الحرية هي أهم شيء

لقد انقضى على عودتي من كوردستان ثلاثة أسابيع واليوم تلقيت الرسالة الأولى من هناك.. وهي من سعدالله الذي يكتب:

((لقد تغيرت بعض مجريات الأحداث هنا فقد شنت الحكومة أكبر هجوم لها على كيروي عمر آغا على جبهة بالك، وقد انتهى بدحر قواتها، وفي انسحابها تركت هذه القوات أكثر من 100 جثة وراءها، وتقدر خسارتها الإجمالية في الأرواح بأكثر من 500 شخص. في اليوم التالي لهزيمتهم الشنعاء هوجمت (جومان) بالطائرات وقتل في هذا الهجوم صبي اسمه آزاد كنت قد أجريت مع عائلته لقاءاً بوصفها مثالاً على العائلات المهجرة من (كركوك)، وقد جرح في الهجوم كثيرون)).

العائلة التي من (كركوك)... كنت أنوي أن أتحدث تحديداً عنها.

حين أقلب صفحات المسودة هنا أرى هذا الاسم، آزاد. لقد كان في الثانية عشر من العمر.

يدعى الرجل كاكا رَش والمرأة كونشا وليس ثمة شيء خاص يميزهما. كانا يعيشان في (رحيم آوا)، أحد أحياء (كركوك).. لقد عاش أهلهما هناك على مر الأجيال.كان لديهما حشد كبير من الأطفال ودكان صغير ومنزلان. لقد كان وضعهما نسبياً جيداً وكانا سعيدين.

التحق الابن الأكبر بالثورة في عام 1972 والتجأ إلى أعالي الجبال، وعندما اندلعت الحرب في آذار عام 1974 غادر الأب أيضا وهو يقول: ((إنه من واجبي أن أحارب من أجل حريتنا)).

وهكذا بقت كونشا وحدها في (كركوك) مع أربعة أطفال؛ آزاد 12 عاماً وفرهاد 9 أعوام وشيرزاد 7 أعوام وقباد 4 أعوام، ومع ذلك فلم يكن لديها ما تشتكي منه.. لقد كان لديها الدكان وكان لديها مسكنها وكان يمكنها الآن أن تؤجر واحداً من المنزلين.

ولكني الآن التقي بكونشا في جومان حيث نجلس هناك على الأرض في غرفة يعيش فيها تسعة أشخاص. إنها امرأة رائعة، مليئة بالحيوية ولا تملك ذلك الخجل الذي تظهره النسوة الكورديات حين يقابلن رجالاً غرباء. ولا تبدي أي اعتراض على أن تحكي لي:

- كنت خائفة في (كركوك) فالوضع كان أنهم حين عرفوا أن أحداً- أبناً أو أباً- في عائلة ما قد ترك المدينة والتحق بالثورة يقومون بترحيل البقية الباقية من العائلة، يأتي البوليس في وقت متأخر من الليل ويرحلهم ويصادر بيوتهم. لقد حدث ذلك لعديد من أصدقائي وكنت أعرف أنه قريباً سيكون دوري.. في أحد الأماسي جاءني صديق وأخبرني بأن البوليس قد عرف أن ابني وزوجي هما من البيشمركه ويعتزمون أن يأتوا في الليلة نفسها ويرحلوني مع الأطفال. لم أنتظرهم.

أخذت الأطفال الأربعة واستأجرت سيارة أخذتنا إلى (طقطق) على الطريق إلى (كويسنجق) فقد رفض السائق أن يأخذنا أبعد من هناك.في اليوم التالي استأجرت من هناك بغلتين وفي خمسة أيام وصلنا (بنجوين) مشياً على الأقدام حيناً وراكبين على البغلتين حيناً آخر. ولم يكن اتجاهنا صحيحاً أبداً ولكن ولكي نذهب إلى (جومان) كان علينا أن نعبر أولاً إلى داخل الأراضي الإيرانية. توجهت في (بنجوين) إلى مكتب حزبنا حيث أرسلوا برقية إلى (جومان) وأبلغوهم بأننا في الطريق إليهم.

الرحلة في (طقطق) إلى (بنجوين) كانت رهيبة فقد كان الحر لاهباً ولم يكن لدينا ما يكفي من الماء، وقد استغرقت المسافة إلى (جادالا) ثلاثة أيام وكنا قد سرنا كل الليل ومع ذلك فلم نجرؤ على البقاء هناك وإنما واصلنا حتى (سه كه لو) حيث بقينا ليلتين. لقد كنت أنفقت كل نقودنا ولم أستطع إيجار بغال أخرى، ولكننا التقينا بضعة رجال من البيشمركه ساعدونا بأن أخذونا في منتصف الليل معهم في سيارة شاحنة إلى (بنجوين)، وقد كان في السيارة العديد من العائلات المهجرة وكنا خائفين كثيراً لأن الحكومة كانت قد ثبتت مخافرها الأمامية في الجبال.

أعطاني الحزب في (بنجوين) 50 ديناراً وعبرنا الحدود مشياً على الأقدام وأتينا (ساننداج) في كوردستان الإيرانية وبعدها نقلتنا سيارة إلى (مهاباد) ومنها إلى (خانه). لقد كان التعب قد نال منا إلى درجة أننا لم نعد نستطيع الوقوف على أقدامنا ولم نكن قد أكلنا شيئاً طوال يومين، واستغرقت الرحلة كلها أكثر من أسبوعين.

إن أسوأ ما في الرحلة كان قبل وصولنا (سه ركه لو).. كنت خائفة كل الوقت أن يرانا جنود الحكومة ويرمونا بالرصاص أو أن يتركنا الرجل الذي دلنا على الطريق. في (سه ركه لو) نمنا ليلتين تحت إحدى الأشجار فما كنت أعرف أحداً هناك. وفي تلك الليلة حين ركبنا السيارة الشاحنة إلى (بنجوين) كنت خائفة جداً أيضا لأنه في تلك الليلة بالذات شن رجال البيشمركه هجوماً على (جادالا) وكنا نسمع طول الوقت أصوات الطلقات والانفجارات.

حين وصلنا إلى (جومان) وجدت زوجي على الفور هنا، لقد فوجئ كثيراً لأنه لم يعرف أبداً بأننا كنا في طريقنا إلى هنا. أنا سعيدة الآن فزوجي يعمل لصالح الثورة ويحصل على ما يكفي من النقود لنتدبر أمورنا بها، ولكننا طبعاً لا نملك بيتاً خاصاً بنا. يسمح لنا بالسكن في هذه الغرفة وهي ضيقة جداً والرجل الذي يملك هذا البيت سيحتاج هو نفسه لهذه الغرفة لبضعة من أقرب أقاربه إليه وهم لا يملكون أي مكان يسكنون فيه. نأمل بأن نستطيع بناء بيت خاص بنا هنا في (جومان) حيث نستطيع أن نسكن إلى أن نعود إلى (كركوك)، ولكن مادام العراقيون هناك فلن أعود.. أفضل الموت على أن أسافر عائدة إلى (كركوك) الآن، وفقط في حال انتصار الثورة سنرجع إلى هناك.

نحن فقراء هنا في (جومان) فعندما هربنا لم أستطيع بالطبع أن أحمل معي سوى بعض الثياب، وكان علينا أن نترك كل شيء تقريباً في (كركوك) ومن المؤكد أن العراقيين قد سرقوا كل شيء وقد حلَّ آخرون في بيتنا، ولكن لا يهم ولا يؤثر ذلك فيَّ بشيء والمهم عندي أن أكون مع عائلتي. الحرية هي أهم شيء.

نحن ننوي السلام

في عصر أحد الأيام أرافق شمالاً إلى قرية (ناوبركه) والتي تقع في الجهة الأخرى من الوادي.. يمكننا أن نلمحها من (قصر السلام). يحمل شمال رسالة إلى مختار القرية كاك حسين الذي يدعونا إلى طعام العشاء في منزله الذي بني على المنحدر وفيه رواق يشرف على الوادي. إنها إطلالة مذهلة، ونرى الشمس تغرب من فوق جبل هلكورد الذي يعتبر من أعلى الارتفاعات في كوردستان. تحمرُّ الجبال في نور الشمس الأحمر وتزرقُّ وتسودُّ وتختفي أخيراً تماماً قبل أن تضيء النجوم.

في الصباح التالي أغادر إلى قرية (فالسته) بصحبة سعدالله، وهي قرية عادية تماماً.. أرغب بكل سرور أن أرى إحدى القرى في هذا القسم من كوردستان أيضا.

يمكن للمرء ركوب اللندروفر حتى القرية بالرغم من أن الطريق رديء جداً. إنها قرية يقطنها حوالي مائة عائلة، وبما أن كل عائلة تملك ستة أو سبعة أطفال فهذا يعني أن العدد الإجمالي لسكانها يجب أن يتراوح بين 800 و900 نسمة.. بمن فيهم الشيوخ. ولكننا حين ندخل القرية تبدو لنا مع ذلك مهجورة تقريباً ويمر وقت قبل أن نلتقي شابين ونسألهما المساعدة. إنهما معلما القرية حسن أنور وابراهيم غفور، ولسوف يساعداني فيما بعد في تكوين فكرة عن حياة القرية. يحكيان لي بأنه قد صار لهما في القرية أربع سنوات وقد تزايد عدد سكانها خلال هذه المدة بسبب انتقال الناس من القرى الأخرى التي كانت تقع على خطوط الجبهة أو احتلت من قبل القوات العراقية ويضيفان:

- إن أكثرية الباقين هنا الآن هم من النساء والأطفال والشيوخ وذلك لأن القسم الأكبر من العنصر الرجالي من السكان هم بيشمركه، وهذه هي الحال في أغلب القرى. منذ أن اندلعت الحرب في الحادي عشر من آذار قصفت القرية بالقنابل سبع مرات، وخلال عدة أشهر عاش الكل من خوفهم من الطائرات القاذفة للقنابل في كهوف في الجبال أثناء النهار، وفقط في أثناء الليل وحيث لم يكن يوجد في الجو طائرات استطاعوا أن يزوروا بيوتهم. إنهم لا يزالون خائفين من غارات الطيران ويعرفون أنه يمكن للكارثة أن تحل في أي وقت كان، ولكن عليهم أن يعتنوا بقطع أرضهم الزراعية وببساتينهم، هذا بالإضافة إلى أن الجو في الجبل بدأ يميل إلى البرودة. إنهم لا يفكرون بالتخلي عن قريتهم.

أبناء القرية كلهم مسلمون ويوجد فيها مسجد هو عبارة عن مبنى بسيط جداً من الحجر فيه بركة للوضوء، وفيه قسم يمكن للرجال فيه غسل كل الجسد.. بحسب العرف عليهم أن يغتسلوا بعد كل مرة مارسوا فيها الحب مع زوجاتهم.

توجد في القرية مدرسة مختلطة (للذكور والإناث) وقد افتتحتها الثورة قبل ست سنوات ويوجد فيها الآن حوالي مائة تلميذ ثلاثون منهم من البنات. لقد بقيت المدرسة مغلقة في الفترة التي دام فيها

القصف الجوي ولكنهم الآن فتحوها من جديد. يوجد ستة معلمين ويبدأ الدوام الساعة الثامنة صباحاً وثمة خمسة دروس في كل يوم. يدرسون الإنكليزية والعربية والكوردية، والتعليم مجاني كلياً 10% فقط من الأطفال يحرمون من المدرسة.. إنهم أبناء العائلات الأكثر فقراً ويرى آباؤهم أن يعملوا في الحقول. ويحكي حسن.

-هذا القسم من البلاد لم يخضع لحكم بغداد منذ 1961، وقبلها كانت هذه المنطقة الحدودية مجهولة كلياً من قبل الحكومات المختلفة، والكبار في أغلب القرى أميون، ولكننا الآن بدأنا بالدروس المسائية لتعليم الكبار وقد أدت إلى أن العديد من الكبار أيضا قد تعلموا إلى حد ما القراءة والكتابة.

قبل عام 1958 كانت الأرض مملوكة من قبل قلة من الإقطاعيين وكان الناس يشتغلون لهم. لم يكن الإقطاعيون يعيشون في القرية وإنما في المدينة.. لقد كان لديهم وكلاء يجمعون لهم المحصول. أثناء عهد الإصلاح الزراعي وزعت الملكيات على الشعب وتملك كل عائلة الآن قطعتها من الأرض. لقد دعمت الثورة الكوردية هذا القانون (قانون الإصلاح الزراعي) وطبقته.

يدعونا المعلمان إلى الطعام، ونقوم بعد ذلك بالتجول في القرية. من بعيد نسمع قعقعة سلاح.. تأتي من الجبهة.

ومثل تلك القرى التي رأيتها في بهدينان فقد بنيت هذه القرية أيضا بجانب نهر جبلي مياهه صافية كالكريستال. في أعلى القرية يوزع فيض الماء عن طريق نظام قنوات بارع، ويزود النهر بالإضافة إلى ذلك طاحونتين بالطاقة، تجري المياه عند إحدى الطاحونتين في قناة تصب في أنبوب عمودي مصنوع من براميل بنزين قد لحمت بعضهما ببعض. لا تعمل الطاحونتان بالنواعير وإنما بالتوربينات التي تتألف من أحجار طاحونة ضخمة وكل الأقسام الآلية المرئية منها من الخشب.

نقوم بزيارة امرأة شابه تتهيأ لخبز الخبز وقد لاحظت أنه يوجد على الأقل نوعان من الخبز في كوردستان.. الأول هو أرغفة سميكة نسبياً وكبيرة بحجم رغيف الخبز اليابس عندنا والثاني هو نوع من الخبز المرقق يأكله المرء طرياً مع الماء، وهذه المرأة تخبز الخبز المرقق.

عجينها يتكون من طحين القمح والماء والملح مضافاً إليه الخميرة التي هي عجينة متبق من العجنة السابقة، والآن تقطع قطعة متوسطة الحجم من ذلك العجين ثم ترققه بعصاً مرققة رفيعة على منصة خبز مدورة. النار موجودة بجانبها وفوق النار لوح معدني محدب يدعى صاج، تمدد العجين المرقق على الصاج الحامي وتجري عملية الخبز بسرعة بحيث أن الأرغفة ما تكاد تنضج حتى تكون هي قد جهزت الرغيف التالي.

يترك الخبز ليبس ويمكن حفظه مدة طويلة جداً ويمكن أكله مع كل أنواع الطعام، وإذا لم يوجد أي طعام آخر فالمرء يأكل الخبز فحسب ويشرب الشاي.. وهذه هي الوجبة الأكثر انتشاراً على الجبهة. وكوردستان معروفة أيضا بأجبانها، فالناس يعملون الجبن من حليب الغنم والماعز والبقر في الصيف ويحفظونه في قراب من جلد الغنم أو جلد الماعز للشتاء. وما يثير دهشتي هو أنهم لا يقدمون لي مرة من المرات الجبن بالرغم من أني أرى أنهم قد أنهو عمل الجبن، ويوضح سعدالله بأن السبب يمكن في أنهم يدخرون الجبن للشتاء حيث تقل أو تفتقد الأنواع الأخرى من الغذاء. يجمع الناس هنا الجوز أيضا للشتاء، ويكثر شجر الجوز في كوردستان كلها، وأما موسم قطفه فهو في فصل

الخريف، وفي الشتاء حين يفتقر الناس الفواكه والخضروات يعيشون بدلاً منها، والى حد كبير، على الجبن والجوز.

الحيوانات الأهلية ترعى في مراعي القرية المشتركة، وكقاعدة فإن لدى القرية راعياً أو أكثر يتحملون مسؤولية الحيوانات كلها، ويقول المعلمان بأن قرية مثل (فالسه) تملك أربعة أو خمسة قطعان وهي قطعان غنم وماعز وبضع بقرات.القطيع نفسه يضم حيوانات يختلف مالكوها.. ولا تملك حيوانات علامات مميزة ومع ذلك فإن أصحابها يتعرفون عليها.

المرأة التي تخبز جميلة جداً، واسمها زيان، وهي في الخامس والعشرين من العمر وزوجها حسين بيشمركه ولديها ثلاثة أطفال، ولدان وبنت وأعمارهم على التوالي خمسة وثلاثة وسنة. لم تدخل المدرسة ابداً ولكنها تأمل أن يتمكن أولادها من فعل ذلك، وتقول بأنها راضية بقسمتها ولكنها تأمل في أن تنتهي الحرب عاجلاً وأن يعود زوجها إلى بيته ثانيةً.

أرض كوردستان خصبة جداً ويحصد الناس هنا موسمين في السنة.. التبغ والقطن والرز في الصيف، والقمح والشعير في الخريف. تنتج كوردستان في أوقات السلم أكثر بكثير من احتياجها من المواد الغذائية، وحين يتعلق الأمر بالقمح والشعير فالمناطق الكوردية هي الأهم والأكثر إنتاجاً في كل العراق. ولكن القسم الأعظم من القمح والشعير يزرعان في الأراضي السهلية في الجنوب وهي الآن تحت سيطرة الحكومة.

إن من يحكي لي كل هذا هو حسن حسين، نائب المدير في مكتب الإصلاح الزراعي والري، وهو يقيم في خيمة بالقرب من دائرة الإعلام، ويقول أيضا:

- تنمو هنا العديد من أنواع الفواكه المختلفة أيضا وحتى أن تفاحنا أفضل من التفاح اللبناني، وفي منطقة دهوك وحدها كان الإنتاج السنوي من التفاح يزيد عن 10.000 طن وقد كنا معتادين على تصديره إلى بغداد وجنوب العراق.

لدى وزارة الزراعة في كوردستان أكثر من 2000 موظف، وعلى الرغم من أن الحرب مستمرة فالمحاولات جارية لتطوير الزراعة من خلال عمليات تحسين البذار وبناء منشآت ري جديدة.

-لا تواجهنا أية مصاعب لتطبيق طرق ومناهج جديدة أفضل في الزراعة. الكورد منفتحون دائماً للجديد إذا ما وجدوا أنه يحسن من أوضاعهم. نحن نخطط لفترة ما بعد الحرب. أهم شيء في الفترة الراهنة هو تأمين ما يكفي من الطعام لشعبنا، ولكن تصدير المنتجات الزراعية سيزداد بعد الحرب.

أذهب إلى (خاناكا) الواقعة على الطريق المتجهة جنوباً إلى جبهة راوندوز، فقد سنحت لي الفرصة في الركوب مع طبيبين فرنسيين قدما إلى كوردستان ليبحثا في احتياج البلاد للمساعدة وسيذهبان إلى هناك. لقد أصبحت أرتاب قليلاً في هؤلاء الممثلين لمنظمات المساعدة الدولية والذين يجوبون أنحاء العالم ليحددوا ويقرروا أين تكون المعاناة أكبر، ولكن هذين الطبيبين يؤثران فيَّ بمثاليتهما الجديرة بالاحترام وتعاطفهما. لقد جاءا من منظمة صغيرة تدعى sans medicus frontier ((أطباء بلا حدود))، وهي تضم بضع مئات من الأطباء مستعدون لأن يتواجدوا بسرعة قصوى في أي مكان على سطح الكرة الأرضية بحاجة إلى مساعدتهم.

نزور المستشفى في (خاناكا).. ولكن يظهر لنا المستشفى مكوناً من سقيفة صيفية فحسب على أحد المنحدرات الجبلية، ويخدم فيه الدكتور فيصل نقشبندي الذي جاء إلى الثورة مباشرة من الجامعة في بغداد، ولا يملك هنا كرسياً ولا طاولة كتابة. ((مستشفاه)) يستقبل الجرحى من الجبهة التي تقع في الجهة الأخرى من الجبل. يأتي إلى هنا حوالي عشرة مرضى في اليوم.. يستغرق نقلهم من منطقة القتال إلى المستشفى على البغل ست أو سبع ساعات. يداويهم الدكتور فيصل ويغير ضماداتهم ويرسلهم بعد ذلك إلى المستشفى في (جومان) إذا رأى أنهم بحاجة إلى ذلك.

بينما نحن جالسون هناك تحت السقيفة الصيفية تأتي بغلة هابطة من أعلى الجبل وهي تحمل شاباً جريحاً من البيشمركه، لقد أصيب بشظايا قنبلة في إحدى قدميه وقد تخبت كلها بالدماء.. يغسل النقشبندي الجراح ويعني بأن يضمد الجريح بضمادة جديدة. بعد ذلك يغادر الشاب مستنداً على عصاً وعلى أحد رفاقه.

في الوادي والى الأسفل من مكان الدكتور النقشبندي للتضميد ثمة مجموعة كبيرة من البيشمركه، يجيئون من الجبة ومعهم شهيد من البيشمركه قد وضع جثمانه على بغلة.. يمدد هناك برهة مغطىً بغطاء قبل أن يحمله بضعة رجال إلى سيارة لاندروفر ويضعوه فيها. يحملون الجثمان بتؤدة وحذر ويتمهلون حين يمددون الشهيد على أرضية اللاندروفر قبل أن تنطلق هذه في طريقها.

نزور في طريق العودة قرية (واوسان) التي تقع مسافة ساعتين مشياً على الأقدام من الطريق.. نمشي في درب يخترق منطقة ريفية رعوية، ولكن يسمع بين الحين والآخر الهدير الصاحب من الجبهة ومن الطائرات العراقية. لقد حلت في (واوسان) مجموعة موسيقيين كورد قامت بتشكيل ((فرقة الثورة الموسيقية)). تدعونا الفرقة إلى طعام الغداء في بستان ظليل بالقرب من النهير الذي يجري أيضا عبر هذه القرية ويتفرع إلى أقنية وسواقي. كل الموسيقيين قد التحقوا بالثورة بعد الحادي عشر من آذار. أتحدث إلى واحد منهم اسمه خالد أحمد وهو عازف كمان من (السليمانية)، يقول.

-تتضمن الفرقة موسيقيين هواة ومحترفين على السواء ونعزف كل أنواع الموسيقا، التقليدية والحديثة. نعزف على الكمان والفلوت والغيتار والجمبش الذي هو آلة موسيقة وترية كوردية، ونقرع الطبول. للموسيقا الكوردية جذورها الخاصة بها وإيقاعها الخاص ولا يصعب ملاحظة الفرق بين الموسيقى الكوردية والعربية.. وفي الحقيقة لا توجد أوجه شبه بينهما أبداً. الشعب الكوردي هو شعب موسيقي جداً، وعملياً يمكن لكل الكورد أن يصبحوا موسيقيين جيدين، للموسيقى أهمية كبيرة عندنا فهي شكل من أشكال التعبير عن المشاعر وتحقيق الألفة وشكل من الحكاية، وأنا أعتقد أن الموسيقى مرتبطة بالطبيعة هنا.. بلادنا جميلة جداً والموسيقى تتناغم مع البلاد.

أصغي إليهم حين يجرون بعض التدريبات خارج مدرسة القرية. لا أستطيع أن أصف موسيقاهم ولكنني أستطيع أن أسمع بوضوح تام كيف تم إبداعها هنا في هذه الجبال والوديان وأنها تنتمي إلى كوردستان. إنها تعبر عن الأسى والفرح والحزن.

أعود وحيداً سائراً بين التلال.. سيأتي الآخرون فيما بعد. لايمكن وصف متعتي بهذا التجوال أبداً. أتوقف بين الحين والآخر وأنعش نفسي بماء الينابيع التي تنبثق من أعماق الجبل. الجو صافٍ تماماً والماء نقي تماماً.أسمع مطولاً أنغام الموسيقيين ولكني أسمع أيضا هزيم الجبهة، وفي إحدى المرات تحلق فوق أرجاء الوادي طائرة ميغ وهي تهدر وتصفر.

يضطجع كلب راع كوردي في منتصف الطريق.. لقد مدَّد جثته الضخمة تحت ظل شجرة حيث يطل من موقع جميل على الوادي. حين أمرُّ به ينظر إلي بعينيه، عيني الكلب الوفيتين ويحييني بهزة خفيفة من ذيله.

اليوم قطعنا رأس الأفعى

انتفاضة الكورد المسلحة في العراق بدأت في الحادي عشر من أيلول وكان السبب المباشر الذي أدى إلى اندلاع الثورة هو الدكتاتورية المستبدة للجنرال عبدالكريم قاسم. ولكن أسباب الثورة تعود بجذورها إلى أبعد بكثير من أياما هذه. ففي 1921 كان الإنكليز قد صنعوا دولة العراق من ولاية الموصل التي كانت تتبع سابقاً الامبراطورية العثمانية، ومن القسم الجنوبي ما بين النهرين.

وفي عام 1925 جرى انتزاع حل للقضية الكوردية.. حل لم يرغب به الكورد ولم تجر استشارتهم حوله. ولكن العراق كان منذ ذلك الوقت قد وعد أمام عصبة الأمم المتحدة أن يحافظ على حقوق الكورد وهويتهم ولغتهم وأن يساعدهم في كفاحهم من أجل الحكم الذاتي.

لم يتم الإيفاء بأي من هذه الوعود وقد كان الكورد محاصرين دائماً، من انتفاضة الشيخ محمود حفيد 1919-1923 والى الانتفاضة في (بارزان) 1931-1933 والتي سحقها الجيش العراقي بمساعدة سلاح الطيران البريطاني. عام 1943 اندلعت انتفاضة جديدة في (بارزان) واستمرت إلى عام 1945 وقد وعدت حكومة نوري السعيد حينها من جديد أن تلبي المطالب الكوردية، ولكن وبدلاً من الإيفاء بالوعد جرت حمامات دم جديدة في كورستان.

في آب من عام 1946 أسس الحزب الديمقراطي الكوردستاني بوصفه تعبيراً عن كفاح الشعب الكوردي وتوقه إلى الحرية، وعلى الفور حظرت الحكومة العراقية الحزب الذي عمل في الخفاء.

في البداية بدا كما لو أن الثورة العراقية في 14 تموز 1958- عندما أطاحت مجموعة من الضباط بالملك فيصل ورئيس حكومته نوري سعيد- كانت نجاحاً للمحاولات الكوردية من أجل الحرية أيضا، ففي الفقرة الثالثة من دستور الدولة المؤقت جرى تثبيت أن دولة العراق تتشكل من العرب والكورد بوصفهما شعبين متساويين في كل شيء، ولكن الفقرة الثانية ناقضت الثالثة من خلال نصها على أن العراق ((هو جزء أساسي من العالم العربي)).

ومنذ بداية عام 1959 فهم الكورد تماماً أن الإنقلاب الحكومي لم يكن ما بدا أنه كان، فهم لم يحصلوا على أي ممثل في الحكومة والجيش والإدارة وقد رفضت حقوقهم بوصفهم شعباً. حاول الحزب الديمقراطي الكوردستاني من خلال التصريحات والخطب السياسية وغيرهما من الفعاليات السلمية أن يقنع حكومة الجنرال قاسم بالإذعان للمطالب الكوردية، أو على الأقل القسم منها، والتي كانت متواضعة جداً.

ومهما يكن من أمر فقد أستمر تدهور العراق في ظل دكتاتورية قاسم. الإصلاح الزراعي الذي كان سيطبق في البلد كله عاني من سوء التنظيم، الأمر الذي بعث الاستياء والتذمر الشديدين ليس فقط في كوردستان وإنما في كل العراق. أجزاء كبيرة من أخصب المناطق تركت غير مزروعة وكانت

النتيجة أن العراق اضطر إلى أن يستورد المواد الغذائية كالقمح والشعير والذرة على سبيل المثال، أي تلك المواد التي كانت تصدر في السابق.

كان كل جهد قاسم يكمن في الاحتفاظ بالسلطة مهما كلف الثمن. لقد سحق معارضيه من البعثيين والقوميين العرب والناصرين، وأخيراً أخضع الشيوعيين أيضا وهم الذين أعانوه في البداية على سحق الآخرين. وهكذا توجه نحو الكورد، وقد بدأ بإثارة القلاقل في كوردستان بمساعدة الخونة المتعاملين معه وجنَّد الناس وسلحهم ودفع لهم مبالغ طائلة ليثيروا القلق ويقتلوا ويحرقوا وينهبوا في كوردستان. ألقي بالمثقفين والمعلمين والطلاب وغيرهم من أبناء الشعب الكوردي في غياهب السجون، وأرسلت قوات الأمن العراقية إلى المدن الكوردية لنشر الإرهاب وبث الذعر في قلوب السكان.

حاول، الحزب الديمقراطي الكوردستاني والجنرال البارزاني خلال الفترة التي كان يجري فيها كل هذا أن يقنعا الحكومة بتغيير موقفها ولكن من غير طائل. لقد كان الدكتاتور مصمماً على سحق الحركة الكوردية، حركة المعارضة الوحيدة التي بقيت حية في العراق. أرسل قاسم في أيلول من عام 1961 قوات شرطة متنقلة إلى (بارزان) و(كويسنجق) وقد ردَّ الكورد الهجمات الأولى على أعقابها وأعلن قاسم حينها حرباً مكشوفة على ((المتمردين)) وصرح بعد أسبوعين من ذلك بأن الثورة ((التي نظمت من قبل الإنكليز والإمبرياليين)) قد جرى سحقها وأن البارزاني قد عبر الحدود هارباً.

ولكن ذلك لم يكن صحيحاً، وفي شباط من عام 1963 كانت حكومة قاسم على العكس ضعيفة جداً وجيشه مهزوز جداً بحيث أن حزب البعث استطاع الإطاحة بقاسم بمساعدة مجموعة من ضباط الجيش والقوميين والناصريين، وأعدم الدكتاتور. قاد الانقلاب الحكومي العقيد عبدالسلام عارف الذي أعلن الهدنة مع الثورة الكوردية وباشر بالمفوضات مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني حول الحكم الذاتي لكوردستان. ولكن في الحادي عشر من حزيران من العام نفسه شنَّ نظام عارف حملة عسكرية على كوردستان. جرى تحشيد الجيش العراقي كله بالإضافة إلى سلاح الطيران السوري كله وإحدى فرق الجيش السوري. كان الهدف ((هو سحق الثورة الكوردية في شمال العراق بشكل حاسم ونهائياً)) ومنح العراق ((وجهه العربي الحقيقي)). في بداية الحملة أعلن وزير الدفاع، الجنرال صالح مهدي عماش (هو الآن سفير العراق في باريس): ((جيشنا قوي وأسلحتنا حديثة، ولسوف نتوجه إلى شمال ونسحق كل قطاع الطرق والمتمردين. ستكون مهمة سهلة وسننجزها عما قريب. سيخرج جيشنا إلى نزهة ربيعية فحسب)).

وبدأت واحدة من أحلك الصفحات في تاريخ الشعب الكوردي. في أحد الأيام في بداية شهر تموز أعتقل في مدينة السليمانية 183 شخصاً بريئاً ومن مختلف الأعمار، نقلوا إلى مكان يسمى ب(كَردي سيوان) يقع خارج المدينة وأعدموا هناك ثم ألقيت جثثهم في قبر جماعي، وبعد ستة أشهر أخرج أهاليهم الجثث واستطاعوا التعرف على أبنائهم وذويهم من ثيابهم.

في (كويسنجق) وفي أماكن أخرى علق أناس أبرياء على أعمدة مصابيح الكهرباء. عندما جاء الجيش إلى إحدى القرى بالقرب من مدينة رانيا قاد إمام مسلم (ملا) مجموعة من الأطفال توسلوا إلى الجنود والزهور بأيدهم ألا يقتلوا القرويين، وبأمر من الجنرال طاهر شكرجي فتح الجنود النار على المسيرة وقتلوا 15 طفلاً وبالإضافة إلى الإمام.

اخترع البعثيون أيضا ((منهج قتال)) جديداً كلياً، فقد ربطوا الأطفال والشيوخ إلى الدبابات قبل شن الهجمات بحيث يضمنون عدم وقوع الدبابات في كمائن أو تفجيرها من قبل البيشمركه الكورد.

ولكن في تشرين الثاني من العام نفسه كان الجيش قد فشل مرة أخرى. لقد أدرك السلطويون العراقيون أنهم لم يستطيعوا تحطيم المقاومة الكوردية. لقد حقق الجيش فعلاً نجاحات معينة وأحتل أماكن بعيدة جداً في الشمال، على سبيل المثال (بارزان) و(العمادية)، ولكن المقاومة استمرت وتبين أن معنويات البيشمركه القتالية عالية وتصميمهم هي العامل الأقوى. لقد كان الجيش العراقي قريباً جداً من انهيار كامل

نجح الجنرال عارف في هذا الوضع في الإطاحة بالبعثتين وتجريد الحرس القومي من السلاح، وتقلد زمام السلطة في تشرين الثاني من عام 1963 ولكنه واصل الحرب في كوردستان. ومع ذلك وبعد بضعة أشهر أخرى كان على عارف أن يذعن ويقر بالأمر الواقع، فاقترح الهدنة ووعد بتلبية بعض مطالب الكورد. بعد سنتين من الحرب كان الكورد مستعدين لمناقشة كل اقتراح للسلام.

ومع ذلك فقد أصبحت المفاوضات بين الجنرال عارف والثورة الكوردية بلا نتيجة، فقد أراد عارف مثله في ذلك مثل كل الطغاة في العراق من قبله أن يغتنم فرصة استراحة يسترد فيها أنفاسه ليجهز ويعد الجيش لشنَّ هجوم جديد. استمرت المعارك في كوردستان العراق حتى عام 1965 حين مات الجنرال عارف في ظروف غامضة في حادث تحطم طائرة هليكوبتر بالقرب من مدينة البصرة. استولى على السلطة بعد وفاته أخوه العقيد عبدالرحمن عارف الذي أصبح رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس الثورة، وباشر رئيس وزرائه ناجي طالب- أحد الضباط الثلاثة الذين خططا لثورة 1958 في العراق- جولة جديد من المفاوضات مع الثورة الكوردية ولكن دون أن يوافق على أية من المطالب الكوردية، ولا حتى أكثرها تواضعاً. وبدأت الحرب من جديد وكانت النتيجة هي نفسها: أصبح الجيش العراقي بعد فترة من الزمن منهكاً وممزقاً.

في حزيران من عام 1966 أعلن السلام من قبل عبدالرحمن البزاز الذي كان أستاذ جامعة عراقية تلقى علومه في انكلترة وهو المدني الوحيد الذي تقلد منصب رئيس الوزراء في العراق منذ 1958 لغاية تاريخه. لقد حقق رئيس الوزراء هذا في حزيران 1966 اتفاقاً بين الحكومة والثورة الكوردية والذي سمي ببرنامج النقاط الأثنتي عشرة، وفيه أذعن لبعض المطالب الكوردية الأساسية دون أن يذكر بشكل مباشر كلمة ((الحكم الذاتي)).

كان العسكريون العراقيون قد كسبوا مبالغ طائلة من الحرب وقد كان الجيش بشكل من الأشكال ومنذ البداية معتمداً على الدعم من عشائر كوردية معينة كانت مواقف رؤسائها معادية للثورة الكوردية وللحزب الديمقراطي الكوردستاني وللجنرال مصطفى البارزاني. لقد سلحت الحكومة العراقية هذه العشائر جيداً ودفعت لها مبالغ ضخمة من المال مقابل أن يخدموا أدلاء طرق وطلائع للجيش أثناء الهجمات على قوات البيشمركه. بعد عدة سنوات من الحرب ازداد حجم وقوة هذه المنظمة من القوات الإضافية أكثر فأكثر. كانت وظيفة القائد العسكري في كل منطقة هي أن يكون ضابط اتصال بين وزارة الدفاع والقوات الإضافية، وكان يقدم لائحة بعدد الرجال في هذه القوات ويستحصل من الحكومة، بموجب تلك المعلومات التي لم يخضع أبداً للمراقبة، الأموال والمؤونة. لقد جرى دفع مبالغ طائلة لحساب قوات إضافية لم تكن موجودة أبداً- تقاسم الأرباح عقداء ورواد ونقباء في الجيش.

أدى بيع العتاد الحربي والمؤونة إلى ظهور فعاليات تجارية ضخمة درَّت على الضباط أرباحاً طائلة.

كانت الأوساط العسكرية ترغب في مواصلة الحرب في كوردستان لكي تزيد من أرباحها الشخصية أكثر فأكثر.

كان العديد من القادة، على سبيل المثال عائلات طاهر يحيى وعبدالرحمن عارف وعبدالسلام عارف، متورطين في الفساد.

ولهذا فإن اتفاق وقف إطلاق النار بين البزاز والثورة الكوردية لم يحظ برضا ضباط الجيش الذين أطاحوا بالبزاز وعينوا بدلاً منه واحداً منهم هو عارف عبدالرزاق الذي وعد باستئناف الحرب في كوردستان. أعدَّ الجنرالان فيصل الأنصاري وإبراهيم العقيلي اللذان تلقيا معارفهما في أوروبا خطة لتحطيم ((اسطورة البارزاني))، وقد عملا على تجهيز الجيش بأسلحة جديدة وباشرا في التدمير المنظم للقرى الكوردية. سبقت هجمات الجيش دائماً بقصف مدفعي وجوي. واقتضت الخطة تقسيم المناطق الكوردية إلى قسمين على طول طريق هاملتون من (راوندوز) إلى (حاج عمران).

لقد أصبحت المعركة الكبيرة عند (هندرين) في بداية عام 1966 نقطة تحول في تاريخ الثورة الكوردية فقد أبيد فيها لواء عراقي بأكمله وقتل أكثر من 1500 من الجنود والضباط العراقيين، وانهارت معنويات الجيش تماماً، وانسحب يجر أذيال الهزيمة حتى (كركوك) وواصل متوجهاً إلى بغداد.

أعقبت الهزيمة العراقية فترة من سلم غير ثابت واستمرت المعارك ولكن ليس بالحجم السابق، ووعدت الحكومة من جديد أن تحقق جزءاً من المطالب الكوردية وزار رئيس العراق الجنرال عبدالرحمن عارف كوردستان وقابل الجنرال البارزاني وتوصل الطرفان إلى اتفاق جزئي ولكن القادة العسكريين ومن جديد عارضوا حلاً سلمياً في كوردستان ولم يف العراقيون بأي من الوعود التي قطعوها على أنفسهم وبدلاً من ذلك فقد بذلوا المحاولات لشق صفوف الحركة الكوردية وإثارة التمرد والقلاقل في كوردستان وبالتالي إعطاء الجيش ذريعة للتدخل.

بالرغم من ذلك فقد ضعفت الحكومة وعمَّ الاستياء كافة أرجاء العراق، وفي السابع عشر من تموز من عام 1968 استولى البعثيون من جديد على السلطة دون مصاعب تذكر، وكانوا بعد فترة حكمهم القصيرة في عام 1963 قد أصبحوا مكروهين من الشعب عامةً ولم يكن أحد يصدق أنه ستمكنهم العودة إلى الحكم أبداً. كان أحد الرجال الأقوياء في حزب البعث وهو أحمد حسن البكر والذي كان رئيساً للوزراء عام 1963 قد أبدى عام 1964 أسفه على ما قام به عام 1963 وحاول حينها أن يغسل يده من كل الجرائم التي أرتكبها البعثيون، ومع ذلك فقد تقلد السلطة بوصفه رئيساً للعراق عام 1968.

إذن ما هو حزب البعث، هذا الحزب الذي ومنذ ذلك الحين كان وما يزال ألدَّ عدوٍّ للكورد؟ إن اسمه الرسمي هو ((حزب البعث العربي الاشتراكي)) والعديد من خبراء السياسة الخارجية- ومنهم السويديون أيضا- أغروا أنفسهم بالاعتقاد بأنه فعلاً حزب اشتراكي. ليس ثمة من خطأ فادح مثل هذا الخطأ، فإن حزب البعث في الحقيقة هو حزب قومي متطرف.. إنه مطبوع بطابع التعصب القومي

العربي. لقد بني هذا الحزب بأساليب تآمرية وهو حزب معادٍ للديمقراطية بعمق ويستخدم كل الوسائل للاحتفاظ بالسلطة، ويعمل على إسكات المعارضين بالانقلابات والاغتيالات والإرهاب.

يجد المرء الخلفية الإيديولوجية لحزب البعث الفاشية والنازية فهذا الحزب يشارك هاتين الحركتين في موقفه المعادي المتطرف للشيوعية، ولكن وكما تحالف هتلر عام 1939 مع ستالين، فقد غير البعثيون الآن وجهتهم وباشروا بتعاون حميم مع الاتحاد السوفييتي.

ينفق البعثيون مبالغ طائلة لكي يحسنوا من سمعتهم في الخارج، وفي هذا الإطار يعمل مكتب للعلاقات العامة في بيروت لهذا الغرض.

قدمت حكومة البعث الجديدة عرض سلام إلى الكورد الذين، رغم ارتيابهم في البعثيين، كانوا مستعدين لقبول عرضهم. لقد كان الدمار كبيراً في كوردستان فالحصار الاقتصادي كان قد سبب المجاعة، وكانت المدارس قد دمرت والرعاية الصحية غير موجودة تقريباً. لقد كانت كوردستان تتعرض سنة إثر أخرى للحرب دون أن يبدي العالم الخارجي أي اهتمام بوضع الشعب الكوردي.

ومهما يكن من أمر فقد دام السلام ثلاثة أشهر فقط فبعد أن أعاد البعثيون تنظيم الجيش بدؤوا بتوجيه حملة جديدة إلى كوردستان وقد فاقت وحشية هذه الحرب الجديدة كل ما عايشه الكورد سابقاً. في أيلول من عام 1969 جاءت مجموعة من قوات العاصفة العراقية إلى قرية (داكا) بالقرب من مدينة (دهوك) بعد أن منيت بخسائر فادحة في إحدى هجماتها على قوات البيشمركه، وكان كل نساء وأطفال القرية قد التجئوا إلى أحد الكهوف في مشارف القرية، أشعلت القوات العراقية ناراً في مدخل الكهف وفتحت نيران بنادقها على كل من حاول الخروج من الكهف لئلا يخرجوا أحياء وقد قتل 65 امرأة وطفلاً بهذا الشكل.

في بداية عام 1970 أدرك البعثيون أن عليهم أن يضعوا نهاية للحرب، وبعد مفاوضات مع الحزب الديمقراطي الكوردستاني والثورة الكوردية والجنرال البارزاني رضخوا أخيراً للمطالب الكوردية بالحكم الذاتي.

في الحادي عشر من آذار عام 1970 تم التوقيع على برنامج من أربع عشرة نقطة مع اتفاق على أن يجري إعلان الحكم الذاتي خلال أربع سنوات. سيسمح للأكراد أن يراعوا بملء حريتهم مصالحهم الخاصة ويشرفوا على الإدارة المحلية ويبنوا مشافيهم ومدارسهم الخاصة بهم، وستتولى الحكومة المركزية أمر استثمار البترول والسياسة الخارجية والدفاع.

ومع ذلك فسرعان ما فهم الكورد أن الاتفاق كان مجرد تكتيك من جانب البعثيين ويوجد العديد من الأدلة على ذلك.

بعد أربعة أسابيع من التوقيع على الاتفاق هوجم مقر الحزب الديمقراطي الكوردستاني في مدينة (الموصل) وقتل في الهجوم عدد من أعضاء الحزب، ولم يتم إجراء أي تحقيق ولم يوجه الاتهام لأحد على هذا الاعتداء.

عين خمسة أكراد أعضاء في الحكومة ولكن لم يجر تعيين أي كوردي في مجلس قيادة الثورة الذي هو مركز سلطة البلاد الحقيقة. كان مجلس قيادة الثورة يتألف من سبعة عشر عضواً من حزب البعث وكانت المهمة الوحيدة للحكومة هي تنفيذ قرارات مجلس قيادة الثورة.

كانت الحكومة قد وعدت في الاتفاقية أن تساهم في إعادة إعمار كوردستان وأن تقوم بدفع التعويضات عن أضرار الحرب، ولكن لم ينجز أي من ذلك، ومن بين آلاف من العائلات التي بقيت بلا مأوى جرى تعويض عدد ضئيل جداً منها.

يجدر بالذكر أنه جرى إنشاء أكاديمية كوردية في بغداد، وتم تشجيع الجهود الثقافية الكوردية وسمح بإصدار جريدة يومية كوردية ((التآخي)) بوصفها لسان حال الحزب الديمقراطي الكوردستاني وجرى دعم وتشجيع الفرق الموسيقية الكوردية. وهكذا فإن رضوخ الحكومة لجزء من المطالب الثقافية للشعب الكوردي هو حقيقة، ولكن هذه الحقيقة استغلت بقوة في الدعاية العراقية بهدف إيهام العالم أن السلام قد عاد إلى كوردستان وأن الحكومة قد عملت كل شيء من أجل الإيفاء بوعودها.

كان الجيش العراقي في الواقع ما يزال بأيدي البعثيين.. لم يسمح لأي حزب آخر بأن يكون له نفوذ فيه. سيطر البعثيون أيضا على قوى الأمن وإدارة التجسس مثلما سيطروا على قوات الشرطة وسلاح الجو. جرى قبول عدد ضئيل جداً من الكورد في الأكاديمية العسكرية.

كان البعثيون قد وعدوا أن يحلوا وينزعوا سلاح كافة القوات الإضافية والقوات المسلحة المأجورة في كوردستان ولكنهم لم يفوا بوعودهم أبداً، وبدلاً من ذلك فقد شجعوا هذه القوات على الاعتداء على الكورد الأبرياء بهدف خلق حالة من التمرد.

في بداية عام 1971 قصفت منطقة بارزان عدة مرات خلال أسبوع من الزمن وألقيت تبعة ذلك على الجنرال سعيد صقلي قائد القاعدة الجوية في كركوك.

تعرض إدريس البارزاني في بداية عام 1971 لمحاولة اغتيال، وفي العام نفسه جرت محاولة فاشلة لاغتيال الجنرال البارزاني وكان الذين نظموا محاولة الاغتيال في الحالتين هم البعثيون. وبعد سنة تعرض الجنرال البارزاني من جديد لمحاولة اغتيال، فقد قدم أحد الصحفيين من وكالة الأنباء العراقية ليجري معه لقاءاً وكان هذا الصحفي يحمل حقيبة كان قد أُمِرَ بأن يتركها قريباً من البارزاني بينما يعتذر هو ليخرج كي يقضي حاجة. كانت الحقيبة التي كانت في الحقيقة قنبلة ستنفجر عن طريق الراديو وثمة سيارة كانت تنتظر الصحفي لتهريبه. فشلت المحاولة لأن الرجل كشف بملء إرادته عن المؤامرة وأعطي معلومات دقيقة عن كيف وأين ومتى حصل على التعليمات؟ ولكن لم تتم محاسبة أي من المسؤولين عن المؤامرة.

لقد أنفق البعثيون مبالغ هائلة في كوردستان ليس لإعادة إعمار المدارس والمشافي وإنما لتأمين متعاطفين وأتباع أمناء لهم بهدف شق صفوف الوحدة الكوردية.

بالرغم من أنه يوجد لدى العراق 80 سفيراً في العالم، فقد عين كوردي واحد في منصب سفير هو محسن دزَيي الذي كان سفيراً في براغ ومؤخراً في كندا. وفيما عدا ذلك لم يعمل في وزارة الخارجية عملياً أي من الكورد.

وقد أمل الحزب الديمقراطي الكوردستاني طويلاً في استمرار السلام وحاول بعدة وسائل أن يقنع البعثيين بالإصغاء إلى المطالب الكوردية ولكن بدلاً من ذلك تمادي البعثيون أكثر فأكثر في سياستهم الصلبة. وبدأت مرحلة جديدة بعد أن زار رئيس الوزراء السوفييتي كوسيجن بغداد وجرى التوقيع على معاهدة الصداقة بين العراق والاتحاد السوفييتي في نيسان من عام 1972، فقد كان البعثيون لغاية تأريخيه معزولين عن العالم الخارجي وبشكل خاص عن العالم العربي، ولكن العلاقة مع الاتحاد السوفييتي كانت تعني أن هذه العزلة فكت جزئياً ونسي الشيوعيون العراقيون على ما بدا كل المجازر والجرائم التي ارتكبها البعثيون بحقهم. لقد نسوا أنهم فقدوا عام 1963 حوالي 6000 من أفضل أعضائهم الذين أعدموا شنقاً أو رمياً بالرصاص بأوامر من الشخص نفسه (أحمد حسن البكر) والذي كان آنذاك أيضا رئيساً للوزراء. لقد نسوا أن العديد من أعضاء الحزب الشيوعي كانوا ما يزالون في أقبية التعذيب في الوقت الذي كانت فيه معاهدة الصداقة الروسية العراقية توقع.

إن ما يدعى بالحزب الشيوعي في العراق والذي يأخذ أوامره مباشرة من الكرملين تنازل للبعثيين وانضم فيما بعد إلى ما كان يسمى بالجبهة القومية الوطنية والتقدمية. بذل البعثيون كل جهدهم كي تشارك كل الأحزاب السياسية في هذه ((الجبهة)) التي ستعطي انطباعاً بأنها هيئة ديمقراطية، ولكن من بين أعضاء المجلس الستة عشر يجب أن يكون ثمانية منهم بحسب النظام الأساسي بعثيين، واثنان يعينان من قبل حزب البعث واثنان يمثلان الحزب الديمقراطي الكوردي واثنان شيوعيين واثنان قوميين ومن أحزاب أخرى. كان أحد شروط العضوية هو الاعتراف بالبعثيين ((حزباً قائداً)) في العراق مع السيطرة الكاملة على الجيش والشرطة وجهاز الأمن. رفض الحزب الديمقرطي الكوردستاني المشاركة في الجبهة في ظل تلك الشروط واقترح بدلاً من ذلك هيئة أخرى كان يمكن لها أن تصبح قاعدة للتحول الديمقراطي في العراق ولكن اقتراحه رفض.

في الأسبوع الأول من تموز عام 1973 قام ناظم كزاز رئيس قوى الأمن البعثية بمحاولة انقلابية على أحمد حسن البكر وصدام حسين التكريتي ولكنها فشلت بعد أن قتل وزير الدفاع حماد شهاب وأصيب وزير الدخلية سعدون غيدان بجراح. القي القبض على ناظم كزاز وأعدم رمياً بالرصاص مع 130 من أتباعه المخلصين له في أجهزة الأمن. وبعد أن تم القضاء على المحاولة الانقلابية ظهر الرئيس أحمد حسن البكر وأعلن بلا حياء ما معناه:

((أعزائي أبناء الشعب العراقي! لقد قطعنا اليوم رأس الأفعى. لقد كان ناظم كزاز مسؤولاً عن كل الأعمال الوحشية والتعذيب ومقتل أكثر من 2000 من الناس في العراق. أعزائي المواطنين! أؤكد لكم بأن الحكومة لم يكن لها علم بما كان يفعله ناظم كزاز)). لقد كان الوقاحة في هذا الكلام مثيرة للاشمئزاز، بالإضافة إلى إنهاء كشف النقاب عن حقيقة من الذي يحكم العراق.

إن حاكم العراق الفعلى، نائب الرئيس صدام حسين تكريتي هو رجل بلا تعليم رسمي هو من مدينة (تكريت) وقد عمل وارتقى في سلم المناصب في حزب البعث بسبب قسوته ووحشيته فقط. إنه مسؤول شخصياً عن تعذيب وقتل عدد لا يحصر من المعارضين السياسيين والخصوم الشخصيين. يتبجح بين شركائه وفي اجتماعات الحزب بأن حزب البعث يقف فوق كل القوانين وهو يدعي بأنه قد قتل بيديه عمه لأن هذا الأخير كان معارضاً للحزب. (الحقيقة هي أنه قد قتل عمه في بداية عام 1959 ليس لأن العم كان معارضاً للحزب وإنما لأن أحد أخوال صدام كلفه بمهمة القتل هذه، فقد كان صدام يريد الزواج من بنت خاله الذي كي يزوجه ابنته اشترط عليه أن يقتل عمه.. نفذ صدام الشرط دون أن يتردد)

إن صدام حسين التكريتي هو ممثل نموجي للنظام الذي يحكم العراق منذ 1968، النظام الذي علق علناً 120 شخصاً على أعواد المشانق في ساحات بغداد والبصرة بدعوى أنهم كانوا جواسيس، النظام الذي يعذب ويقتل الناس ليس في العراق وحسب وإنما يرسل مأجوريه من القتلة بعيداً إلى مدن مثل القاهرة وبيروت ولندن.

إن هذا النظام في العراق هو مجرد مجموعة أشخاص يفتقدون المشاعر الإنسانية وأغلبهم من مدينة تكريت الواقعة شمال بغداد وهم يحققون مكاسب شخصية ضخمة من مواقعهم في السلطة. في المركز من القمع يقف صدام حسين التكريتي وأقرباؤه الذين ينتمون كلهم إلى عشيرة التكارتة هم يسيطرون على المراكز الأساسية في الجيش وجهاز الأمن وسلاح الطيران ووزارة الداخلية. وأقرب من يقف في إمرة هؤلاء هم مجموعة من ضباط الجيش والشرطة ومن المديرين وأعضاء حزبيين آخرين، وهؤلاء قد جاءوا من مدن عانة ورواه وسامراء والموصل وبيجي، ويعمل بإمرة هؤلاء أعضاء حزبيون آخرون بوصفهم أتباع أمناء وجلاوزة جلادين

تكتيك الحزب هو التسلل إلى كل الفروع المختلفة من الإدارة والشرطة والجيش. يعين أعضاء الحزب المخلصين في ولائهم في كل الإدارات والمكاتب مع منحهم السلطة المطلقة والحق في قبول أو رفض كل القرارات والإجراءات.

يضطر المديرون ذوو الكفاءات العالية والشهادات العلمية العالية دائماً إلى تلقي أوامرهم من ممثلي الحزب.

يوجد عملياً في كل شارع كبير من المدن الكبيرة مقر للحزب، يراقب منه فتية معهم الرشاشات الناسَ ليلَ نهارَ، وتوجد المئات من أقبية التعذيب في كل أرجاء العراق ويسيطر الحزب سيطرة كلية على الجيش من خلال المفوضين السياسيين الذين يعينون في كل الوحدات.

حاول القادة الكورد في نهاية المطاف أن يتفقوا مع النظام البعثي قبل الحادي عشر من آذار عام 1974، التأريخ الحاسم حيث كان الحكم الذاتي لكوردستان سيصبح حقيقة واقعة بحسب الاتفاق الذي وقع قبل أربع سنوات. في التاسع من شهر آذار سافر إدريس البارزاني إلى بغداد في محاولة يائسة أخيرة ليقنع الحكومة بالتخلي عن خططها ولكن الاحتجاجات الكوردية كانت من غير طائل: أعلن في الحادي عشر من آذار صيغة من ((حكم ذاتي)) ما كان بإمكان الكورد الموافقة عليه لأنه افتقد كل النقاط المهمة التي جرى الاتفاق عليها قبل أربعة أعوام.

كانت نسخة الحكومة من الحكم الذاتي الكوردي ستمنح الحكومة المركزية في الواقع سلطة أكثر بكثير مما في أية فترة سابقة. كان الجيش وجهاز الأمن والشرطة سيبقون حكراً على البعثيين مع الاحتفاظ بحق القيام بالعمليات في كوردستان أيضا. منح الرئيس السلطة المطلقة لِما سمي بالمجلسين التشريعي والتنفيذي في منطقة الحكم الذاتي. وقد استبعدت من هذه المنطقة بضعة من أغنى أجزاء كوردستان مثل خانقين وكركوك وسنجار.

خطة الحكومة في ((حكم ذاتي)) كوردي كانت مجرد ذريعة لإعلان حرب جديد ضد الحركة التحررية الكوردية. كانت توجد قبل كل شيء أربعة اختلافات مهمة بين المطالب الكوردية وبين ((الحكم الذاتي)) الذي قدمته الحكومة.

تعلق الاختلافات الأول باقتصاد منطقة الحكم الذاتي. لقد كان الحزب الديمقراطي الكوردستاني يطرح دائماً وجهة نظره القاضية بأن الحل العلمي الأوحد يجب أن يتضمن توزيعاً للميزانية العراقية بالتناسب مع نسبة السكان الكورد إلى مجموعة سكان العراق. لقد طالب الكورد بنسبتهم المئوية من دخل الدولة بعد حسم ما هو مخصص للدفاع وإدارة الشؤون الخارجية وغيره مما هو مسؤوليات الحكومة المركزية.

بحسب الخطة البعثية سيكون حق القرار في كل المسائل المالية سواء في منطقة الحكم الذاتي أو في العراق كله بيد وزير المالية في الحكومة المركزية.. كان يمكن لوزير المالية في أي وقت شاء أن يرسل فواتير بنفقات غير خاضعة للرقابة وغير مقيدة.

تعلق الاختلاف الثاني بجهاز الأمن وقوى الشرطة. لقد أكد الحزب الديمقراطي الكوردستاني دائماً أنه يجب إدارة الشؤون الخارجية والدفاع من قبل الحكومة المركزية، ولكنه طالب بأن تكون إدارة جهاز الأمن وقوى الشرطة في منطقة الحكم الذاتي بأيدي الكورد. لقد رفض هذا المطلب كلياً من قبل البعثيين الذين صرفوا عنايتهم في توسيع سلطتهم في كوردستان أكثر فأكثر.

الاختلاف الثالث تعلق بحدود كوردستان. لقد تقرر في اتفاق عام 1970 أن يجري إحصاء سكاني عام وأن ينفذ خلال سنة، وكان الهدف هو تحديد المناطق التي فيها أغلبية كوردية، ولكن إحصاء السكان لم يتحقق أبداً، وبدلاً منه باشرت الحكومة بترحيل جماعي منظم للكورد من قرى في سنجار وكركوك وخانقين، واسكنت عرباً في أماكنهم. لقد كان الهدف واضحاً وهو العمل على تحقيق أغلبية عربية في هذه المناطق الكوردية سابقاً.

لم تدّخر الحكومة وسيلة لتطبيق هذه المخططات، فقد قامت بتجهيز عشرات الآلاف من الكورد من قراهم التي عاشوا فيها لأجيال عديدة وقرون كثيرة. وفي الوقت نفسه جرى إبعاد حوالي أربعين ألفاً من الكورد ((الفيليين)) من بغداد وجنوب العراق، لقد عاشوا هم أيضا لأجيال عديدة في العراق وكانوا مواطنين عراقيين والعديد منهم كان قد أدى الخدمة العسكرية.. والآن فقد أبعدوا إلى إيران وغالباً ما كانوا يمنحون مهلة أربع وعشرين ساعة لمغادرة العراق.

وهكذا فقد رفض البعثيون إجراء الإحصاء السكاني المتفق عليه واقترحوا بدلاً عنه أن يعتبر إحصاء عام 1957 وافياً بالغرض ووافقت الثورة الكوردية على ذلك بالرغم من انه قد حدثت منذ ذلك الوقت أعمال تهجير واسعة للناس، ولكن وبعد فترة قصيرة اتضح للكورد إن أجهزة الأمن العراقية في مدينة كركوك كانت مشغولة بإحراق وثائق السجل المدني لعشرات الآلاف من الكورد في مدينة كركوك وعوضتها بوثائق مزورة أرخت بعام 1957 واتخذت لها أسماء عربية.

التباين الرابع كان بخصوص سلطة الرئيس على المجلس الكوردي. كانت على السلطة التنفيذية، أي حكومة الحكم الذاتي في كوردستان بحسب الاقتراح العراقي، أن تتألف تحديداً من ثمانية أشخاص منتخبين من المجلس التشريعي الكوردي، ولكن صلاحيات اللجنة كانت محدودة جداً، فستستمر وزارات الحكومة المركزية المختلفة بامتلاك مطلق الحق في اتخاذ القرارات حتى حين كان الأمر يتعلق بمسائل مثل الري والبناء وقضايا الزراعة. وبهذا الشكل سيرغم المجلس التشريعي والسلطة التنفيذية في كوردستان على تلقي أوامرها من بغداد. وسيتمتع الرئيس بالإضافة إلى ذلك بصلاحية حل كل من المجلس التشريعي والسلطة التنفيذية في أي وقت يرى فيه ضرورة لذلك.

حين وصل إدريس البارزاني إلى بغداد ليطرح الملاحظات الكوردية رفضوا أن يستمعوا إليه. في الحادي عشر من آذار وفي الساعة الثامنة والربع مساءاً أعلن رئيس العراق ((الحكم الذاتي لكوردستان)) بحسب الخطة البعثية، ولكن الإعلان أتبع بإنذار من صدام التكريتي: ((يجب على الحزب الديمقراطي الكوردستاني أن يوافق على الخطة خلال خمسة عشر يوماً.. وإلا...))

بعد أن فقد الاتحاد السوفيتي قواعده في مصر وجد لنفسه أقوى موقع قدم له في الشرق الأوسط في العراق، البلد الغني بالنفط والمعادن وذو الموقع الاستراتيجي. ويخطط الروس لإنشاء قاعدة بحرية في البصرة، وهكذا فان الشيوعيين يساندون الآن ومن كل قلبهم العدوان على كوردستان.

حرك الاتحاد السوفيتي بالتعاون مع المجموعات الشيوعية والمتعاطفين معه القوى اليسارية في العالم كله باتجاه تصوير الثورة الكوردية بوصفها ((عدواناً إمبريالياً)) بينما وفي الوقت نفسه يجري تجميل النظام العراقي بوصفه ((تقدمياً واشتراكياً)).

الدعم الروسي للعراق هو دعم كلي سواء غي ذلك من الناحية المعنوية أو المادية. يجري إرسال الأسلحة بكميات ضخمة جداً ويتم إلى الآن عن طريق اسطولين جويين يتضمنان أحدث الطائرات الحربية السوفيتية؛ TU22 والتي لم يحصل حتى أعضاء حلف وارسو عليها بعد، ويقوم بقيادتها طيارون روس. وبالمناسبة فانه يوجد حوالي ثمانية آلاف من الخبراء والمستشارين الروس في العراق، يخدم ثلاثة آلاف منهم في الجيش وسلاح الجو والاسطول البحري وأجهزة الأمن. لقد جرت إعادة تنظيم الجيش العراقي وفقاً للنموذج الروسي وقد تم تقسيمه إلى ثلاثة فيالق كبيرة ولكل فيلق قاعدته ونظام تموينه الخاصين به. الجيش آلي بدرجة عالية.

استعد الكورد من جديد لحرب أخرى فقد تم رفض خطط الحكومة في اجتماع عقد في كلاله في الرابع عشر من آذار. وخلال النصف الثاني من آذار بدأت هجرة حقيقية تقل مثيلاتها في تاريخ العالم إلى كوردستان المحررة، فليس فقط الناس البسطاء الذين لم يملكوا شيئاً ليفقدوه وليس فقط الطلاب الغاضبون وليس فقط البيشمركه الذين كانوا معرضين للإرهاب العراقي وإنما الناس من الطبقة المتوسطة والمثقفون الذين عاشوا في المدن حياة مرفهة خالية من الهموم، الأطباء والمهندسين والمعلمون... الرجال والنساء والأطفال... كلهم غادروا إلى كوردستان ليلتحقوا بالثورة. خلال عدة أسابيع وصل إلى كوردستان 200000 شخص من كافة أنحاء العراق وانضموا إلى الثورة.

في الأول من نيسان تقدمت قوة مدرعة عراقية على طول الطريق من مدينة السليمانية إلى (دوكان) وقد أوقفتها قوات البيشمركه وتبع ذلك قتال عنيف. في الثامن من نيسان شنت الطائرات العراقية هجوماً على قرى كوردية بالقرب من (راوندوز). لقد عادت إلى كوردستان.

لو استطاعت السويد أن ترسل إلينا أسلحة مضادة للدبابات...

حين أبدأ الآن بالدفتر الخامس والأخير من مسودة ريبورتاجي يكون قد مر شهر على عودتي من كوردستان ويتبادر إلى ذهني إن الكتابة قد أخذت مني وقتاً أطول من معايشتها.

وعلى ما اذكر لم يسبق لي أن عايشت خريفاً ماطراً مثل هذا الخريف وحين أكتب هذا الريبورتاج في وقت متأخر من المساء يستمر المطر في نقره على زجاج النافذة.

في كوردستان أمطرت مرة واحدة فقط خلال ذلك الشهر كله الذي أقمت فيه هناك، وقد كانت تلك المرة هي الإشارة الأولى بقرب حلول موسم المطر، الخريف والشتاء. لقد أصبح الجو في الليل أكثر برودة على نحو دائم وهبت الريح طول الوادي باردة أكثر فأكثر.

قريباً سيهطل الثلج وستغطى الجبال والوديان تماماً بثلج أبيض.

خلال أسابيع قرأت برقيتي أنباء فقط عن الحرب في كوردستان في الصحف السويدية وقد كانتا مجرد ملاحظتين صغيرتين لا أكثر.

من المحتمل انه قد قتل في الحرب حتى الآن أكثر من 5000 شخص منذ أن اندلعت في الحادي عشر من آذار، ولكن كوردستان هي بالطبع عالم آخر.. قليل من الناس يعرف أنها موجودة.

يكتب شمال في إحدى رسائله ((لقد كانت الحرب في كوردستان في الأسابيع الأخيرة عنيفة جداً ودموية، وكما تعرف فقط ضغط العراقيون في الشهرين الأخيرين بشدة على كَيروي عمر آغا الذي سافرتَ إليه، وعلى جبل زوزك، وعلى تلك الجبهة اشتبكت قواتنا وقوات العدو في معارك ضارية. إن مقدرة نيران العدو ضخمة ولكن بيشمركتنا قد أعاقوا تقدم العدو على نحو رائع)).

تنشر اليوم في بعض الصحف برقية من بيروت وقد جاء فيها:

((يحاول الجيش العراقي الآن بمشاركة 400 من دباباته التي يبلغ عددها الإجمالي 1000 دبابه التقدم شرقاً على طول الطريق الرئيسي من أربيل إلى راوندوز لدق اسفين داخل منطقة المقاومة الكوردية. هذا ما أفاد به في يوم الثلاثاء ناطق باسم القائد الكوردي مصطفى البارزاني، وقد قال بأن نصف مليون من الكورد- أغلبهم من النساء والأطفال والشيوخ- من شمال العراق قد نقلوا إلى مناطق آمنة من الغارات الجوية والقصف المدفعي العراقيين، بينما تشن قوات البارزاني في أماكن مختلفة غارات على المعتدين)).

لقد كتبت في مسودة الريبورتاج:

((لقد فقدت الإحساس بالزمن وأشعر بنفسي كما لو أني في كوردستان كل حياتي. أحاول بمساعدة التقويم معرفة أي تاريخ هو، وأي يوم من أيام الأسبوع هو، ولكني أفشل)).

في وقت متأخر في إحدى الأماسي ألتقي إدريس البارزاني في مقره.

يحتل إدريس البارزاني موقعاً أساسياً في الثورة الكوردية.. وقد وجدت أنه محبوب مثل والده وشهير مثله. لو مات الجنرال العجوز فمن المؤكد أن خليفته المفترض هو إدريس.

لقد سمعتهم في كل مكان يتحدثون عن إدريس.

حين يتعلق الأمر بإحدى القضايا الملحة كانوا يقولون:

- يجب أن نتحدث إلى إدريس عن ذلك.

يقود الثورة الكوردية الحزب الديمقراطي الكوردستاني الذي يعقد مؤتمراً عاماً كل ثلاث سنوات تقريباً، والمؤتمر الأخير عقد بالضبط قبل اندلاع الحرب عام 1974. يتم التعبير عن أهداف الحزب في برنامجه:

((نكافح من أجل إقامة حكومة منتخبة، ثورية وديمقراطية. ونكافح أيضا من أجل تحقيق تغييرات اقتصادية واجتماعية عميقة في كل أقسام المجتمع وضمان حرية الدين وحرية النشر والحرية السياسية لكل المواطنين.

نكافح من أجل تقوية العلاقات الأخوية بين الشعبين العربي والكوردي ولترسيخ الأخوة بين العرب والكورد وسائر الأقليات في العراق ولتعزيز الوحدة الوطنية ولتقوية أواصر الصداقة بين شعبنا الكوردي وكل شعوب العالم.

نسعى من أجل علاقات صداقة وتعاون قوية بين حزبنا وبقية الأحزاب والمنظمات العراقية التي تؤمن بقضية الكورد العادلة وتدعم كفاح حزبنا وكفاح الحركات الديمقراطية الأخرى في كل أجزاء كوردستان.

نكافح من أجل تطوير الاقتصاد الوطني وتحسين مستوى معيشة الشعب عن طريق مبادئ لتخطيط اقتصادي واجتماعي شامل.

نؤيد قانون الإصلاح الزراعي الجديد رقم 37 لسنة 1970 بأمل أن يملك كل فلاح في كوردستان قطعة أرض وأن تنبذ الإقطاعية في كوردستان.

ندعم حقوق المرأة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ونعمل من أجل تطبيق القوانين الضرورية التي تضمن هذه الحقوق)).

الجنرال البارزاني هو رئيس الحزب والقائد الطبيعي للثورة. لديه مقره الخاص به.. يؤدي وظيفة هي أقرب ما تكون إلى وظيفة الرئيس ويتخذ كل القرارات المهمة. يقوم المكتب السياسي بوظيفة أشبه بوظيفة الحكومة واللجنة المركزية بمثابة البرلمان.

ألتقي إدريس في إحدى الفيلات السياحية التي تقع على مرتفع بالقرب من مدينة الخيام التابعة لدائرة الإعلام.

الوقت هو قبل منتصف الليل بقليل وألمح في الظلام البيشمركه يملئون المكان.. يجيء جنود المراسلة ويذهبون ويجلس حول طاولة مجموعة من القادة العسكريين ويتشاورون بحيوية وقد وضعوا كلاشينكوفاتهم بجانبهم، وثمة فانوس خافت الضوء في منتصف الطاولة. إنه في الحقيقة جو ثوري.

إدريس ضئيل الحجم وأنيق ولطيف جداً في تصرفاته وحاد الذكاء جداً، أسلوبه في الحديث لبق ومع ذلك صريح. يحاول كل الوقت أن يشغل نفسه بمحادثتنا ولكنه يقاطع باستمرار من رجال يدخلون ومعهم كتب يريدون أجوبة فورية عليها، ويعتذر لأنه تجري مضايقتنا على هذا النحو ويقول:

- نحن سعداء لأننا كسبنا صديقاً آخر، وأعرف أنه يوجد لنا أصدقاء كثيرون في السويد. لقد أظهر الشعب السويدي تعاطفاً كبيراً تجاهنا ونحن نكن تقديراً عالياً للسويد ونتوجه الآن إلى السويديين أن يقووا من صداقتهم أكثر في هذا الوقت العصيب الذي لم يسبق لنا أن عشنا مثله في يوم من الأيام. بإمكان السويديين أن يساعدونا كثيراً.

وأقول له:

- أعتقد أنه يمكنكم أن تأملوا في أية مساعدة من السويد.. ربما قليل من المساعدة الإنسانية للاجئين، ولكن وكما معروف فإن ما تحتاجونه حقاً هو السلاح والذخيرة.

ويجيب:

- أجل، فالدبابات العراقية هي مشكلتنا الأكبر على الإطلاق ولا نملك ما فيه الكفاية من السلاح المضادة للدرع. حبذا لو استطاعت السويد أن ترسل لنا سلاحاً مضاداً للدبابات.. سيكون ذلك مساعدة حقيقية!

يدرك إدريس إن ذلك للأسف غير ممكن.

تصدر السويد السلاح فقط إلى تلك التي من المعتقد أنها لن تستخدمه. لا تعتبر إرساليات الأسلحة ((مساعدةً إنسانية)).

في طريق العودة إلى قصر السلام بالسيارة أسأل سيامند عن المساعدة الإيرانية. لماذا لا تستطيعون الحصول على مزيد من السلاح المضادة للدبابات من إيران؟

فيقول سيامند:

-أجل لماذا؟ إنه لمن الواضح جداً أن المساعدة الإيرانية ليس أبداً مثلما يعتقد العالم. قبل أسبوع من الزمن قصفت الطائرات العراقية بالقنابل عدة قرى في الجهة الإيرانية من الحدود وقد راح ضحية القصف أكثر من أربعين قتيلاً وكان أغلبهم من اللاجئين الكورد. لماذا لم يسقط الإيرانيون تلك الطائرات؟ لقد كان ذلك سهلاً عليهم.. لقد رأيت بنفسك ما يوجد لديهم على الحدود. إنهم يملكون أحدث الأنواع من صواريخ الدفاع الجوي على الإطلاق ومع ذلك فلم يطلقوها وإنما احتجوا على انتهاك حرمة الحدود.. وكان ذلك كل شيء.

يعرف شاه إيران ما يفعله.. إنه يدع الكورد يخوضون الحرب ويريد بالتأكيد أن تستمر الحرب أطول فترة ممكنة ولكن لا يجوز للكورد أن يصبحوا أقوياء جداً.. حينها يمكن لهم أن يصبحوا خطراً على الشاه أيضا.

إن إيران والعراق في حالة مستمرة من ((شبه حرب)) وإن مواجهة مفتوحة سوف تهدد مباشرة منشآت النفط الإيرانية حول (عبادان).. يمكن للمدفعية العراقية أن تقوم بتدميرها لأنها تقع قريباً جداً من الحدود، وبالطبع فإن الشاه حريص جداً على تفادي ذلك. بالرغم من التفوق الكبير للقوة العسكرية الإيرانية على العراق فإن صداماً مسلحاً سيكون مدمراً ل إيران أيضا.لذلك يدع الشاه الكورد يحاربون، فطالما يبقى القسم الأكبر من الجيش العراقي مقيداً في الجبال الكوردية يمكن للشاه أن يشعر بنفسه آمناً. ومما يكن من أمر فليس من صالحه أن ينتصر في هذا الحرب أحد. إن حكماً ذاتياً كوردياً في العراق يعني ازدياد مخاطر المطالبة بالحكم الذاتي من قبل الكورد في إيران أيضا. ومن جهة أخرى فإن انتصاراً عراقياً تاماً.. أو محقاً للثورة الكوردية في العراق يعني ازدياد خطر اندلاع حرب بين إيران والعراق. فقط استمرار الحرب في كوردستان العراق يقع في مصلحة الشاه.. أنه يدع الكورد مدركون لذلك يحصلون فقط على مقدار من الأسلحة بحيث يستطيعون الصمود ولكن ليس المقدار الذي يحتاجونه ليصدوا المعتدين ويدحرونهم.

من المؤكد أن القادة الكورد مدركون لذلك وهم واقعيون ولكنهم لم يفكروا أبداً بوصف الوضع على هذا النحو.. يعبرون عن تقديرهم فقط الشاه إيران بعبارات تنم عن الحذر وتلمّحُ إلى أن الأساس الذي تستند إليه مساعدته هو إنسانيته الكبيرة.

وسأل سيامند:

- ولكن لماذا لا يسقطون الطائرات العراقية التي تنتهك حرمة أراضيهم وتقصف قرى إيرانية؟

لربما هو القائد الشعبي الأخير

بعد عدة سنوات من سلام غير مستقر في كوردستان العراق تجدد اندلاع الاضطرابات في منتصف عام 1931.

حين أعدم الأتراك عام 1914 الشيخ عبدالسلام في مدينة الموصل، تولي منصب المشيخة خليفته الشيخ أحمد البارزاني الذي أظهر آنذاك أمارات بأنه يريد التخلي عن التعاليم الإسلامية الصحيحة مما أدى إلى انجرار الشيخ رشيد من منطقة مجاورة إلى حرب دينية ضد عشيرة بارزان وتدخل الجيش العراقي؛ تقدم أحد طوابيره باتجاه بارزان بيد أنه وقع في كمين وتكبد خسائر فادحة وتم إنقاذه فقط بفضل تدخل سلاح الجو البريطاني.

الشخص الذي قاد عملية الدفاع عن بارزان كان شقيق الشيخ أحمد الأصغر المدعو ب(ملا مصطفى).

ملا مصطفى هو الرجل نفسه الذي لا يزال- بعد 43 عاماً- يقود الدفاع عن الجبال الكوردية.

الجنرال مصطفى البارزاني

في ربيع عام 1932 أرسلت قوة عسكرية عراقية جديدة نحو بارزان، ولكنها وقعت من جديد في كمين وردت على أعقابها، ومن جديد تدخل سلاح الطيران البريطاني وقصف القرى في منطقة بارزان، وما كان على رجال المقاومة الكوردية إلا أن يرضخوا أمام القوة العسكرية المتفوقة وفر الشيخ أحمد إلى تركيا حيث قبض عليه وسلم فيما بعد للسلطات العراقية واحتجز ملا مصطفى في السجن في مدينة السليمانية.

في صيف عام 1943 هرب مصطفى البارزاني من المعتقل وذهب مشياً على الأقدام إلى إيران ومنها عاد إلى بارزان، حيث رحب به أنصاره مسرورين وأصبح دون منازع قائد النضالات الكوردية من أجل الاستقلال. ولم يكن من الممكن تجنب انتفاضة جديدة.. بمرور الأيام أصبحت قوات البارزاني قوية جداً وقد أرغمت قوة عسكرية عراقية أرسلت إلى المنطقة الجبلية من مدينة عقرة إلى الانسحاب بلا نظام. ومن جديد تقدمت في نيسان من عام 1945 ثلاث من قوات الجيش وقوة من الشرطة باتجاه بارزان وقد أغلقت الحدود مع تركيا وعاود سلاح الجو البريطاني قصف القرى في منطقة بارزان، ومع ذلك فلم يضطر مصطفى البارزاني إلى الانسحاب إلى حين أقنعت الحكومة قبائل منافسة بالارتزاق أن تشارك في الهجوم، وكان هناك طريق واحد فقط مفتوحاً ألا وهو الطريق إلى إيران وعبر الحدود بمعية 10.000 من الرجال والنساء والأطفال.. ألفان من أتباعه كانوا محاربي جبال متمرسين، بيشمركه.

بعد ذلك بفترة قصيرة أعلنت الجمهورية الكوردية في مهاباد وانضم مصطفى البارزاني وجماعته إليها بحماس وشكل المحاربون الألفان من بارزان نواة جيش الجمهورية القصيرة الأجل، الجيش الذي منح البارزاني رتبة الجنرال. في بداية حزيران من عام 1946 اتخذت قوات البارزاني مواقعها على التلال الواقعة شمال وغرب (سقز) في كوردستان إيران ومنها كان يسيطرون على عدة مواقع عسكرية إيرانية.

لقد رأى الجنرال الإيراني رازمارا ضرورة القيام بخطوة ما لضرب محاربي حرب العصابات الكورد. تطلب شرف الجيش الإيراني ذلك. في الصباح الباكر من الخامس عشر من حزيران شنت كتيبتان إيرانيتان بمساندة المدفعية والدبابات والطائرات هجوماً على جبل مامه شاه. إنه لجدير بالاهتمام مقارنة المعركة التي جرت آنذاك مع المعارك التي تدور الآن في كوردستان العراق.. اللوحة هي نفسها تماماً: مجموعة صغيرة من البيشمركه، غير مرئية ويكاد الوصول إليها في الأراضي الجبلية أمر معتذر، وتبدي مقاومة ضارية بوجه عدو متفوق بعدة مرات ومجهز بالأسلحة الثقيلة.

تقول المصادر الكوردية إنه كان يدافع عن جبل مامه شاه، حين بدأت المعركة، ثلاثة عشر بيشمركه فقط، مسلحين بالرشاشات والبنادق ويقودهم محارب مشهور هو خليل خوشوي. بينما كانت

المعركة دائرة وصل محاربون بارزانيون آخرون بلغ عددهم حوالي الثلاثين. وتقول المصادر الإيرانية إنه قد تراوح عدد أفراد قوة البيشمركه بين 500 و800 رجل.

نفذ الهجوم بمهارة فائقة، ولكن ذلك ينطبق على الدفاع أيضا، فمحاربوا البيشمركه لم يفتحوا النار إلا بعد أن أصبح العدو قريباً منهم تماماً، ويقال بأن خليل خوشوي قد أمر رجاله بالتصويب على الجزء العلوي من البدن.

حين انقضى النهار كان الجيش الإيراني قد أحتل الجبل والقوات البارزانية كانت تنسحب بعد أن كبدت العدو 22 قتيلاً و40 جريحاً في الوقت الذي قدمت فيه شهيداً واحداً هو خليل خوشوي نفسه الذي نقل إلى المشفى الروسي في مدينة تبريز وبجسده عشر رصاصات وقد مات بعدها بيومين.

عدَّ مصطفى البارزاني الذي كان في تبريز حين سمع أخبار المعركة.. بهدوء اسم كل واحد من الرجال الثلاثة عشر عند جبل مامه شاه وتنبأ بأن خليل خوشوي لن يترك الجبل حياً.

حين تم القضاء على جمهورية مهاباد عرض على البارزاني وجماعته أن يقيموا في منطقة همدان ب إيران إلا أنهم فضلوا مواصلة القتال ضد الجيش الإيراني بينما كانوا يتراجعون ببطء نحو الحدود العراقية، وفي منتصف نيسان من عام 1947 كانوا جميعاً ومن جديد في الجهة العراقية. سلم الشيخ أحمد وأربعة من الضباط في الجيش العراقي وأغلب النساء والأطفال أنفسهم للسلطات العسكرية العراقية، بينما رفض مصطفى البارزاني والقسم الأكبر من محاربيه الاستسلام، وكانوا يأملون في المفاوضات بين الكورد والحكومة العراقية ولكن السلطات العراقية أعدمت ضباط الجيش الأربعة الذين كانوا قد انضموا إلى الجمهورية الكوردية، وفهم البارزاني الذي كان قد توقع قبلها عملاً عراقياً انتقاميا، أنه من غير الممكن له ولرجاله البقاء في العراق.

دعا البارزاني جماعته إلى اجتماع وأبلغهم أن الاحتمال الوحيد بحسب رأيه هو في طلب اللجوء إلى الاتحاد السوفييتي، وقال بأنه مستعد لأن يأخذ معه إلى هناك كل الرجال الذين يجب عليهم أن يفارقوا عائلاتهم. أعلن غالبية الحضور استعدادهم لأن يرافقوه إلا أن رغبة الكثير منهم رفضت لأسباب شتى وكان مجموع الذين بدؤوا تلك الرحلة الطويلة يتراوح بين 500 و800 رجل.

في 27 أيار عبروا الحدود إلى تركيا وواصلوا بعدها المسير نحو إيران... دخلوا ثانية الأراضي التركية ومن جديد إلى الإيرانية. تلقى الجيش الإيراني الأوامر بإيقافهم، ولكن وفي الثالث من حزيران عبرت القوة الكوردية كلها مخترقة تماماً كتيبتين إيرانيتين، وفي التاسع من حزيران انتقل الكورد إلى شن الهجوم على مطارديهم وتعرضت قوة عسكرية إيرانية نتيجة الهجوم لخسائر فادحة. في العاشر من حزيران كانوا كلهم قد وصلوا الحدود السوفيتية بالقرب من نهر آراس، وحين جاء قسم من الجيش الإيراني في الثامن عشر من حزيران إلى هناك كان مصطفى البارزاني وكل رجاله قد عبروا الحدود إلى الاتحاد السوفييتي.

لم يعودا إلى وطنهم كوردستان إلا بعد مرور إحدى عشر سنة وأربعة اشهر على دخولهم الأراضي السوفيتية.

في مساء يوم _ أعتقد أنه مساء يوم الأحد _ يقول سيامند:

_ يمكنك أن تلتقي الجنرال في هذا المساء. الآن بلغتني التعليمات بذلك.

في الثامنة والنصف مساءاً نغادر إلى مقر المكتب السياسي حيث كنت قد قابلت إدريس سابقاً، كي انتظر تعليمات أخرى، ويقول سيامند:

ليس لدى الجنرال البارزاني مكان إقامة محدودة، والقليل جداً من المقربين إليه يعرفون أين يتواجد ولكن باستطاعتهم دائماً الاتصال به.

أتحدث مع مسعود، شقيق إدريس الأصغر، خلال فترة الانتظار. إنه ينبض بالشباب... كنت سأخمن بأن عمره ثمانية عشر عاماً ولكنه في الحقيقة ثمانية وعشرون. الشبه صارخ بين الشقيقين حين يتعلق الأمر بالمظهر، ولكنهما مختلفان من حيث الأسلوب فإدريس هو الديبلوماسي ... يختار كلماته بعناية بالغة ومسعود يتحدث بقلب مفتوح أكثر. يجلس هادئاً وقد ارتد في كرسيه إلى الوراء مسترخياً تماماً ومستعداً للتوضيح والمناقشة، وأستغل الفرصة للحصول على الإجابة عن عدد من الأسئلة وأطرح السؤال التالي:

-أي نوع من المجتمعات ستختاره كوردستان بعد الحرب؟ إنهم سيسألونني في السويد عن ذلك. سيسألونني ما إذا كنتم اشتراكيين أم محافظين، يساريين أم يمينين.. بم سأجيبهم؟

فيقول مسعود:

- لقد حاربنا طويلاً إلى حد أننا نتوق إلى أن تسنح لنا الفرصة للتعامل مع قضايا مرحلة السلم في كوردستان الحكم الذاتي. أستطيع أن أقول لك بأننا سنصبح مجتمعاً ديمقراطياً ذا نظام برلماني. إننا نريد علاقة حميمية جداً بين الشعب والحكومة، علاقة لم توجد أبداً في العراق. نكافح من أجل نظام اجتماعي لكل إنسان فيه الحرية للتعبير عما يفكر ويشعر، مجتمع ينعم فيه الكل بالحرية وفيه يقدر كل إنسان لما هو عليه، وأنه لهدف سامٍ.. أنا أعرف أن العديد من الثورات قد تبنت الهدف نفسه ولكنها فشلت بيد أني واثق كلياً بأننا سننجح. سنجلس بعد الحرب ونناقش المستقبل وسنجد الحلول لكل المشاكل ولا أعتقد أنه فاتتك ملاحظة الوحدة المطلقة التي حققناها في كوردستان وهي وحدة لم تخلق بالحرب فحسب.. إنها وحدة عميقة ولا يمكن تحطيمها أبداً فهي ليست مبنية على الوعي السياسي فقط، وإنما على التضامن والإئتلاف الكاملين. كلا، لا يشكل السلام مشكلة كبيرة لنا، وأنا أعرف أنه كان كذلك في بلدان أخرى ولكنه ليس كذلك هنا. مشكلتنا هي الحرب.

وأسأل عمَّن يمول الثورة مالياً فيجيب مسعود:

- يتحمل القسم الأكبر من العبء الكورد أنفسهم، يتهموننا بأننا نتلقى المساعدات من الخارج ولكنني أستطيع أن أؤكد لك بأننا لو حصلنا على خمسة بالمائة فقط من المساعدات التي يدَّعون أننا نحصل عليها لكسبنا هذه الحرب منذ زمن بعيد. يجب ألا تنسى أن بلادنا غنية.. يوجد هنا الكثير من المعادن وتغطي الزراعة في الحالات العادية أكثر بكثير من احتياجاتنا الذاتية. نحن لدينا ثرواتنا.

- وماذا عن السلاح والذخيرة؟

- القسم الأكبر غنمناه من العدو، وهذه حقيقة. نستطيع أن نشتري قسماً من السلاح ونفعل ذلك حقاً. نحتاج أكثر بكثير مما لدينا ومهما يكن من أمر فإن المقاتل (البيشمركه) لا يبدّر أبداً الذخيرة وقد اعتدنا على القول بأنه يجري إطلاق ألف رصاصة عراقية مقابل رصاصة كوردية واحدة.. النسب هي تقريباً على هذا النحو.

- ما هو تفسيرك لمسألة أن العالم حتى الآن غير مهتم تماماً بما يجري في كوردستان؟

-أستطيع الإجابة عن هذا السؤال بسؤال آخر: كيف يمكن أن يحدث أن عملاً إرهابياً، خطف طائرة أو مجزرة، يؤدي مباشرة إلى ظهور عناوين بالقلم العريض في كل صحف العالم؟ ولكن حين يكون شعب بأسره في طريقه إلى الإبادة وحين يقتل المئات من الناس الأبرياء لا يرفع أحد حتى حاجبه من الدهشة. أنا لا أفهم ذلك.

- أنتم تكافحون كما هو معروف من أجل الحكم الذاتي فحسب، ولكن ماذا يتضمن هذا (الحكم الذاتي)؟

- إنه يتضمن حكماً ذاتياً في إطار عراق ديمقراطي. لا نريد الخضوع لحكم عصابة من العسكريين. نحن نؤمن بالديمقراطية.. الحكم الذاتي لكوردستان والديمقراطية للعراق.

- أليس الأمر هو أنكم في الحقيقة تريدون استقلالاً تاماً؟

- لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال فالشعب وحده يستطيع الإجابة. إننا لن نصدق بعد الآن أبداً كذب الحكومة.. هذا كل ما أستطيع قوله.

- ولكن إذا أراد الشعب الاستقلال...

- يفكر الشعب الكوردي على نحو واقعي. الشعب والحزب هما شيء واحد.. يعبر الحزب عن آمال الشعب.

نحن عمليون.. لا نطالب بما لا يمكن تحقيقه. نستطيع أن نحلم بالاستقلال ولكن الواقع شيء آخر. حين نكتفي بالمطالبة بالحكم الذاتي فنحن نعني ذلك بصدق واستقامة.

- ما هي مشكلتكم الكبرى في الوقت الحالي؟

- أكبر مشكلة تواجهنا هي كيف يمكننا أن نجعل شعوب العالم تفهم ما نتعرض له. لا يستطيع الكورد أن يعيشوا على الهواء فقط ونحن أيضا كائنات بشرية والآن تحرق محاصيلنا ويقتل أناس أبرياء.. علق في الأسبوع الأخير 136 كوردياً على أعواد المشانق في العراق وأستطيع إذا رغبتَ أن أذكر لك أسماء سبعين واحداً منهم. ومع ذلك لا يحرك العالم إصبعاً. ومع ذلك ترفض الأمم المتحدة حتى أن تناقش المشكلة. هل يرى العالم انه لاقيمة انا أبداً؟ لو جرى ارتكاب المجازر بحق الحيوانات لقام العالم برد فعل ما، ولكن لمجرد أنهم كورد فيمكن للمجازر أن تستمر. هل نستحق هذه المعاملة؟

أحكي لمسعود عن رحلتي إلى بهدينان وفكرتي حول التكتيك العراقي يتلخص في قطع كل الصلات بهذا الجزء من البلاد وتجويعه إلى الموت، فيقول:

- إن استنتاجك صحيح تماماً، فأكثر من نصف مليون كوردي مهدد بالموت جوعاً في بهدينان ونحن مدركون ذلك تماماً ونحاول عمل ما بإمكاننا لإنقاذهم ولكن القصف الجوي والمدفعي يجعل ذلك صعباً جداً ويقترب حلول الكارثة. يتم إرسال أكثر من نصف مئونتنا إلى هذا الجزء من البلاد.. نعمل ليل نهار لإنجاح عمليات النقل ولكننا لا نعرف كيف ستجري الأمور وحتى لو متنا كلنا فإن الصليب الأحمر لن يبالي بذلك.

يدخل أحد أفراد البيشمركه ويقول شيئاً لمسعود باللغة الكوردية ويقول مسعود لي:

- سيستقبلك والدي الآن.

تنتظر سيارة لاندروفر خارجاً وفيها أحد البيشمركه وقد جلس إلى مقودها وكلاشينكوفه بجانبه وفي متناول يده. وعندما ينطلق في الظلام يضيء المصابيح الخلفية فقط.. نتبع طريق هاميلتون مسافة، وألحق أن الاحظ بأننا قد عبرنا (حاج عمران) قبل أن نخرج من الطريق الرئيسية إلى طريق جبلي وبعد ذلك لا أعرف شيئاً عن وجهة سيارتنا ولكن توجد آلة القياس الارتفاعات ملصقة بالزجاج الأمامي للسيارة وأرى كيف إن مؤشرها يزحف ببطء نحو 1900 متر قبل أن نتوقف عند بيت ألمح هيئته في العتمة. طبعاً لا أرى أي شيء من المنطقة ولكن لدي إحساس بأننا موجودون على سفح جبل محاط بالقمم العالية. ويسقط نور أبيض باهر خارجاً من خلال باب مفتوح في أحد الأروقة.. يتبادل سيامند بضع كلمات مع أحد البيشمركه ومن ثم ندخل البيت.

ينتظرنا مصطفى البارزاني وحيداً في الغرفة التي ينبعث ضوءها من فانوسي بريموس يصفران في إحدى زوايا الغرفة.

ثمة بعض الأرائك الجميلة وقد وضعت مناضد واطئة أمامها.. يدعونا إلى الجلوس ويجلس هو نفسه مقابلنا ويأتي أحد البيشمركه في الحال بالشاي.

أراقبه، هذا المحارب العجوز.. تلتقي نظراتي بنظراته الودية لكن المتفحصة تحت الحاجبين الكثيفين الأسودين.

عمامته موضوع على رأسه ولكنها غير معقودة بأحكام وقد برزت منها خصلة سوداء من شعره. يجلس بتثاقل واطمئنان ويداه موضوعتان على بطنه.. هو في الرابعة والسبعين من العمر ولكن الزمن لم ينل منه أبداً. يحمل خنجراً قد أغمده في الحزام وينغرز مقبضه في بطنه وبيده سبحة يتلمسها بأصابعه.

أحمل له هدية أخذتها معي من السويد.. بضعة أكياس من بصلات أزهار. لقد قالوا لي بأن الجنرال العجوز يحب الأزهار.. خذ معك بضع بصلات أزهار.

أقدم له الأكياس وأطلب من سيامند أن يوضح ماهيتها. يصغي البارزاني باهتمام.. يفتح الأكياس ويتفحص ما بداخلها. إنه على ما يبدوا لم يسمع أبداً بهذه الطريقة من غرس الأزهار.

وأقول بأن تغير الفصول في السويد وفي كوردستان هو واحد تقريباً، ولو طمرت، الآن في الخريف، هذه البصلات في الأرض فستنمو الأزهار في الربيع.

يتركز اهتمامه كلياً ولبرهة ليست بالقصير على البصلات ويتفحصها بتأمل عميق.

أحكي له بأختصار ما قمت به في كوردستان.. بأني كنت في بهدينان، وكنت في الجبهة، وأقول له بأن ما عشته دفعني إلى الإعجاب والغضب في آن واحد، وأني آمل بأن الحرب ستنتهي عاجلاً وأسأله:

- أما توجد احتمالات للمفاوضات بعد؟

ويجيب البارزاني:

- نعم، لن نعود أبداً إلى التفاوض مرة أخرى مع هذه الحكومة. إنها حكومة مجرمة، وهي مكروهة من كل الشعب العراقي وهي لا تمثل الشعب. الحكومة العراقية حكومة لا إنسانية وكاذبة ووحشية.

تغيرت تعابير وجهه فجأة من سيمائها، وقد كانت قبل لحظة حين كان يجلس وهو يحمل بيده بصلات الأزهار، بهيجة وودية جداً.. إنها تظهر الآن العزم الذي لا يلين.

أسأله عن الشعب الكوردي.. هل يمكنك أن تخبرني شيئاً عن الشعب الكوردي وما هي هذه القوة المتميزة التي يملكها؟

لا يفهم في البداية ما أعنيه، ولكنه وبعد أن رجوت سيامند أن يوضح أكثر يجيب:

- لا أعتقد أن ثمة فارق بين الشعب الكوردي والشعوب الأخرى، فنحن كلنا ننتمي إلى العرق نفسه، يوجد فقط العرق الإنساني، ولكن توجد طرق مختلفة لردود الأفعال وتوجد مواقف مختلفة، وأن يتصرف الكورد على النحو الذي يفعلون، فهذا لأن لدينا عدواً لدوداً لا يرحم أبداً. نحن معزولون ولا نملك تقريباً أي صديق ونضطر إلى مواجهة عدو يفتقد كل المشاعر الإنسانية. عدو وحشي قاس لا يرحم. هذا هو السبب في أن الشعب الكوردي قد أضطر إلى إظهار قوته. أنا أعرف أنه يوجد العديد من الشعوب التي يمكن مقارنتها بالشعب الكوردي، فمنذ بداية التأريخ حارب الناس دائماً المعتدين والظالمين وهذا ما نفعله نحن أيضا. نحن ندافع عن أنفسنا في بلادنا وعلى أرضنا ونطالب بحقنا في الحياة فحسب ولكن يبدوا أن العالم الآن قد وصل إلى وضع لا أحد فيه مستعد للكفاح من أجل الحرية والعدالة غير الشعب الكوردي.

أسأله عن السويد.. ماذا تعرف عن السويد؟

- أكن مشاعر خاصة تجاه السويد، وأعرف أنها قد أنجزت الكثير وحققت تقدماً كبيراً أنا أعتبر السويديين أخوة لي وأريدك أن تنقل شكرنا إلى الحكومة السويدية والشعب السويدي على المساعدة التي يمنحونها لنا.

-ولكن أليس صحيحاً أنكم لم تحصلوا على أية مساعدة من السويد؟

يربكه هذا السؤال قليلاً.. وفي الواقع لا يعرف بم سيجيب، يقول:

- نحن نقدر التعاطف الذي أظهرته السويد. وآمل أنك الآن وقد شاهدت الحقيقة ستحكي للسويديين وتطلب منهم أن يفعلوا أكثر مما فعلوا. وبوصفها أمة متمدنة ومتطورة جداً، فمن واجب السويد أن تقوم بعمل شيء لإيقاف هذه الحرب.

أرغب في أن أبقي معه لعدة أيام ولكني أدرك أن مثل هذه الرغبة ستكون غير معقولة.

لقد تجاوزت الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل بكثير. يتم وضع خطط الثورة الكوردية وقيادتها كما فهمت في الليل. الآن يسود الصمت والهدوء على كل الجبهات تقريباً وفي كل القرى أطفأ الناس النيران واضطجعوا لينـاموا ولكن الجنرال العجوز لا يزال مستيقظاً.

أقول له:

- أود لو سمعتك تحكي عن حياتك ولكن الوقت ليس مناسباً فلسوف يستغرق الحديث مدة طويلة جداً. لربما سيتسنى لي أن ألتقي بك مرة أخرى، بعد الحرب؟

- طبعاً، نرحب بعودتك إلى كوردستان في أي وقت تشاء.

وأفكر ملياً: ما قيمة كل عظماء العالم بالمقارنة مع هذا الرجل؟ ما شاه إيران... ما كيسنجر وبالمه وويلسون.. بالمقارنة مع مصطفى البارزاني؟

لربما هو القائد الشعبي الأخير، الأخير والوحيد.

حين نقفل عائدين والليل يخيم على الكون، يفلت سيامند العنان للأسى المتراكم في أعماقه ويدفعه إلى الانفجار، وأتركه يحكي ولا أبدي أية اعتراضات ولا أطرح أية أسئلة.

- هل تدري أنه ومنذ عام 1919- حين تعرض الكورد لأول قصف بالقنابل بالطائرات في التأريخ- أننا كنا عرضةً لحرب عدوانية مستمرة! هذه هي إحدى الحقائق. وخلال كل هذه الفترة الطويلة تعلم الشعب الكوردي بضع حقائق واضحة: ((الحكومة))، لقد تعلموا أنها لا تعني المساعدة والعون مثلما هي في السويد وغيرها من الدول الأوروبية. ((الحكومة)) تعني أحداً يأخذ ابنك في اللحظة التي يبلغ فيها الثامنة عشر من العمر ويرسله إلى الجيش ويفسده ويذله ويبعثه إلى البيت رجلاً محطماً.. ((الحكومة)) تعني رجل شرطة قاسياً، يأتي ويركلك ويؤذيك ويسلبك نقودك.. ((الحكومة)) تعني موظفين يجلسون وراء طاولاتهم ويصدرون إجازات ورخصاً دون أن يعرفوا شيئاً ولو بسيطاً عن عملهم، مهتمون فقط بكيفية التمكن من استجرار رشاوي ضخمة لأنفسهم.. ((الحكومة)) تعني لنا كل ما هو سيء وغبي وظالم، وهذه هي خبرة ثلاثة أجيال.

لربما أن كوردستان بلد فقيرة ولكن لا توجد أسباب لكي تكون كذلك.. ومع ذلك فهي بلد متطور لأنه يمكن للمرء هنا أن يعبر عن رأيه دون أن يكون في حاجة لأن يكون خائفاً. لقد توصلنا هنا إلى

نقطة بحيث أن رجلاً مستعداً لأن يموت على الجبهة يتساوي في القيمة مع آخر. لا يحني أحد في كوردستان رأسه لأحد ولن يفعل ذلك أبداً. ومهما يكن من أمر فقد حاربنا خلال ثلاثة عشرة سنة عدواً هو الأسوأ في العالم كله. لا يوجد بلد أسوأ من العراق في كل العالم!

لقد توجهنا إلى الصليب الأحمر ورجوناهم وقبّلنا أقدامهم.. قلنا لهم بأن يرسلوا أحداً إلى هنا ليرى حالنا، وبم أجابونا؟ لقد قالوا: ((لا نستطيع، يجب أن يتم ذلك عن طريق رسمي، من خلال حكومتكم)). حياة كوردي لا تساوي أكثر من برميل نفط فقط!

خذ على سبيل المثال سورسا، رئيس الحكومة في فنلندا. لقد كان هذا رئيساً للجنة الصداقة الفنلندية- الكوردية، وقد أصبح رئيساً للوزراء.. لقد كنا سعداء جداً وفكرنا: الآن سيفعل شيئاً! ولكنه ومنذ اليوم الذي أصبح فيه رئيساً للوزراء.. غيّر موقفه تماماً. لقد قال: أتحمل الآن مسؤولية تجاه شعبي، وقبل كل شيء تجاه شعبي، وثمة بعض الأشياء التي لا أستطيع القيام بها. إنه يعرف جيداً ما يجري في كوردستان، هو وكل حزبه يعرف ذلك ولكن لفنلندا الآن مصالح ضخمة في العراق.. وهي الشيء الوحيد الذي يعني شيئاً. وبالمناسبة فالأمر نفسه ينطبق على بلدك. تأكد تماماً بأن رئيس وزرائك بالمة يعرف جيداً ما يجري في كوردستان وهو يعرف بأن الحق إلى جانبنا،ولكن علاقات السويد التجارية مع العراق هي بطبيعة الحال أهم شيء.. أهم شيء من حياة كل الشعب الكوردي أو موته.

يتجاهلنا العالم ليس لأنه لايعرف ما يحدث.. السبب بسيط جداً فهذا العالم ليس مبنياً على مبادئ إنسانية، وهو عالم لا إنساني قذر وعفن. لقد تعبت من هذا العالم! فليفجر هذا العالم نفسه في الهواء فذلك سيان عندي!

ومهما يكن من أمر فلسوف نقول للعالم: اذهبوا إلى الجحيم! سنتدبر أمورنا بدونكم! ولسوف نبقى على قيد الحياة! ولسوف نعطيكم في هذه المرة درساً، درساً لم ولن تنسوه أبداً.

ادعُ شعبك أن يساعدنا

أدرك أنه قد حان الوقت للعودة إلى الوطن، ولكني قررت أن أعود أولاً إلى جبهة بالك وأن اقتضى يومي الأخير في كوردستان هناك.

وكأنما كل ما عايشته في كوردستان تركز هناك عند جبل كَيروي عمر آغا. لقد تحدثت بهذا الخصوص مع سعدالله وهو يريد بكل سرور أن يرافقني.

ولكننا نبدأ بالتحدث عن المخاطر. لقد كنت على الجبهة كما أسفلت مدة يومين.. فهل يجب علي أن أذهب إلى هناك ثانية؟ ينصحني سعدالله ألا أذهب، وكنت أشعر بأقل تردد، بالإضافة إلى أنني قد رجعت من زيارة الجنرال متأخراً بحيث أننا لا يمكننا أن نصل الجبهة قبل الفجر.. وهذا يحسم الموضوع، بما أنني لا أريد إطلاقاً أن أذهب إلى هناك في ضوء النهار مرة أخرى طالما طائرات الميغ تحوم مطاردة في الجو.

أغادر متوجهاً إلى حيث سعيد دزَيي لأودعه وليوضح لي أمراً فكرت فيه فجأةً:

يتعلق هذا الأمر بالنفط.. ما هي حقيقة مسألة النفط؟

فيقول دزَيي.

- الفاشيون البعثيون يحاولون إيهام العالم بأننا رفضنا قبول اقتراحهم بالحكم الذاتي، لأننا أردنا الاستيلاء على حقول النفط في كركوك، ولكن هذا كذب وافتراء من أوله إلى آخره. من المعروف بأن الكورد- وهذه حقيقة تأريخية- قد كافحوا من أجل حريتهم قبل أن يجري اكتشاف البترول في العراق بزمن طويل.. أجل، وقبل أن يجد الناس البترول في أي مكان على الإطلاق بزمن طويل. ليس البترول هو غاية كفاحنا ولكن من الطبيعي أن تكون كركوك نفسها مهمة لنا بوصفها جزءاً من كوردستان. حين يتعلق الأمر بحدود كوردستان ذات الحكم الذاتي فنحن مستعدون للتفاوض حول بعض المناطق في الجنوب وفي الغرب ولكننا لن نتفاوض حول كركوك.. كركوك جزء من كوردستان وقد كانت كذلك على الدوام.

ألتقي ((بمجنَّدٍ)) جديد من صفوف الثورة وقد وصل بالضبط في صباح اليوم الذي سأغادر فيه إلى بلدي. إنه شاب جاء من الاتحاد السوفييتي وقد جاء إلى كوردستان الحرة قاطعاً مسافة شاسعة عبر أوروبا والشرق الأوسط، وهو في الثامن والعشرين من العمر وله أقارب في كركوك، ومع أخذ ذلك بعين الاعتبار، فإنه يريدني ألا أذكر اسمه.

لقد درس في روسيا منذ 1970 وهو الآن مذهول قليلاً بعد الرحلة، ولأنه لأول مرة منذ عدة سنوات يستطيع أن يتحدث بحرية. يقول لي:

- العيش في الاتحاد السوفييتي ليس سهلاً فالدولة هناك دولة بوليسية. هل تدري أن الطلاب الأجانب يحتاجون تأشيرة الدخول (الفيزا) إذا أرادوا السفر أبعد من مائة كيلومتر من موسكو؟ لقد كنا على الدوام تحت المراقبة..

كانوا يتجسسون علينا ويراقبون كل ما نفعله، أية جرائد كنا نقرأ؟ والى أية محطات إذاعة كنا نسمع؟ وما إلى ذلك.

حين أنهى دراسته سمح له بالعودة إلى بغداد.. وليس غيرها، وبطاقة الطائرة كانت إلى بغداد فقط.

- توجهت إلى السفارة السويدية وطلبت تأشيرة دخول إلى السويد وهناك أودعت صور فوتوستاتية عن شهاداتي أيضا لأنهم بسبب ذهابي إلى السفارة السويدية سيأخذون مني الشهادات على الحدود ولكن السلطات السوفييتية لم تدعني أنتظر التأشيرة السويدية.. كانوا سيرسلونني إلى العراق. حملت نفسي وتوجهت إلى برلين الشرقية ومن هناك لم ألق أية صعوبة في الانتقال إلى برلين الغربية ومن ثم إلى بيروت بالطائرة، والآن أنا هنا.

يقول بأنه سعيد لهذا القليل الذي شاهده حتى الآن من كوردستان.

- إنه بالطبع بلد حر وشعبه يملك أخلاقاً عالية. توصف الثورة الكوردية في البرافدا بوصفها مجموعة منشقين يمينية متطرفة مدعومة من الولايات المتحدة. بالطبع كنت أعرف أن كل ذلك كذب وكان من الأفضل أن أثق بكوردستان، وأنا سعيد لأني هنا وأحاول الآن أن أعمل ما بوسعي كي أساهم بقسطي في الثورة لا أزال أحتفظ بشهاداتي.. فمن المؤكد أن الصور الفوتوستاتية لا تزال موجودة في السفارة السويدية بموسكو.

سيرافقني سعدالله إلى (الرضائية) في الجهة الإيرانية ولكني أطلب منه أن يبقى في (حاج عمران).. لم أرى بعد المكان الذي جرت فيه محاولة أغتيال البارزاني المشهورة عام 1971. لقد سمعت بالقصة ورفضت تقريباً تصديقها بكل تفاصيلها.. إنها قصة من طراز قصص جيمس بوند أخرجها مجموعة مجانين.

الكورد مدركون أيضا لمسألة أنه يصعب تصديق القصة، ولذلك فقد احتفضوا بمكان الحدث الدرامي دون المساس به بوصفه متحفاً.

كان البارزاني قد وافق على أن يستقبل مجموعة من الشيوخ ذوي الاهتمام الديني من العراق بغرض المناقشة. جاء الشيوخ التسعة من بغداد في سيارتين ورحب بهم الكورد إلى هذا البيت في (حاج عمران). قدم واحد منهم كتابين مقدسين هدية إلى البارزاني، وجلسوا بعد ذلك في مربع على طول الحيطان في الغرفة. جلس البارزاني وافتتح المحاورة التي كانت ستدور حول الدين والأخوة ولكن في تلك اللحظة بالذات انفجر الشيخ ابراهيم الخزاعي الذي كان جالساً مقابل البارزاني وانشطر إلى شطرين ولا يزال بإمكان المرء أن يرى بعض أحشاء الشيخ الخزاعي ملتصقة بالسقف وعلى الجدران في الغرفة.

فيما عدا الخزاعي قتل على الفور شيخ آخر كان جالساً بجانب البارزاني وأحد البيشمركه وكان قد انحنى في تلك اللحظة بالضبط من فوق خزاعي ليقدم له الشاي وبهذا الشكل فقد حمى البارزاني بجسمه، وأما البارزاني نفسه فقد نجا وقد أصيب بجراح طفيفة فقط.

كان الشيوخ على اتصال بالحكومة العراقية وكان خزاعي قد تلقى أوامر بأن يأخذ معه مسجلة ويخبئها تحت عباءته الفضفاضة. كانت مهمته أن يسجل سراً كل المحادثة مع البارزاني ويسلم الشريط بعد ذلك إلى العراقيين. لم يكن لديه أية فكرة حول أن المسجلة كانت قنبلة انفجرت في اللحظة التي ضغط فيها على زر التسجيل.

ثارت بعد الانفجار جلبة كبيرة واندفع الشيوخ خارجين من الغرفة ورمى بعضهم على ما بدا قنابل يدوية كانت مخبأة في ثيابهم. فتح حرس البارزاني الشخصي النار ولم ينتهوا إلا بعد أن قتلوا كل الشيوخ وسائقيهم وقد اتضح أن السائقين كانا قائدي محاولة الاغتيال.

كان الوفد العراقي قد جاءا في سيارتين الأولى جيب من طراز تويوتا والأخرى شوفرليت. بعد نصف ساعة من تلك الضوضاء طارت الجيب في الهواء وحينها لم يكن أحد بالقرب منها ولا تزال بقايا الجيب قائمة خارج المنزل.

ساق أحد رجال البيشمركه الشجعان سيارة الشوفرليت بعيداً عن المكان وعندما فحصوها فيما بعد وجدوا سبع عبوات من الديناميت تحت المقعد الخلفي وأربع عبوات من ثالث نترات التولوين

خلف أجهزة القياس لتفسح المجال لصاروخين من صنع عراقي لإطلاقهما في الطريق على مطاردين محتملين.

لا يزال في إمكان المرء أن يرى في الغرفة الواقعة في (حاج عمران) آثار حمام الدم. الكرسي الذي كان (القنبلة الحية) جالساً عليه قد تلف كلياً والسقف والجدران مرشوشة بالدم.

لقد حدث هذا في التاسع والعشرين من أيلول عام 1971 والآن أصبحت أصدق قصة.

على الحدود مع إيران يقل عدد اللاجئين فقد سيق غالبيتهم إلى المعسكرات في إيران ولكن ما يزال يأتي جدد:

يضطرون إلى البقاء هناك عند الحاجز الحدودي والانتظار بينما تصبح الريح في كل يوم أكثر برودة.

حين نعبر حاجز الحدود الذي هو من خشب الحور الأبيض لا أحد ينظر في جواز سفري ولا أحد يسألني عن شيء وننطلق إلى واحد من مخيمات اللاجئين في الجانب الإيراني.. مدينة خيام ضخمة منصوبة على عدد من التلال.

لقد نصبت الخيام متلاصقة، متلاصقة في خطوط مستقيمة..يقنطها النساء والأطفال والشيوخ.

ألتقي زكية اسماعيل، رئيسة الاتحاد النسائي الكوردي والعضوة في اللجنة المركزية للحزب. إنها أهم ممثلة للنساء الكورديات.. امرأة واثقة من نفسها كثيراً وجميلة وحازمة جداً.

لقد كانت مع الثورة منذ البداية وقد ولدت في بغداد عام 1939 وفي سنة 1957 نالت شهادة الإجازة في الحقوق وتعمل منذ ذلك الوقت محامية وتنتمي إلى الطبقة الغنية جداً ولكنها ومنذ 1963 كرست نفسها بكل حماس للحركة الكوردية وقد سجنت لهذا السبب.

ـ لقد نزلت في السجن مع أطفالي الثلاثة لمدة شهرين وكان عمر ولدي الأصغر آنذاك 40 يوماً فقط، وكان مريضاً ولم يحصل على أية رعاية طبية، ومهما يكن من أمر، فقد نجح والدي أخيراً في إرشائهم ليفرجوا عنا.

كانت زكية قد تركت بغداد قبل الحادي عشر من آذار عام 1974 وانطلقت إلى كوردستان، ولكن حين اندلعت الحرب كان الأطفال لا يزالون في بغداد وفشلت محاولاتها في الاتصال بهم. في بداية أيار جاء البوليس في منتصف الليل ورحَّلوا الأطفال مع خالهم وخالتهم، لقد كانت حملة مداهمات ضخمة لبيوت الكورد في بغداد، وقبض فيها أربع وعشرين عائلة شحنوا في سيارات شحن عسكرية أخذتهم إلى (أربيل) حيث صدر لهم الأمر المألوف:

((اذهبوا إلى قائدكم ملا مصطفى)).

وغادروا مشياً على الأقدام وقد كانوا مجموعة كبيرة من النساء والأطفال، وقد وصلوا بعد سبعة أيام من السير ليل نهار إلى واد شديد الانحدار ووعر وهو (كَلي علي بك)، وقد كانوا شبه موتي من

الجوع واتجهوا غير مكترثين باستقامة نحو الجبهة ووقعوا في وسط خط النار واكتشف مجموعة من البيشمركه مجموعة الأطفال في أسفل الوادي وصاحوا بهم: ((من أين أتيتم؟)) فأجابوا: ((لقد أتينا من بغداد)).

عملت مجموعة البيشمركه حبل إنقاذ بأن ربطوا مناديلهم (شوتك) بعضها ببعض وأصعدوا بعد ذلك الأطفال والنساء واحداً بعد آخر واهتموا بأمر نقلهم إلى المستشفى في (جومان) وقد كان وضع العديد من الأطفال صعباً جداً وكانوا متأثرين نفسياً أيضا. لقد جاء إلى كوردستان على هذا النحو حوالي 120 طفلاً.

ترافقني زكية في التجول في المخيم وأتحدث مع عدد من اللاجئين الذين تتطابق حكاياتهم كلها فقد أبعدتهم القوات العراقية رغم إرادتهم.. وقد وصلوا كوردستان بعد مشقات بالغة، أو أنهم أخلوا منازلهم طوعاً حين اقتربت القوات العراقية من مناطقهم وهكذا فقد أخذوهم بعد ذلك إلى المخيم في إيران والآن هم بانتظار أن تنتهي الحرب في يوم ما فحسب.

الظروف في المخيم جيدة نسبياً.. يحصل اللاجئون على ما يكفي من الطعام ولا يعانون من احتياج ملح. ولكن كيف سيكون الأمر حين يهطل الثلج؟.. فالشتاء هنا في الجانب الإيراني أيضا قاسٍ.

يوقفني طبيب شاب وهو نفسه يتجول بمساعدة عكازة وقد لفت إحدى قدميه بضمادة ويقول لي:

- عليك أن تساعدنا في الحصول على المساعدة فليس لدينا ما يكفي من الدواء على الإطلاق، ويموت العديد من الأطفال كل يوم لأننا لا نملك الدواء. ادع شعبك أن يساعدنا.

أتسمر بجانب ولد صغير يتبعني أينما توجهت واحاول التحدث إليه، ولكن وكما لو أن ظلاً قد سقط على وجهه.. إنه يعاني من تقلصات عصبية في الوجه، ولا يستطيع الوقوف ثابتاً ولا أن يحتفظ بنظراته ثابتة، وتقول زكية.

- إنه مصأب بصدمة صعبة بعد قصف بالقنابل، ولدينا الكثير من أمثاله ولكني ألاحظ بأنه يبدأ بالتحسن.

أبيت ليلتي مع سعدالله عما إذا كان ثمة ما لا يعجبه الثورة.. ثمة ما هو خطأ فيجيب:

- نعم، معاملة البيشمركه معاملة سيئة. إنهم مستعدون للتضحية بحياتهم من أجل الثورة ولكنهم لا يقابلون باحترام كافٍ. إن المقاتل (البيشمركه) يعش على الشاي والخبز وحياته قاسية إلا أنه لا يشكو، ولكن توجد طبقة بورجوازية تعيش بترف متلطفة على الثورة، أناس لا يحققون شيئاً ذا قيمة على الإطلاق مع أنهم يتبوؤون مناصب عالية، ولكنهم مع ذلك عندهم الإمكانيات للاحتفاظ ببيوت وسيارات خاصة بهم. ويتابع مضيفاً:

- أنا شخصياً أقبض 30 ديناراً في الشهر وهو راتبي من دائرة الإعلام وهو نصف ما كنت أقبضه بوصفي مدير مدرسة (كركوك)، ولكنه مع ذلك أكثر بثلاث مرات من راتب البيشمركه وهذا خطأ تماماً. أنا لا أنجز الكثير مثلما ينجز واحد من البيشمركه الذين يقاتلون حقاً من أجل الثورة. أنا لاأحب أن يعاملوا معاملة سيئة.

وأقول له:

- ولكنك بالرغم من أنك تعرف أن أناساً معينين- في كوردستان أيضا-يجمعون النقود من الحرب ويعيشون في رفاهية بينما يحارب أبناء شعبهم ويموتون على الجبهات ويموت اللاجئون من الجوع.. وبالرغم من ذلك تؤيد الثورة بحماس؟

- نعم، طبعاً. إن ما ذكرته هي ظواهر لا يمكن للمرء أبداً التخلص منها وبالأخص في هذا الجزء من العالم.

على كل حال يجب أن نمنح أنفسنا قليلاً من الوقت. ليس الكورد كلهم بالطبع ملائكة ومن الواضح أني أرى أنه على القيادة- الجنرال البارزاني والآخرين- أن تتناول الآن أمر بعضٍ من هذه الشخصيات عديمة النفع.. بيد أننا وبكل بساطة لا نملك الوقت بعد لهذه المشكلة.. فكل شيء يجب بالطبع أن يتركز على الحرب، على الجبهات.

- ألم تشكَّ أبداً في الثورة؟

- نعم، أبداً. إن ذلك لن يتبادر إلى ذهني.

لقد بذر سعدالله بنزاهته الواضحة بذرة من الشك. ترى هل خُدِعتُ؟ هل تسنَّى لي رؤية الواجهة فحسب؟ لماذا لم أسأل عن هذا الأمر سابقاً؟ وأقول لسعدالله:

- أولئك الذين تسمونهم ((المرتزقة)) (الجحوش) هم أيضا كورد.. أليس كذلك؟

- بلى، قسم منهم. إن غالبيتهم من المدن. ولكن توجد ثلاث عشائر في بهدينان- هركي وسورجي وزيباري وريكاني- كانت منذ البداية ضد الثورة. إنهم يعيشون في مناطق الموصل ودهوك والعمادية، وقد وقفوا حتى عام 1967 إلى جانب الحكومة ضد البارزاني ولكنهم انضموا فيما بعد إلى الثورة وقبلهم البارزاني، والآن يقف عدد قليل منهم في خدمة الحكومة، ويجدر بالذكر أنه يوجد من بينهم الذين يعيشون على تهريب السلاح والذخيرة إلينا.

يصاحبني على متن الطائرة الحديثة جداً والتابعة لخطوط الجوية الإيرانية من (الرضائية) إلى (طهران). شمال الذي سيبدأ وظيفة جديدة في الممثلية الكوردية في (طهران) وأبوح بشكوكي له أيضا فأقول:

- لقد أريتموني كما هو معروف معسكر أسرى الحرب، ولكن كان فيه أسرى الحرب العرب وحدهم. لماذا لم تطلعوني على تلك المعسكرات التي تحتفظون فيها بالجنود المرتزقة (الجحوش). هل يعاملون على نحو أسوأ؟

يجيب شمال:

- أجل إنهم يعاملون معاملة أسوأ من معاملة العراقيين ولكنها مع ذلك ليست سيئة جداً. إن القضية متعلقة أكثر بعدم الحب.. الشعب لا يحبهم وهم يُعتبرون خونة.

أسأله عن عداوات القبائل. عندما تنتهي الحرب.. هل ستحتدم هذه العداوات حينئذ من جديد؟

فيقول شمال:

- لا، فكل شيء الآن مختلف لا توجد أية عداوة باقية بين القبائل فقد وحدت الثورة الكوردية. خذ البيشمركه على سبيل المثال.. إنهم من أجزاء مختلفة من البلاد ومن عشائر مختلفة ويتكلمون لهجات مختلفة. إذا ما نجحنا في الحرب فسننجح في السلام أيضا، وأنا مقتنع بذلك.

لقد فاتني شيء.. من الأفضل أن أقر بذلك فإني لم أستعلم عما يفعلونه مع المعتقلين من ((المرتزقة))، أولئك الذين ينفذون مهمات الحكومة، وكان علي أن أقوم بذلك بيد أن الوقت متأخر للرجوع. لا أستطيع الشك بشمال ولكني لست واثقاً بأنه يعرف. نستقل أنا وشمال سيارة أجرة من المطار إلى (طهران) ونبحث مدة طويلة عن مكان نبيت فيه وأخيراً نجد غرفة بسريرين في فندق ميامي. أجري مكالمة هاتفية مع السفير السويدي وأسأله ما إذا كان يريد تقريراً من كوردستان العراق، فهي بالطبع بلد ممتنع كلياً على الدبلوماسيين، وسفيرنا في طهران لا يستطيع أن يحشر أنفه فيها بما أنها ليست تابعة لمنطقته وسفيرنا في بغداد أيضا لا يمكنه بالطبع أن يعبر خط الجبهة إلى كوردستان الحرة.

يريد السفير بكل سرور أن يسمع ما عندي لأحكيه فأغادر الفندق لأقابله. نتبادل الحديث حوالي ساعة من الزمن وأستطيع أن أفهم بأنه يعرف الأوضاع جيداً، وهو في موقفه من الكورد متعاطف معهم روحاً وقلباً بالرغم من أن عليه الاحتفاظ بمثل هذه الآراء لنفسه. وأسأله:

- ولكن ماذا يمكن للسويد أن تفعله؟

- لا شيء.. ربما بعض المساعدة الإنسانية ولكن ليس أكثر.

- إذن فإن السويد لا تستطيع أن تعرض القضية على الأمم المتحدة.. أليس كذلك؟

- نعم، إنه غير ممكن تماماً، فهذا سيعني قطع العلاقات مع العراق وهذا ما لا نستطيع المخاطرة به.

يذهب السفير إلى أن القضية ميئوس منها تماماً ومن المؤكد أنه يمكن للمرء أن يتعاطف مع الكورد وهذا من السهل القيام به، ولكن على المرء بالرغم من ذلك أن يدرك أن كفاحهم ميئوس منه، وإن كوردستان عراقية مستقلة ذاتياً أمر غير ممكن.

لقد عدت تماماً إلى ما بدأت منه.

أحكي لشمال عن حديثي مع السفير وأقول له:

- لا يوجد بالطبع أي مخرج والكل سيقولون لكم الشيء نفسه. سيقولون: ((نحن نعرف مطالبكم عادلة وإن كفاحكم يؤثر فينا ولكننا لا نستطيع مساعدتكم)).

لسوف يمحى الكورد من على وجه الأرض ولربما سيأسف البعض على ذلك ولكن لن يحاول أحد أن يعيق ذلك.

شمال صامت.. يكاد يصدر عنه رد فعل. وأقول:

- ولكن بحق السماء! أنتم لن تستطيعوا الاستمرار بنجاح في الحرب إلى أجل غير مسمى ضد الجيش العراقي كله وضد الاتحاد السوفييتي وربما ضد سورية وتركية و إيران وضد العالم كله! من المؤكد أنكم لن تلقوا بأنفسكم مباشرة في التهلكة! توجد لديكم بالتأكيد خطة ما!

فيقول شمال:- الجبال.

- سيقومون بتجويعهم إلى الموت!

- لدينا خطة. سنحاول أن نبني حكومة عراقية جديدة. ليس حكومة كوردية وإنما حكومة عراقية. توجد في كل أنحاء العراق مجموعات معارضة تريد التعاون معنا ويجري دعمهم كما تعتقد سراً من قبل سورية ومصر. لا أدري إن كنا سننجح ولكننا نرى ذلك بوصفه مخرجاً: إعلان حكومة عراقية جديدة يمكن أن تحظى بتأييد كلٍّ من الكورد والعرب.

أصادف في الصفحة الأولى من ((صحيفة طهران)) الصادرة بالإنكليزية مقالة تثير الاهتمام وهي تتناول موضوع طائرة تابعة للخطوط الجوية الاسكندينافية SAS كانت في طريقها إلى طهران واضطرت على الهبوط في بغداد واحتجزت هناك لعدة ساعات، وقال أحد المسافرين الإيرانيين والذي كان على متن الطائرة بأن العراقيين ادعوا أن الطائرة قد انتهكت المجال الجوي. أكد اليوم متحدثون باسم SAS في طهران وقوع الحادثة ولكنهم قالوا بأن الطائرة التي توجهت إلى طهران من اليونان كانت قد حصلت مسبقاً الموافقة من العراق إذن بالتحليق في أجوائها وقد رفضوا أن يدلوا بتعليقات إضافية.

كانت الطائرة قد توجهت من كوبنهاغن إلى زيوريخ وبعدها من زيوريخ إلى أثينا وكانت ستطير من أثينا إلى طهران وبعدها تواصل إلى الشرق الأقصى.

قال الدكتور سعد آغاخان، وهو واحد من المسافرين الإيرانيين على متن الطائرة بأن الطيار قد أبلغ المسافرين حوالي الساعة التاسعة مساءاً بأن على الطائرة أن تهبط في بغداد ولم يقل شيئاً آخر. وقال سعد إنه وبعد الهبوط أحاط بهم الجنود العراقيون ودخل بعضهم الطائرة وتحدثوا مطولاً مع الطيار.

وقال أيضا بأن الطائرة قد فتشت بدقة من قبل الجنود العراقيين وبأنه لم يستطيع سماع المحادثة مع الطيار.

وقال سعد بأنه سمح للطائرة بمغادرة بغداد حوالي الساعة الرابعة وبعدها طلب ضابط عراقي الاعتذار من المسافرين وقال، بأن الطيار قد حلق في الأجواء العراقية خطأً.

ثمة طائرة تابعة ل SAS تتوجه من طهران إلى كوبنهاغن مرتين في الأسبوع، وهي أسرع صلة وصل بالسويد وأحجز مكاناً عليها. إنها طائرة DC 9:a كبيرة وفخمة وهي قادمة من طوكيو، وسوف تطير فوق تركيا في طريقها إلى أثينا بحسب خط سيرها.

ومع ذلك فما كدنا نحلق في الجو لمدة ساعة تقريباً حتى أبلغنا القبطان بأننا نطير فوق بغداد.

أهرع إلى حجرة إعداد الطعمة الباردة وأسأل أفراد الطاقم،: هل كنتم أنتم من أرغموا على الهبوط في بغداد؟

تعقد الدهشة ألسنتهم ويقولون:

- أجل، كيف عرفت ذلك؟

- ولكنكم طبعاً تحلقون الآن فوق بغداد ثانية! ليست لدي أية رغبة في أن أجد نفسي في بغداد.

- لدينا إذن الرغبة نفسها. لا يمكن للمرء أبداً أن يعرف المبررات التي يختلقونها.

أن ترغم طائرة نقل مدنية على الهبوط بهذا الشكل، فهو عمل قرصني محض ومع ذلك فلم يرد سطر واحد في الصحف السويدية عن هذه الحادثة.

لقد كانوا بالتأكيد يبحثون عن أحد القادة الكورد فقد دققوا في جوازات سفر كل المسافرين.

ألمح عميقاً في الأسفل الأضواء المنبعثة من بغداد في العتمة ونواصل الطيران مبتعدين باتجاه البحر الأبيض المتوسط.

لقد حل الشتاء الآن. مساء أمس كانت العاصفة تولول خارج نافذتي وفي هذا المساء يهطل الثلج الأول.

لقد مر أكثر من ثلاثة أسابيع منذ أن سمعت شيئاً من كوردستان.

ترى هل طمر مصطفى البارزاني البصلات التي أهديته إياها في الأرض.

ملحق

تستمر الحرب طوال الشتاء كله.

يكتب سعدالله في إحدى الرسائل: ((لقد استعادت قوات البيشمركه في السابع عشر من تشرين الثاني خلال هجوم ليلي جبل سه رتيز المطل على كَيروي عمر آغا وسحقت ثلاثة أفواج عراقية ويعني هذا برأيي نهاية الهجوم العراقي. يبدأ البيشمركه الآن بحملة الشتاء التي تهدف إلى إرغام العراقيين على النزول إلى السهل ولا أعتقد أن العراقيين يستطيعون الصمود بوجه هجماتنا وفي الوقت نفسه تحمّل الشتاء القاسي، وعلى اغلب الظن سيرغمون على التراجع قبل أن يصبح الوقت متأخراً. لقد جرت تقوية مدفعيتنا الثقيلة التي تلحق بهم خسائر فادحة)).

تصلني رسالة قبل عيد الميلاد بقليل، وقد كتبت على أوراق من دفتر ملاحظات:

((لا أدري إن كنت تذكرني ولكني أعتقد بأنك تذكر لأني واحد من أصدقائك. لقد تلاقينا في كوردستان، العراق، عند جبل كَيروي عمر آغا وإذا كنت تذكر المجموعة المضادة للدبابات هناك، فعليك أن تذكر اسم فاضل جلال، الطالب من بغداد الذي قاد عملية الدفاع بمواجهة الدبابات، أنه أنا.

لقد قلتَ بأنك ستكتب عنا، عن رفاقي وعني ولا أدري كيف فكرت بنهاية هذه الحكاية، ولكني سأحاول بأن أساعدك فيها.

أنا الآن في إحدى مستشفيات كوردستان فلقد أصبت بجراح في واحدة من أشرس المعارك. أذكر أننا كنا عندما كنت هناك بانتظار الهجوم الرابع للجيش العراقي ولقد جرحت في الهجوم رقم 13، وكان ذلك في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني عام 1974، وقد أصيب كتفي اليمنى والتي لم يعد يمكنني استخدامها، وأنا حزين جداً لذلك، لأن الدكتور يقول بأنه ليس بإمكاني العودة إلى الجبهة)).

تصلني أيضا رسالة من سعيد دزَيي الذي يكتب:

أعتقد أني كنت قد قلت لك بأنه ربما يستطيع الكورد أن يقبلوا بتسوية حول الحدود، ولكن ذلك لم يعد يصح، فالجنرال البارزاني قد قال لك بأنه ((كلما ازدادت تضحياتنا سيزداد ما نطالب به من الحكومة العراقية)) ويضحى الكورد كل يوم أكثر فأكثر. لقد حصل العراقيون الآن على طائرات ميغ 23 السوفييتية ويستخدمونها في قصف وادي جومان بالقنابل كل يوم. لقد قتل خمس نساء وأطفال في جومان في غارة واحدة فقط شنت قبل أيام، وكانوا قد التجئوا إلى جسر يقع تماماً بجوار قصر السلام حيث كانوا يسكنون، وفي اليوم نفسه قتل 15 شخصاً في كَلاله حيث أغارت الطائرات عليها كل اليوم دون انقطاع من التاسعة صباحاً إلى الخامسة عصراً. لقد نجحت لغاية الآن في البقاء على قيد الحياة مع بضعة جراح تسببتها الشظايا، ولكني لا أعتقد بأني أملك فرصاً قوية كي أنجو من هذا القصف المتواصل بالقنابل)).

في منتصف شهر كانون الثاني يتهم نظام بغداد إيران بإسقاط طائرة قاذفة.. وأفكر أنه، إما لأن إيران قد تعبت أخيراً من الانتهاكات لمجالها وأطلقت صاروخاً مضاداً للطائرات أو أن الكورد قد نجحوا في إصابة الطائرة إصابة مباشرة بقذيفة مدفعية. لا يوجد في الجرائد أكثر من هذا عن الحادثة ولكن سعدالله يحكي في إحدى الرسائل كيف وقعت:

((يوم الحادي عشر من كانون الثاني كان يوماً تأريخياً. في الساعة الخامسة من بعد الظهر تنفس الناس الصعداء بعد أن عانوا شهراً كاملاً من قصف وحشي بالقنابل، فقد سقطت طائرة عراقية من

طراز توبولوف 16 مع طاقمهما المؤلف من ستة أشخاص مباشرة وتحطمت على أحد الجبال المطلة على جومان.. أي مشهد رائع ومثير للدهشة؟! أي تنين هائل؟ أي رمز للقمع والدمار؟ لقد تفتتت إلى قطع صغير بينما صفق مئات الكورد وهللوا.. بعد هذه الحادثة لم تعد أية طائرة توبولوف تغشي السماء فوق جومان. في اليوم التالي أسقطت طائرة أخرى وكانت من طراز سوخوي 7 وارتطمت بجبل هندرين الذي يحميه البيشمركه. قفز الطيار بمظلته ونجا بنفسه فاراً إلى الجانب العراقي من الجبهة. أوقف العراقيون في الفترة الراهنة هجماتهم على كل الجبهات حتى أنهم بدؤوا بسحب مدفعيتهم الثقيلة)).

في تلخيص للفترة الواقعة بين 11 آذار و15 كانون الثاني من عام 1974 تعطي الإحصائيات الكوردية الأرقام االتالية:

خسائر القوات الحكومية: 8717 قتيلاً (دفن 1628 منهم من قبل البيشمركه)، 15973 جريحاً، 264 أسيراً.

الخسائر الكوردية: 876 قتيلاً من البيشمركه، 2238 جريحاً من البيشمركه، 1754 قتيلاً وجريحاً من المدنيين.

الطائرات التي أسقطت: 46. عدد الغارات الجوية 3978. عدد القرى التي تعرضت للقصف بالقنابل: 569.

يصلني في منتصف كانون الثاني تقرير آخر من سعيد.

((يعني الشتاء بالنسبة للاجئين معاناة قاسية جداً، ولقد صمدت العديد من العائلات الكوردية في بهدينان طويلاً بالرغم من كل الصعوبات، ولكن وقبل مدة من الزمن تحتم عليهم أن يكفوا بسبب الثلج الكثير والبرد القارس. وبدأت أعداد كبيرة من اللاجئين تتوجه نحو الحدود الإيرانية وقد كانت رؤيتهم مرعبة. لقد كان بإمكان المرء قبل حوالي الشهر أن يرى الأطفال وهم يقفون ويرتعشون حول نار عظيمة بالقرب من (حاج عمران). لقد وقفوا هناك في الثلج ليلَ نهارَ منتظرين أن يجري نقلهم إلى المخيمات في إيران. لم يكن يوجد ما يكفي من الخيم، ومع ذلك فالخيام الموجودة كانت مبللة وموحلة بحيث لم يكن أحد يستطيع العيش فيها. ولا يزال العديد من اللاجئين يفتقدون مكاناً يأوون إليه والعديد منهم التجأ إلى كهوف الجبال حيث لم يمكنهم التغلب على الشتاء القاسي.

من الطبيعي أن يكون الوضع بالنسبة للبيشمركه في الجبال صعباً أيضا، فلدى كل واحد منهم بطانية واحدة فقط لحمايته من البرد القارس وبالرغم من ذلك، فإنهم يواصلون القتال، وقد تكبدت قوات الحكومة هزائم نكراء، ولكنها لم تنسحب بعد من راوندوز.

المفاوضات مع البكر وصدام حسين مستبعدة لأنهما يجب أن يهزما مرة والى الأبد. معنوياتنا عالية جداً ونعرف بأننا سننتصر.. إنها مسألة وقت فحسب)).

قام الجيش العراقي بالتراجع ببطء ولكنه في الوقت نفسه بدأ يتجهز لهجوم كبير في الربيع، وأما الإرهاب الجوي فقد اشتد، فما إن صحا الجو حتى بدأت الطائرات السوفييتية الصنع في نهاية شهر شباط تحوم في سماء كوردستان.

أصبحت المجاعة في بهدينان أسوأ فأسوأ، وبقيت الحدود مع تركيا مغلقة حتى لإرساليات المساعدة والطريقة الوحيدة نحو الشرق، تلك الطريق التي شقها بريفكاني ورفاقه لم تكن سالكة بسبب الثلج والمطر، وفي هذه الظروف استأنف سلاح الطيران الجوي العراقي قصف القرى في كل بهدينان أيضا.

أعلن الرئيس بومدين في الجزائر في السادس من آذار عام 1975 أنه نجح خلال حفلة شاي في تحقيق مصالحة وحلٌ للخلاف الحدودي بين إيران والعراق، وظهر شاه إيران وصدام حسين في إحدى الصور وهما يتحاضنان.

في اليوم التالي بدأ هجوم عراقي عنيف جداً على كل الجبهات، فقد زج العراقيون بكل الدبابات والطائرات وجنود لمشاة بالإضافة إلى الفرقة السابعة المبنية حديثاً، وبالرغم من ذلك رفض الكورد التفاوض مع الحكومة العراقية ولكن تحمل الضغط كان صعباً عليهم.

وسقط جبل كَيروي عمر آغا.

وجرى الإعلان بأن إيران قد أغلقت الحدود، ونقلت برقيات الأخبار أن ذخيرة المدفعية الكوردية المضادة للطائرات قد نفدت، وأن الطائرات المقاتلة العراقية استطاعت أن تفتك وتبطش بحرية.

بعد بضعة أيام من معارك دموية نقلت التقارير أن الكورد قد وافقوا على وقف إطلاق النار.

لقد حسم مصير الكورد في أحد القصور في طهران.

تمت

16 آذار 1975

E-Pirtûk www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com